

عمر بن عبد العزيز

معالم التجديد والإصلاح الراشدي
على منهاج النبوة

تأليف الدكتور

على محمد محمد الصلابي

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى للناسر
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٧٠٠٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N
977-265-671-X

دار التوزيع والنشر الإسلامية



مصر-القاهرة-السيدة زينب ص.ب ١٦٣٦
٢٥١ ش بورسعيد ت: ٢٩٠٠٥٧٢ - فاكس: ٢٩٢١٤٧٥
مكتبة السيدة: ٨ ميدان السيدة زينب ت: ٢٩١١٩٦١

www.eldaawa.com
[email:info@eldaawa.com](mailto:info@eldaawa.com)

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ ، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، أما بعد:

هذا الكتاب امتداد لما سبقه من كتب درست عهد النبوة وعهد الخلافة الراشدة، وقد صدر منها السيرة النبوية.. عرض وقائع وتحليل أحداث، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن علي، رضى الله عنهم جميعاً، وقد سميت هذا الكتاب عمر بن عبد العزيز. معالم التجديد والإصلاح الراشدى علي منهاج النبوة، وهو جزء من كتابنا الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، والكتاب يتحدث عن عهد الإصلاح الكبير والمجدد الشهير عمر بن عبد العزيز، فتحدثت عن حياته وسيرته وطلبه للعلم، وعن أهم أعماله فى عهد الوليد وسليمان، وعن خلافته وبيعته ومنهجه فى إدارة الدولة، واهتمامه بالشورى والعدل وسياسته فى رد المظالم وعزله لجميع الولاة الظالمين، ورفع المظالم عن الموالى وأهل الذمة وإقامة العدل لأهل سمرقند، وعن الحريات فى دولته، كالحرية الفكرية والعقدية والسياسية والشخصية، وحرية

التجارة والكسب، وذكرت أهم صفاته، كشدة خوفه من الله تعالى، وزهده، وتواضعه وورعه، وحلمه وصفحه وعفوه، وصبره، وخزمه، وعدله وتضرعه ودعائه واستجابة الله له، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز، كالشورى، والأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء، وإحيائه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومبدأ العدل، وعن شروط المجدد، كأن يكون معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج، وأن يكون عالماً مجتهداً، وأن يشمل تجديده ميدان الفكر والسلوك، وأن يعم نفعه أهل زمانه، وتكلمت عن اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة والجماعة، فى توحيد الألوهية وفى باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وفى مفهوم الإيمان، والإيمان باليوم الآخر والمعتقدات الغيبية، كعذاب القبر ونعيمه والمعاد، والميزان والحوض والصراف والجنة والنار، ورؤية المؤمنين ربهم فى الجنة والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم وموقفه من أهل البيت. وتحدثت عن معاملته للخوارج والشيعة والقدرية وعن حياته الاجتماعية، واهتمامه بأولاده وأسرته ومنهجه فى تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح، وتحديد المنهج العلمى، وتحديد طريقة التأديب والتعليم، وتحديد أوقات وأولويات التعليم، ومراعاة المؤثرات التعليمية، وعن نتائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به، وتكلمت عن حياته مع الناس، واهتمامه بإصلاح المجتمع، وتذكيره الناس بالآخرة، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإنكاره العصية القبلية، وتقديره لأهل الفضل وقضائه ديون الغارمين، وفك أسرى المسلمين، وإغنائه المحتاجين عن المسألة، ودفع المهور من بيت المال، وجهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع، ومعاملته للشعراء، واهتمامه الكبير بالعلماء، ومشاركتهم الفعالة معه لإنجاح مشروعه الإصلاحى، فتقربوا منه وشدوا أزره للسير فى منهجه التجديدى، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسئولية، واستعدادهم لتولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية فى عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز، والعراق ومصر. إلخ، وعن منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم، وجهودهم فى خدمة السنة، ودور عمر بن عبد العزيز فى تدوينها، وأشرت إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين

وأخذت مدرسة الحسن البصرى مثلاً على ذلك فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السخيتاني، ومالك بن دينار، ومحمد بن واسع، وبينت براءة الحسن البصرى من الاعتزال، وتحدثت عن علاقة الحسن البصرى بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه، التى يبين فيها صفات الإمام العادل فى نظره، وذكرت موقف عمر ابن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية واهتمامه بالدعوة الشاملة، ووضع لقانون التفرغ للدعاة والعلماء وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين فى شمال أفريقيا وغيرها لتعليم الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول فى الإسلام.

وأفردت مبحثاً لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة فى ذلك، وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده، من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل وتحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية، وأشارت لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية، ورد الحقوق لأصحابها وفتح الحرية الاقتصادية بقيود، واتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية، وتعتنى بالمزارعين وتخفف الضرائب عنهم، وحث الناس على الإصلاح والإعمار وإحياء أرض الموت، وتوفير مشاريع البنية التحتية، وتحدثت عن سياسته فى الإنفاق العام، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين، وترشيد الإنفاق الإدارى والحربى.

وتكلمت عن المؤسسة القضائية، فى عهده وبعض اجتهاداته الفقهية كراهه فى الهدية لولاة الأمر ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية، وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته وحرصه على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح، وإشرافه المباشر على إدارة شئون الدولة وعن قدراته فى التخطيط والتنظيم وعن أسلوبه فى الوقاية من الفساد الإدارى، كالتوسعة على العمال فى الأرزاق وحرصه على الوقاية من الكذب، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات والنهى عن الإسراف والتبذير، ومنع الولاة والعمال من ممارسة

التجارة، وفتح قنوات الاتصال بين الوالى والرعية، ومحاسبته لولاءه من قبله عن أموال بيت المال، وتطرق إلى مفهوم المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز واهتمامه بمبدأ المرونة، وتوظيفه للوقت فى خدمة الدولة والرعية، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل فى الإدارة، وحرصت على بيان بواعث عمر ابن عبد العزيز فى إصلاحه وتجديداته، المالية والسياسية والإدارية، . إلخ، وأشارت إلى حرصه على تنفيذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجتمعات والأفراد، وأشارت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدى الخلافة الراشدة على دولته، من التمكين والأمن والاستقرار، والنصر والفتح، والعز والشرف وبركة العيش ورغده، وعشت مع الأيام الأخيرة من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز فى تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة، ظاهرة فذة تحمل فى دلالتها ليس على بطولة القائد فحسب، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية فى نهاية الأمر وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية^(١).

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التى تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضة للانهايار فى كل ساعة، وإنها ليست إلا حلمًا من الأحلام ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء، ويقول لهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ولقد سار نور الدين زنكى المتوفى عام ٥٦٨هـ على منهج عمر بن عبد العزيز وأخذه نموذجًا ومثالاً له فى القدوة والتأسى، فأتت محاولته الإصلاحية ثمارها للأمة وساهمت فى نهوضها وعودة الوعى لها وتغلبت على أعدائها الصليبيين، وظهرت بيت المقدس على يدى تلميذه القائد الأشم، البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي، كثر الله من أمثاله فى جيلنا.

(١) فى التأصيل الإسلامى للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص (٦٢).

إن الإصلاح - كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروج أعداء الإسلام - هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس، قال شعيب عليه السلام لقومه الغارقين في الضلال والفساد في العقيدة والسلوك: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشئون البشر - بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد - صلوات الله عليه وسلامه - وسار على منهاج النبوة خلفاؤه الراشدون، وعلماء الأمة الأبرار كعمر بن عبد العزيز، والأمة الآن في أشد الحاجة لمعرفة هدى المصلحين ابتداء من النبي الكريم ﷺ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة.

إن فقه حركة التاريخ الإسلامي يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النصر كثيرة منها صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الدولة، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه، فقضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفيه لربها ونيبها ﷺ، وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح عميت، والثقافة الصحيحة تبنى الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة، على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله، وهدى الخلفاء الراشدين، ومن سار على نهجهم، وعبقريّة البناء الحضارى الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه.

إن سيرة عمر بن عبد العزيز تمدنا بالمفهوم الصحيح لكلمة الإصلاح؛ المفهوم القرآني الأصيل الذي فهمه علماؤنا المصلحون فهماً صحيحاً وطبقوه تطبيقاً سليماً، لا المفهوم الغربي الحديث الذي تسرّب إلى أذهان بعض المفكرين السياسيين المقلدين للغرب في حقّه وباطله حتى أصبح من المسلم به عند كثير من أبنائنا اليوم أن الثورة أعمّ وأشمل وأعمق من الإصلاح الذي يرادف في الغرب معنى التغيير الخفيف الذي يحدث بتدرج ودون عنف، بينما الثورة هي عندهم انقلاب جذري دون تدرّج، عنيف ومفاجيء، وما دروا أن الإصلاح بالمفهوم القرآني الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة، فهو دائماً نحو الأحسن والأكمل، بينما الثورة قد تكون من الصالح إلى الفاسد أصلاً، ويتم ذلك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم^(١).

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحى لمن يريد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة، ولقد أخلص لله تعالى في مشروعه الإصلاحى، فتولى الله توفيقه وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه، قال الشاعر أحمد رفيق المهدوى الليلى:

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح

والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملى لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبنى على كل حرف كتبتّه، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يثيب إخوانى الذين ساهموا فى إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب أن لا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا

(١) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي (٦/٢).

مُمْسِكٌ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٠﴾ [فاطر: ٢٠]. وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفوريته ومغفرته ورحمته ورضوانه

على محمد محمد الصلابي

الأخوة القراء الكرام، يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب
وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء بظهر الغيب
بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا.

عنوان المؤلف

E_mail : abumohamed2@maktoob.com

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

الفصل الأول

من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد الدابذ، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية^(١)، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين^(٢)، وكان حسن الأخلاق والخلق، كامل العقل، حسن السمات، جيد السياسة، حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوهاً منياً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملؤوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أعطياتهم، وأخذة كثيراً مما فى أيديهم، مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين^(٣)، وكان رحمه الله فصيحاً مفوهاً^(٥).

١- والده: هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بنى أمية، شجاعاً كريماً بقى أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة، وكان من تمام ورعه وصلاحه أنه لما أراد الزواج قال لقيمه: اجمع لى أربعمئة دينار من طيب مالى، فإنى أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهى حفيذة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وقيل: اسمها

(١) سير أعلام النبلاء (١٤٤/٥)

(٢) المصدر نفسه (١١٤/٥)

(٣) المصدر نفسه (١٢٠/٥)

(٤) المصدر نفسه (١٣٦/٥)

(٥) الطبقات الكبرى (٣٣١/٥)، الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، نى عمر، ص (١١).

ليلي^(١)، كما أن زواجه من آل الخطاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه، فقد كان حسن السيرة في شبابه، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم، واهتمامه بالحديث النبوي الشريف، فقد جلس إلى أبي هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر، فطلب من كثير بن مرة في الشام أن يبعث إليه ما سمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة فإنه عنده^(٢)، وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالي الأمور سواء قبل ولايته مصر أو بعدها، فحين دخل مصر أيام شبابه تأقت نفسه إليها وتمنى ولايته فنالها^(٣)، ثم تأقت إلى الجود فصار أجود أمراء بنى أمية وأسماهم^(٤)، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره، وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل^(٥)، ومن جوده كان يقول: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفى عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده^(٦). وقد أكثر المؤرخون من الثناء عليه لجوده، وهذا الجود كان ممتزجاً باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه، فيقول: عجب لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء. وكان ذا خشية من الله، ونستقرئ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت: وددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً، ولوددت أنى أكون هذا الماء الجارى أو نبتة بأرض الحجاز^(٧).

٢ - أمه: أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب، الفقيه، الشريف أبو عمرو القرشى العدوى، ولد في أيام النبوة وحدث عن أبيه، وأمّه هى جميلة بنت ثابت بن أبى الأقلح الأنصاريّة، وكان طويلاً جسيماً، وكان من نبلاء الرجال، ديناً، خيراً، صالحاً، وكان بليغاً، فصيحاً، شاعراً، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمّه، مات سنة سبعين، فرثاه ابن عمر أخوه:

(١) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره فى أحداث العصر الأموى، ص (٥٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٤٧). (٣) الولاة وكتاب القضاة للكندى، ص (٥٤).

(٤) معجزة الإسلام، خالد محمد خالد، ص (٥٥).

(٥) الخطط للمقرئى (١/٢١)، بدائع الزهور (١/٢٨).

(٦) عبد العزيز بن مروان، ص (٥٥). (٧) المصدر نفسه، ص (٥٦) نقلاً عن البداية والنهاية.

فليت المنايا كُنَّ خَلْقَن عاصمًا فعشنا جميعًا أو ذهبنا بنا معاً^(١)

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم عن أبيه عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو يعُسُّ^(٢) بالمدينة إذ أعيأ فاتكأ على جانب جدار فى جوف الليل، فإذا امرأة تقول لابتها: يا بنتاه قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء، فقالت لها: يا أمتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم، قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً، فنادى أن لا يشاب اللبن بالماء، فقالت لها: يا بنتاه قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء، فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عمر فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه، والله ما كنت لأطيعه فى المأ وأعصيه فى الخلاء، وعمر يسمع كل ذلك، فقال: يا أسلم علّم الباب واعرف الموضع، ثم مضى فى عسه، فلما أصبحا قال: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر من القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيّم لا بعل لها، وإذا تيك أمها وإذا ليس لهما رجل، فأتيت عمر وأخبرته، فدعا عمر ولده، فجمعهم، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه.. فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لى فزوجنى، فبعث إلى الجارية، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً وولدت البنت عمر بن عبد العزيز^(٣)، ويذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا، ويقول: ليت شعرى من ذو الشين^(٤) من ولدى الذى يملؤها عدلاً، كما ملئت جوراً^(٥)، وكان عبد الله بن عمر يقول: إن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة فحسبوه المبشر الموعود حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز^(٦).

٣- ولادته ومكانها: اختلف المؤرخون، فى سنة ولادته والراجح أنه ولد عام ٦١هـ، وهو قول أكثر المؤرخين ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفى وعمره أربعون سنة حيث توفى عام ١٠١هـ^(٧)، وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر، وهذا القول

(١) سير أعلام النبلاء (٩٧/٤).

(٢) العُس: تقصى الليل عن أهل الرية، معجم مقاييس اللغة (٤٢/٤).

(٣) سيرة عمر لابن الحكم، ص (١٩، ٢٠)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠).

(٤) الشين: العلامة.

(٥) سير أعلام النبلاء (١٢٢/٥).

(٦) المصدر نفسه (١٢٢/٥).

(٧) البداية والنهاية (٦٧٦/١٢).

ضعيف لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما، فولّى عليها ابنه عبد العزيز ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك، وإنما كانت إقامته وبني مروان في المدينة^(١)، وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد^(٢).

٤ - أشج بنى أمية: كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يلقب بالأشج، وكان يقال له: أشج بنى مروان، وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل؛ فضربه فرس في وجهه فشجه، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بنى أمية إنك إذا لسعيد^(٣)، ولما رأى أخوه الأصمغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بنى مروان الذى يملك، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: إن من ولدى رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً^(٤). وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم فى وجهه، وما قاله أخوه عندما رأى الشج فى وجهه، كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذى يملأ الأرض عدلاً^(٥).

٥ - إخوته: كان لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز عشرة من الولد وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم وهؤلاء أهمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وله من غيرها ستة وهم: الأصمغ وسهل وسهيل وأم الحكم وزبان وأم البنين^(٦)، وعاصم هو من تكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فكنتها أم عاصم^(٧).

٦ - أولاده: كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشر ذكراً منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٥٤/١).

(٢) تذكرة الحفاظ (١١٨/١ - ١٢٠).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (٢٠/١).

(٤) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٦٢). (٥) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢٠/١).

(٦) المعارف لابن قتيبة، ص (٣٦٢). (٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢٢/١).

وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله^(١)، وبنات ثلاث أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز، فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي^(٢)، والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر، وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالا إلا الشيء اليسير فأصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه^(٣). فسيحان الله رب العالمين.

٧- زوجاته: نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قریش ويتجنب شبابه، ومازال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك^(٤)، وهي امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز، وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها أخت الخلفاء والخليفة زوجها

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة جدها مروان ابن الحكم، وأخت الخلفاء فهي أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها^(٥). وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣).

(٢) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣٣٨)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٤).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣٣٨).

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٠). (٥) المصدر نفسه (١٢/ ٦٨٠).

زوجاته لميس بنت على بن الحارث وقد ولدت له عبد الله وبكرًا وأم عمار، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان، وقد ولدت له إبراهيم. وأما أولاده عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله، فأمهم أم ولد^(١).

٨ - صفاته الخلقية: كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أسمر، رقيق الوجه أحسنه، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، بجبهته أثر نفحة دابة وقد خطه الشيب^(٢)، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض، دقيق الوجه، جميلاً، نحيفاً، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية^(٣).
ثانياً: العوامل التي أثرت في تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

١ - الواقع الأسرى: نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة، فلما شب وعقل - وهو غلام - صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه أنا أحب أن أكون مثل خالي - يريد عبد الله بن عمر - فتؤفف به ثم تقول له: اغرب أنت تكون مثل خالك، وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً، عليها، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها، فأنت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يا ابنة أخي هو زوجك فالحقى به، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفى هذا الغلام عندنا - يريد عمر - فإنه أشبهكم بنا أهل البيت، فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم، فسرّ بذلك عبد العزيز، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك، فكتب عبد الملك أن يجرى عليه ألف دينار في كل شهر، ثم قدم عمر على أبيه مسلماً^(٤)، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة^(٥).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣١٤، ٣١٥).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٥٨/١).

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١١/١)، الآثار الواردة (٥٨/١).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٢٤ - ٢٥).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٥٦/١).

٢ - إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم: فقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء، كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة - وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين - وتاقت نفسه للعلم وهو صغير، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب^(١)، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير، وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ، وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ. وقد تأثر كثيراً بالقرآن الكريم في نظريته لله عز وجل والحياة والكون، والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الموت، وكان يبكي لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت: ما يبكيك؟ قال: ذكرت الموت. فبكت أمه حين بلغها ذلك^(٢)، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبراً ومنفذاً لأوامره، ومن مواقفه مع القرآن الكريم:

أ - عن ابن أبي ذيب: قال: حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة، وقرأ عنده رجل: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣] فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نحيبه، فقام من مجلسه فدخل بيته، وتفرق الناس^(٣). ومفهوم هذه الآية: إذا ألقى هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، والثبور في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاء به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة^(٤).

ب - وعن أبي مودود قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]. فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة - زوجته - فجعلت تبكي لبكائه، وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء عبد الملك، فدخل عليهم

(١) البداية والنهاية (٦٧٩/١٢).

(٢) المصدر نفسه (٦٧٨/١٢).

(٣) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم (٨٣).

(٤) دموع القراء، محمد شومان، ص (١٠٧)، نقلاً عن تفسير ابن جرير.

وهم على تلك الحال يكون فقال: يا أبة، ما يبيك؟ قال: خير يا بني، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار^(١). ومعنى الآية: أن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات، ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلِبُ فِي السَّاجِدِينَ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]، ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم، راءون سامعون^(٢).

ج - وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة، ووراءه حبشى يمشى، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشى، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرا: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فقال: وما شأن الشمس؟ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، حتى انتهى إلى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [التكوير: ١٢، ١٣] فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكى معه^(٣). وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولى الأبواب للاستعداد لذلك اليوم،

(٢) تفسير ابن كثير.

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا رقم (٩١).

(٣) دموع القراء، ص (١١١، ١١٢).

وترجهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (١). بل ثبت مرفوعاً «من حديث ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾» (٢).

د- وعن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبد العزيز ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فبكى ثم قال: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار (٣)، هذه بعض المواقف التي تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

٣- الواقع الاجتماعي: إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم في صناعة الرجال وبناء شخصيتهم، فعمر بن عبد العزيز عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة، فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة، فقد حدث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والسائب بن يزيد، وسهل بن سعد، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي ﷺ، وأم بآنس بن مالك، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى (٤)، فكان للإقامة بالمدينة آثار نفسية، ومعان إيمانية، وتعلق روحى، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية (٥).

٤- تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها: اختار عبد العزيز والد عمر صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر بن عبد العزيز، فتولى صالح تربيته، وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد، فحدث يوماً أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن

(١) تفسير السعدى، ص (٩١٢).

(٢) أخرجه الترمذى رقم ٣٣٣٣، والحاكم (٥١٥/٢)، (٥٧٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي والألبانى في الصحيحة (٧٠/٣).

(٣) الرقة والبيضاء لابن أبى الدنيا رقم ٤٢٥. (٤) سير أعلام النبلاء (١١٤/٥).

(٥) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٣).

الصلاة مع الجماعة، فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجلتى^(١) تسكن شعري، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟ فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه^(٢)، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله أشد الحرص، فكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام، والقيود. وفي رواية صحيحة: أنه كان يسبح في الركوع والسجود عشراً^(٣)، ولما حج أبوه ومراً بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام^(٤)، ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فقد كان عمر يجله كثيراً، ونهل من علمه وتأدب بأدبه، وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة، ولقد عبر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه فقال: لمجلس من الأعمى - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود - أحب إليّ من ألف دينار^(٥)، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير، لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا^(٦)، وكان عبيد الله مفتى المدينة في زمانه، وأحد الفقهاء السبعة^(٧)، قال عنه الزهري: كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم^(٨)، وكان يقرض الشعر، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسم الذى أنزلت من عنده السور	والحمد لله أمّا بعد يا عمر
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر	فكن على حذر قد ينفع الحذر
واصبر على القدر المحتوم وارض به	وإن أذاك بما لا تشتهى القدر
فما صفا لامرئ عيش يُسرُّ به	إلا سيتبع يوماً صفوه كدر ^(٩)

وقد توفى هذا العالم سنة ٩٨هـ، وقيل: ٩٩هـ^(١٠).

(١) مرجلتى: مسرحة شعري .
(٢) البداية والنهاية (١٢/٦٧٨) .
(٣) المصدر نفسه (١٢/٦٨٢) .
(٤) المصدر نفسه (١٢/٦٧٨) .
(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٥٩)، الطبقات (٥/٢٥٠)، تهذيب التهذيب (٧/٢٢) .
(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٥٩) .
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/٤٧٥) .
(٨)، (٩) المصدر نفسه (٤/٤٧٧) .
(١٠) المصدر نفسه (٤/٤٧٨)، (٤٧٩)

ومن شيوخ عمر: سعيد بن المسيب، وقد تحدثت عن سيرته في عهد عبد الملك ابن مروان، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر^(١)، ومن شيوخه: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد، عمر به، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به^(٢)، وكان ابن عمر يحب ابنه سالم وكان يلام في ذلك فكان يقول:

يلوموننى فى سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم^(٣)

كانت أمه أم ولد، وقال فيه ابن أبى الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغر السادة: على بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعاً، فرغب الناس حينئذ في السراى^(٤)، وقال عنه الإمام مالك: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين، في الزهد والفضل والعيش منه، كان يلبس الثوب بدرهمين، ويشتري الشمال^(٥) ليحملها. قال: فقال سليمان بن عبد الملك لسالم ورآه حسن السحنة: أى شئ تأكل؟ قال: الخبر والزيت، وإذا وجدت اللحم أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه^(٦)، وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أخصيائى الناس: ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب سرية، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التى على خالى وضعته فى مكانك، ولا رأيت ثياباً هذه رفعتك إلى مكان خالى ذاك^(٧).

وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدى كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين، ثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين^(٨)، فقد نهل من علمهم وتأدب بأدبهم ولازم مجالسهم حتى

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٩) .

(٥)، (٦) المصدر نفسه (٤/ ٤٦٠) .

(٨) مسند أمير المؤمنين عمر، ص (٣٣) .

(١) الجوانب التربوية فى حياة الخليفة عمر، ص (٢٥) .

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٤٦٠) .

(٧) المصدر نفسه (٤/ ٤٦١) .

ظهرت آثار هذه التربية المتينة في أخلاقه وتصرفاته^(١). فامتاز بصلابة الشخصية والجدية في معالجة الأمور والحزم، وإمعان الفكر وإدامة النظر في القرآن، والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح^(٢)، هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته. ومن الدروس المستفادة هو أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة وهي الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال، ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثاً: مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام^(٣)، وقال فيه مجاهد: أتينا نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه^(٤)، وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء^(٥)، قال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً، عارفاً بالسنن، كبير الشأن، حافظاً، قانتاً لله، وأهاً منياً، يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر، وفي الزهد مع الحسن البصري، وفي العلم مع الزهري^(٦)، وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رضى الله عنهما وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث - مراراً - بصحة قوله، بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله^(٧)، ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل وجعلوا له وصفاً يتميز به عن جده لأمه: عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال القرشي في الجواهر المضيئة: (فائدة) يقول أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول

(١) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز (٦٧/١).

(٢) عمر بن عبد العزيز للزحيلي، ص (٣٠).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٦٧/١).

(٤) تهذيب التهذيب (٤٠٥/٧)، الآثار الواردة (٦٧/١).

(٥) تاريخ أبي زرعة، (٢٥٥)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٦٧/١).

(٦) تذكرة الحفاظ، ص (١١٨، ١١٩).

(٧) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٧٠/١).

عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور^(١)، ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم، ولذلك ترجم له الإمام النووى ترجمة حافلة فى تهذيب الأسماء واللغات، وقال فى أولها: تكرر فى المختصر والمهذب^(٢). وأما المالكية فيكثرون من ذكره فى كتبهم أكثر من غيرهم، ومالك إمام المذهب ذكر فى «الموطأ» محتجاً بفتواه وقوله فى مواضع عديدة فى موطئه^(٣)، وأما الحنابلة فكذلك، يذكرونه كثيراً، وعمر هو الذى قال فيه الإمام أحمد: لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز وكفاه هذا^(٤)، وكفانا قول الإمام أحمد أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله^(٥)، ومن أراد أن يتبحر فى علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر ابن عبد العزيز فى العقيدة للأستاذ حياة محمد جبر والكتاب فى مجلدين، وهو رسالة علمية، وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد سعد شقير فى مجلدين وهو رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لمحمد رواس قلعبى، وسوف نرى فى بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله تعالى فى العقائد والعبادات والسياسة الشرعية، وإدارة الدولة، والنظم المالية والقضائية والدعوية وتقيدته بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين فى خطواته وسكناته.

رابعاً: عمر فى عهد الوليد بن عبد الملك:

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء، وكان لهم أثر كبير فى نصحتهم وتوجيه سياستهم بالرأى والمشورة، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة فى البيت الأموى، فقد كان عبد الملك يجعله ويعجب بنباهته أثناء شبابه، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته، ولكن لم يكن

(١) الجواهر المضية (٥٥٢/٤)، الآثار الواردة (٧١/١).

(٢) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.

(٣) انظر: الموطأ الأرقام الآتية: (٣٠٥، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦١٤).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (٧٢/١).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٦١).

له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكره فيه بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وقد جاء فيها: أما بعد، فإنك راعٍ، وكل راعٍ مسئول عن رعيته، حدثنا أنس بن مالك أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كل راعٍ مسئول عن رعيته» (١). ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

ويقال إن عمر بن عبد العزيز ولاء عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر (٢)، وقد قيل: إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاء على خناصره، وهناك من رجح هذا القول. وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزناً عظيماً، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له: يا مسلمة إني حضرت أباك لما دفن، فحملتني عيني عند قبره فرأيت أنه قد أفضى إلى أمر من أمر الله، راعني وهالني، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت وقد اجتهدت في ذلك (٣).

١ - ولايته على المدينة:

في ربيع الأول من عام ٨٧هـ ولاء الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١هـ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها، واشتراط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يعمل في الناس بالحق والعدل، ولا يظلم أحداً، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة.

الشرط الثاني: أن يسمح له بالحج في أول سنة، لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج.

(١) أثر الحياة السياسية، ص (١٥٩).

(٢) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز (٩٣/١).

(٣) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، بشير كمال عابدين، ص (١٠).

الشرط الثالث: أن يسمح له بالعطاء أن يخرج به للناس في المدينة، فوافق الوليد على هذه الشروط، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحاً شديداً^(١).

٢- مجلس شورى عمر بن عبد العزيز: مجلس فقهاء المدينة العشرة:

كان من أبرز الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة، فعندما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة وصلى، دعا عشرة من فقهاء المدينة، وهم عروة بن الزبير، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وأبو بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، وخارجة بن زيد بن ثابت، فدخلوا عليه فجلسوا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم، أو برأى من حضر منكم، فإن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لى ظلامة، فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغنى^(٢). لقد عرفنا أن عمر ابن الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر ابن عبد العزيز، وهو سبط عمر بن الخطاب، فقد أحدث مجلساً، حدد صلاحياته بأمرين:

أ- أنهم أصحاب الحق في تقرير الرأى، وأنه لا يقطع أمراً إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس، الذى نسميه «مجلس العشرة».

ب- أنه جعلهم مفتشين على العمال، ورقباء على تصرفاتهم، فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة، فعليهم أن يبلغوه وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق. ونلاحظ كذلك على هذا التدبير قد تضمن أمرين:

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٦٣)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤١، ٤٢).

(٢) الطبقات (٥/٢٥٧)، موسوعة فقه عمر، قلعجي، ص (٥٤٨).

أحدهما: أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضاً لمجلس العشرة، لأنهم كانوا من أصحاب العطاء، وبما أنهم فقهاء، فما ندبهم إليه داخل في صلب اختصاصهم.

الثاني: إن عمر افترض غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار، ولهذا لم يشترط في تدبيره حضورهم كلهم، وإنما قال: «أو برأى من حضر منكم»^(١)، إن هذا المجلس كان يستشار في جميع الأمور دون استثناء^(٢)، ونستتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدينهم ويقربهم منه، ويشاورهم في أمور الرعية، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح، وتقليل ما يمكن من المفساد، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يقتصر في شوره على هؤلاء فحسب، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة، كسعيد بن المسيب، والزهرى، وغيرهما، وكان لا يقضى في قضاء حتى يسأل سعيد، وفي المدينة أظهر عمر عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم، وقد حدث أن أرسل - رحمه الله تعالى - رسولا إلى سعيد بن المسيب يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميراً ولا خليفة فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه في وقته، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإننا لم نرسله ليدعوك، ولكنه أخطأ، إنما أرسلناه ليسألك^(٣)، وفي إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك، حتى جعله مائتي ذراع في مائتي ذراع، وزخرفه بأمر الوليد أيضاً، مع إنه - رحمه الله تعالى - كان يكره زخرفة المساجد^(٤)، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالى للتجاوب مع قرارات من هو أعلى منه حتى وإن كان غير مقتنع بها، إذا قدر أن المصلحة في ذلك أكبر من وجوه أخرى.

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامى (١/٥٦١، ٥٦٢).

(٢) نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ص (٣٩١).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن عبد الحكم، ص (٢٣).

(٤) تفسير القرطبي (١٢/٢٦٧)، موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص (٢٠).

وفى إمارته على المدينة فى سنة ٩١هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال، وشاهد الوليد بأمر عينيه الإصلاحات العظيمة التى حققها عمر بن عبد العزيز فى المدينة المنورة^(١).

٣- الحادث المؤسف فى ولاية عمر:

قال العلماء فى السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدث عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو أبى العاص^(٢) ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً، ومال الله دولا^(٣)» وهو حديث ضعيف؛ فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز - واليه على المدينة - يأمره بجلده مائة سوط ويحبسه، فجلده عمر مائة سوط، وبرد له ماءً فى جرة ثم صبه عليه فى غداة باردة فكز^(٤)، فمات فيها. وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه، وندم على ما صنع معه وحزن عمر على موت خبيب، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببيع الزبير واجتمعوا عنده حتى مات، فبينما هم جلوس، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه. وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز فى ولايته على المدينة. فقال عبد الله بن عروة: ائذنوا له. فلما دخل قال: كأن صاحبكم فى مرية من موته، اكشفوا له عنه، فكشفوا عنه، فلما رآه الماجشون انصرف. قال الماجشون: فانتهيت إلى دار مروان، فقرعت الباب ودخلت فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً، فقال لى: ما وراءك؟ فقلت: مات الرجل. فسقط على الأرض فزعاً ثم رفع رأسه يسترجع فلم يزل يعرف فيه حتى مات. واستعفى من المدينة، وامتنع من الولاية. وكان كلما قيل له: إنك قد صنعت كذا فأبشر، فيقول: كيف بخبيب؟^(٥)، ولم يزل يذكرها ويتصورها أمام عينيه حتى مات^(٦).

(١) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز، ص (٢٠).

(٢) بنو أبى العاص: أى بنو العاص بنى أمية الجند الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز.

(٣) الحديث رواه البيهقى فى دلائل النبوة (٥٠٧/٦)، عن أبى سعيد وأبى هريرة قال ابن كثير -رحمه الله- بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث: وهذه الطرق كلها ضعيفة، انظر البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٩٨/١).

(٤) كز الرجل: فهو مكروز، أصابه داء الكزاز، وهو يس وانقباض من البرد.

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤٣، ٤٤). (٦) المصدر نفسه، ص (٤٢).

ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر: ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال: فأتيته في مجلسه الذي يصلى فيه الفجر والمصحف في حجره، ودموعه تسيل على لحيته^(١)، وحدث ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشئ قال: ابتغوا أهل بيت بهم حاجة^(٢).

٤ - عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له:

حبس عمر رجلاً بالمدينة، وجاوز عمر في حبسه القدر الذي يستحقه، فكلمه مزاحم في إطلاقه، فقال له عمر: ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيلة عليه بما هو أكثر مما مرّ، فقال: مزاحم -مغضباً-: يا عمر بن عبد العزيز، إنى أحذرك ليلة تمخض بالقيامة، وفي صبيحتها تقوم الساعة، يا عمر، ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع؛ قال الأمير، قال الأمير، قال الأمير، قال عمر: إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك، فكأنما كشف عن وجهي غطاء^(٣). وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذي يذكرك بالله حين الغفلة.

٥ - بين عمر بن عبد العزيز والحجاج في خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة -كما مرّ ذكره- ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها، ففي سنة ٩٢هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجاج، ولا يطيق أن يراه، لما هو عليه من الظلم، فامثل الوليد لرغبة عمر، وكتب إلى الحجاج: إن عمر بن عبد العزيز كتب إليّ يستعفيني من ممرك عليه، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك ففتح عن المدينة^(٤)، وقد كتب عمر بن عبد العزيز -وهو والٍ على المدينة- إلى الوليد بن

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٤٢).

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢، الآثار الواردة (١/٦٦).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (١٤٠).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه، لابن الحكم، ص (٢٤).

عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضميم والضيق بسبب ظلم الحجاج وغشمه، مما جعل الحجاج يحاول الانتقام من عمر، لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه حيث كتب الحجاج إلى الوليد: إن من قبلى من مراق أهل العراق وأهل الثقات قد جلوا عن العراق، ولجأوا إلى المدينة ومكة، وإن ذلك وهن. فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان، وخالد بن عبد الله القسرى، وعزل عمر عبد العزيز^(١). وقد كان ميول الوليد لسياسة الحجاج واضحاً، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هى السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد، وذلك بعد تولى عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به^(٢).

٦ - عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكى ومعه خادمه مزاحم، فالتفت إلى مزاحم وقال: يا مزاحم، نخشى أن نكون ممن نَفَتْ المدينة^(٣)، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: «ألا وإن المدينة كالكبير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها، كما ينفى الكبر خبث الحديد»^(٤). قال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر فى الدبران^(٥) - كأنه تشاءم من ذلك - فقال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه فى هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران. يا مزاحم: إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكن نخرج بالله الواحد القهار^(٦)، وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضى

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٣٨٣). (٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم، ص (٢٧).

(٤) مسلم، ك الحج، باب: المدينة تنفى شرارها.

(٥) الدبران: نجم بين الثريا والجوزاء، ويقال له: التابع والتويع، وهو من منازل القمر سمى دبراً لأنه يدبر الثريا، أى يتبعها.

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٢٧).

أن تكون إقامته في دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلمًا، أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها^(١)، ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخل من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاية أقوياء قساة يهتمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر إن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان رحمه الله يقول: الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف - أخو الحجاج - في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، .. امتلأت والله الأرض جوراً^(٢).

٧ - نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادئ الأمر في استصدار قرار يمنع أي وال من القتل إلا بعد علم الخليفة، وموافقته على ذلك، فيذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة، فإذا خلا لك عقلك، واجتمع فهمك فلسني عنها، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم، إذا اجتمع لك ما أقول فإنك أحق أن تفهم، فمكث أيامًا ثم قال: يا غلام من بالباب؟ فقيل له ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز، فقال: أدخله، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص، فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم، وأن عمالك يقتلون، ويكتبون إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا، وأنت المسئول عنه والمأخوذ به، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحدًا حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضع لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. على بكتاب، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم، فلم يخرج من ذلك إلا الحجاج فإنه أمضه، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن

(١) البداية والنهاية (١٢/٦٨٣).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٦)، أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٦٢).

ذلك، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر ابن عبد العزيز هو الذى فعل ذلك، فقال: هيهات إن كان عمر فلا نقض لأمره. ثم أن الحجاج أرسل إلى إعرابى حرورى - من الخوارج - جاف من بكر بن وائل، ثم قال له الحجاج: ما تقول فى معاوية؟ فقال منه. قال: ما تقول فى يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول فى عبد الملك؟ فظلمه. قال: فما تقول فى الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولاك وهو يعلم عداك وظلمك. فسكت الحجاج وافترصها منه^(١)، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لدينى، وأرعى لما استرعتنى، وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا رأى، فشأنك وإياه. فدخل الحرورى على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم، فقال له الوليد: ما تقول فى؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول فى عبد الملك؟ قال: جبار عات. قال: فما تقول فى معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان اضرب عنقه فضرب عنقه، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده فقال: يا غلام اردد على عمر، فرده عليه فقال: يا أبا حفص ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته، فقال الوليد: شتمنى وشتم عبد الملك وهو حرورى، أفستحل ذلك؟ قال: لعمرى ما أستحلّه، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه، فقام الوليد مغضباً، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص، لقد راددت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرنى بضرب عنقك^(٢)، وهكذا احتال الحجاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأى عمر فى الحد من سرف الحجاج وأمثاله فى القتل^(٣).

٨- رأى عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع الخوارج:

فبالإضافة إلى الموقف الذى مرّ ذكره آنفاً - فى شأن الحرورى الذى بعث به الحجاج - وردت روايات توضح الموقف نفسه، فعن ابن شهاب أن عمر بن عبد

(١) افترصها: انتهزها.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١١٩ - ١٢١)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٤).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٤).

العزیز أخبره أن الولید أرسل إليه بالظهيره، فوجده قاطباً بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسب الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: مالك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أقتل يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء، قلت: فإني أرى أن يُنكل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لثائه.

٩- نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه:

ومن آخر المواقف التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقعاً حازماً حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراحه على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة فكيف نخلعه وترك؟ فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد، ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه^(١).

خامساً: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك:

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولى سليمان الخلافة قرب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعاً حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به^(٢). وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته أو سفره، وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني^(٣). وفي موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر، ولا أكرهني أمر إلا خطر في فيه على بالي^(٤).

١ - أسباب تقريب سليمان لعمر: والذي دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود في نظري إلى عدة أسباب منها:

(١) سير أعلام النبلاء (٥/١٤٨، ١٤٩)، أثر العلماء، ص (١٦٧).

(٢) المصدر نفسه نقلاً عن أثر العلماء ص (١٦٨). (٣) المعرفة والتاريخ للفسوى (١/٥٩٨).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٢٨)، أثر العلماء، ص (١٦٨).

أ- شخصية سليمان بن عبد الملك: حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجباً بنفسه، معتدّاً برأيه وواقعاً تحت تأثير بعض ولااته، بل كان سليمان على العكس من ذلك غير معتد برأيه، خالياً من التأثيرات الأخرى عليه.

ب- قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.

ج- موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان، مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبي حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده^(١).

٢- تأثير عمر على سليمان في إصدار قرارات إصلاحية: فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاية الحجاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالى مكة، خالد القسرى، ووالى المدينة عثمان ابن حيان^(٢)، ومنها الأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس - عن رأى عمر - أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها^(٣)، وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها^(٤).

٣- إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه: كلّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بنى عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتاباً منعهن ذلك، فتركه يسيراً ثم راجعه، فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأى عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتنى بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبا لمصحف دعوت يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك، فالذى دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمان أيوب، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمنا عنه^(٥). فهذا موقف من مواقف الجرأة فى قول الحق الذى يُحمد لعمر

(١) سير أعلام النبلاء (١٤٩/٥). (٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٦٩).

(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٢٥/٥). (٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣١).

حيث اعتبر سليمان بن عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره، فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذى لا ينتقض ولا يغير هو كتاب الله تعالى وحده، وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذى يعتبرون فيه قضاءهم شرعاً نافذاً، من غير نظر فى موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته، وهنا موقف يذكر لسليمان حيث وبخ ولده الذى هدد عمر أن قال كلمة الحق، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له^(١).

٤ - إنكاره على سليمان بن عبد الملك فى الإنفاق: قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالا عظيماً، فقال لعمر بن عبد العزيز: كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال: رأيتك زدت أهل الغنى غنى، وتركت أهل الفقر بفقرهم^(٢). فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك، فقد كان سليمان لجهله - بدقائق أحكام الشريعة فى مجال الإنفاق - يظن أنه يأنفاه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحاً، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقه، وحرّم منه أهله^(٣)، فقد بين عمر رحمه الله أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقه.

٥ - حث عمر سليمان على رد المظالم: خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق، ففزع منه سليمان ومن معه، فقال عمر: إنما هذا صوت نعمة، فكيف لو سمعت صوت عذاب؟ فقال سليمان: خذ هذه المائة ألف درهم وتصدق بها، فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو؟ قال: قوم صحبوك فى مظالم لم يصلوا إليك، فجلس سليمان فرد المظالم^(٤)، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات، فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات.

٦ - أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً: أقبل سليمان بن عبد الملك، وهو أمير المؤمنين، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال

(١) التاريخ الإسلامى (٣١/٣٠). .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (١٣١). (٣) التاريخ الإسلامى (٢٩/١٥).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٣٣)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٠).

والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ قال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً، وأنت المسئول عن ذلك كله. فلما اقتربوا من المعسكر، إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبه^(١)، فقال له سليمان: ما تقول في هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه^(٢).

٧- هم خصماؤك يوم القيامة: لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيتك اليوم، وأنت مسئول عنهم غداً وفي رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين^(٣).

٨- زيد بن الحسن بن علي مع سليمان: كان زيد بن الحسن بن علي قد أجاب الوليد بن عبد الملك في مسألة خلع سليمان خوفاً من الوليد، وكتب بموافقة من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة، أن يسأل زيدا عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر فعليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان كتب سليمان إلى والي المدينة أن يضربه مائة سوط ويمشي حافياً. فجلس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلّم أمير المؤمنين فيما كتب في زيد بن الحسن؛ لعلّي أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس الرسول فمرض سليمان، فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفي سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه^(٤). وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسؤولياته^(٥)، ويرى الدكتور يوسف العش أن سياسة عمر بن عبد العزيز ومنطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة، سليمان، نعم أن سليمان كان يشتط حيناً في سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح القوة في خلافته وسياسة عمر لم تتغير، فهو في

(١) نعب الغراب: صوت أو مد عنقه وحرك رأسه في صباحه.

(٢)، (٣) البداية والنهاية (١٢/٦٨٥).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٠٤).

(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٧٣).

دمشق مثله فى المدينة، على أنه فى دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور^(١) والظلم والعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد فى إحقاق العدل ومحاربة الظلم لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه، ولم يتقاعس فى عهد ابن عمه الوليد، وتقدم خطوات، ووفق حسب الإمكان فى عهد سليمان، وأتيحت له الفرصة فى خلافته، وبالتالى لا نقول إن ما حدث لعمر على مستواه الشخصى انقلاب، وإنما الانقلاب فى توظيف الدولة لخدمة الشريعة فى كل شئون الحياة ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التى كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها، والتى اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوقاً للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين.

سادساً: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله نصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندى، الذى اقترح على سليمان فى مرض موته أن يولى عمر بن عبد العزيز، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب^(٢)، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان؛ افتتح خلافته بإحياء الصلاة، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز، وكانت سنة وفاته سنة ٩٩هـ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وكان منقوشاً فى خاتمه: (أؤمن بالله مخلصاً)^(٣)، وتعددت الروايات فى قصة استخلاف سليمان لعمر، وقد ذكرت بعضها فى حديثى عن عهد سليمان، ومن الروايات أيضاً: ما ذكره ابن سعد فى طبقاته، عن سهيل بن أبى سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز ونظر فى المرأة فقال: أنا والله الملك الشاب، فخرج إلى الصلاة يصلى بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب، وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف

(١) الدولة الأموية، يوسف العث، ص (٢٥٤).

(٢) عصر الدولتين الأموية والعباسية للصَّائى، ص (٣٧).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١١/٥، ١١٢).

الرجل الصالح، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه، وأنظر، ولم أعزم عليه، فمكث يوماً أو يومين، ثم خرقة ثم دعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك، والله لئن وليته، ولم أولّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك اجعله بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به، قلت: رأيك، قال: فكتب بيده بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيقطع فيكم. وختم الكتاب فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مرّ أهل بيتي فليجتمعوا، فأرسل إليهم كعب، فجمعهم، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين، قال: نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب - وهو يشير لهم، وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة - هذا عهدي، فاسمعوا، وأطيعوا، وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب. قال: فبايعوا رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء. قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة، وكان بي برّاً ملطفاً، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلى من هذا الأمر شيئاً، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي، إلا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء، إن لي بك حرمة ومودة قديمة، وعندى شكر، فأعلمني أهذا الأمر إلى؟ فإن كان إلى علمت، وإن كان إلى غيرى تكلمت، فليس مثلى قصر به، ولا نحى عنه هذا الأمر، فأعلمني فلك الله لا أذكر اسمك أبداً. قال رجاء: فأبيت وقلت: لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسر إلى. فانصرف هشام. وهو يضرب بإحدى يديه

على الأخرى، وهو يقول: فإلى مَنْ إذا نُحيت عني؟ أخرج من بنى عبد الملك؟ فوالله إنى لعين بنى عبد الملك، قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك، فإذا هو يموت. قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت، حرفته إلى القبلة، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأت ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء، إن كنت تريد شيئاً، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فحرفته، ومات، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب، وأرسلت إلى زوجته تنظر إليه، كيف أصبح، فقلت: نام وقد تغطى، فنظر الرسول إليه، مغطى بالقطيفة فرجع، فأخبرها، فقبلت ذلك، وظنت أنه نائم. قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به وأوصيته أن لا يريم حتى آتية، ولا يدخل على الخليفة أحداً. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسى، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا فى مسجد دابق، فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى فى هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً. قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيت أنى قد أحكمت الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال: قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجرجر رجله. قال رجاء: وأخذت بضبعى عمر، فأجلسته على المنبر، وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطاه، فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أى حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك، قال: فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلى كراحتى له^(١). وقال أبو الحسن الندوى على موقف رجاء بن حيوة: وكان لرجاء مآثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهاز الفرصة مثل انتهازه، وأسدَى للإسلام خدمة مثله^(٢)، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهاز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

(١) تاريخ الطبرى (٧/٤٤٥)، الطبقات (٥/٣٣٥ - ٣٣٨).

(٢) رجال الفكر والدعوة للندوى (١/٤٠).

١ - منهج عمر فى إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر وقال فى أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه، ولا طلبه له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فوّل أمرنا باليمن والبركة. وهنا شعر أنه لا مفر من تحمل مسئولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته فى سياسة الأمة المسلمة^(١): أما بعد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاض، ولكنى منفذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكنى متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله، ألا إني لست بخيركم، ولكنى رجل منكم غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً. أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس، وإلا فلا يقربنا: يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهد، ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه. أوصيكم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات... وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل، ولا فى نبيها ﷺ، ولا فى كتابها، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم، وإني والله لا أعطى أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً. ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال: يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم. وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأننا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوال^(٢)، ثم نزل.

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ماجدة فيصل، ص (١٠٢).

(٢) انظر مع بعض الاختلاف: الطبقات (٣٤٠/٥)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (٣٥، ٣٦).

عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٤).

وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز فى ذلك اليوم، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين^(١)، ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسة التى قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها فى الحكم وهى:

أ- التزامه بالكتاب والسنة، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع بين من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله، ورفضه للبدعة والآراء المحدثه.

ب- حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه الخمسة أسباب:

- أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة، أى أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه، وبين من لا يستطيعون الوصول إليه، فيعرف بذلك حوائج الناس، وينظر فيها.

- أن يعينه على الخير ما استطاع، أى أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير، يعين الخليفة عليه، وبالتالي يحذره من أى شر.

- فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة، وخير الدين.

- نهى من يريد أن يتقرب إليه، عن أن يغتاب إليه أحداً.

- أن لا يتدخل أى متقرب منه فى شئون الحكم، وفيما لا يعنيه عامة.

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم على الحاكم، وعلى الرعية، وعلى أسلوب الحكم، فأثر أن ينه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى فى نطاق شرع الله، دون أن يبعدهم نهائياً؛ لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير، ويعينوه عليه، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج^(٢).

ج- كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساءوا فيها، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم ويحذروا الموت، ويتعظوا به.

(١) البداية والنهاية (٦٥٧/١٢). (٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٥).

د- قطع على نفسه عهداً بأن لا يعطى أحداً باطلاً، ولا يمنع أحداً حقاً، وأنه أعطاهم حقاً عليه، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى. هذه هى الخطوط العريضة لسياسة عمر، ذكرها فى أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد فى المسجد، بعد بيعته، فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد أثر أن لا يدع لأى عامل من عماله، ه حجة عليه بعد ذلك، ففصل ما أجمل فى خطبته الأولى فى كتب أرسلها إلى عماله، وقد كانت هذه الكتب نوعين:

- كتب إلى العمال يبصرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا: فى مسلكهم الشخصى، والخاص، إزاء الرعية، وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله.

- وكتب إلى عماله التى حددت سياستهم، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين، وغير المسلمين، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام، وعمر فى هذه الكتب - كما سيظهر بإذن الله - تكلم عن موقفه كفقيه متبحر فى أصول الدين^(١)، وسيأتى الحديث عن منهجه من خلال أعماله.

٢- الحرص على العمل بالكتاب والسنة:

من أهم ما يميز منهج عمر فى سياسته، حرصه على العمل بالكتاب والسنة، ونشر العلم بين رعيته وتقنيهم فى الدين وتعريفهم بالسنة، ومنطلق عمر فى ذلك فهمه لمهمة الخلافة، فهى حفظ الدين وسياسة الدنيا به^(٢)، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها، فورد عنه أنه قال فى إحدى خطبه: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فلئن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص^(٣). وقال أيضاً: فلو كان كل بدعة يميئها الله على يدي، وكل سنة يعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتى آخر ذلك على نفسى كان فى الله يسيراً. وفى موضع آخر قال: والله لولا أن أنعش

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (١٠٦).

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص (٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٠).

سنة أو أسير بحق ما أحببت أن أعيش فوقاً^(١)، لهذا بادر عمر في تنفيذ هذه المسؤولية المهمة، فبعث العلماء في تعليم الناس وتفقيهم إلى مختلف أقاليم الدولة، وفي حواضرها وبواديها، وأمر عماله على الأقاليم بحث العلماء على نشر العلم، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله: ومُرُّ أهل العلم والفقهاء من جندك فليُنشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مجالسهم^(٢)، ومما كتب به إلى بعض عماله: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أُميتت^(٣)، كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم^(٤)، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجيد الأشعري يفتقها الناس والبدو^(٥)، وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني ثمر ويقرئهم، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن^(٦)، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفتقون أهلها، وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله، ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات، ومنهم من تولى القضاء وأسهم أكثرهم -بالإضافة إلى نشر العلم- في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله، وهذا الاهتمام الذي تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفقيهم أمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقهاء فيه بين أفراد الرعية له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرهما على الاستقرار السياسي والأمنى، كأفكار الخوارج^(٧) وغيرهم.

٣- الشورى في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ

(١) الفواق: ما بين الخلبتين من الوقت، أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٧٣).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٧٦).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٧٩).

(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٧٥/٦)، أثر العلماء، ص (١٧٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٤٣٨/٥). (٧) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٨٠).

في الأمر فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته، ومن أقواله في الشورى: إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأى، ولا يفقد معهما حزم^(١)، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولى أمر المدينة للوليد ابن عبد الملك، يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى، وجعله أساساً في إمارته، حين دعا فقهاء المدينة وكبار علمائها، وجعل منهم مجلساً استشارياً دائماً^(٢) - كما مر معنا - . وحرى بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسؤوليته جزئية أن يطبقه وقت المسؤولية الكاملة، والمهمة العظمى، ألا وهى ولاية أمر المسلمين كافة، وقد تبين مبدأ الشورى من أول يوم في خلافته، وقال للناس: أيها الناس، إنى قد ابتليت بهذا الأمر، من غير رأى كان منى فيه، ولا طلبه له ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فول أمرنا باليمن والبركة^(٣)، وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذى تبناه معظم خلفاء بنى أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب، ولم يكتف عمر باختياره ومبايعة الحاضرين، بل يهيمه رأى المسلمين فى الأمصار الأخرى ومشورتهم، فقال فى خطبته الأولى - عقب توليه الخلافة -: . . . وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأننا وليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل^(٤). وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها، ومن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه فى الخلافة ليس براغب، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا^(٥). وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين، ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلى:

أ- أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية فى تولي معظم الخلفاء الأمويين.

ب- حرص عمر على تطبيق الشورى فى أمر يخصه هو، ألا وهو توليه الخلافة.

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص (١٨٩).

(٢) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٣).

(٣) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز، ص (٦٥). (٤) البداية والنهاية (١٢/٦٥٧).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن النموذج الإداري المستخلص من عمر، ص (٢٨٥).

ج- أن من طبق مبدأ الشورى فى أمر مثل تولى الخلافة حرى بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء، ويطلب نصيحهم فى كثير من الأمور أمثال سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظى، ورجاء بن حيوة وغيرهم، فقال: إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا على^(١). كما كان يستشير ذوى العقول الراجحة من الرجال^(٢)، وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لما تولى الخلافة، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة، ولم يكتف - رحمه الله - بانتقاء بطانته، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتنى قد ملت عن الحق فضع يدك فى تلبابى، ثم هزنى، ثم قل: يا عمر ما تصنع؟^(٣)، وقد كان لهذا المسلك أثر فى تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها، حيث كان لبطانته أثر فى شد أزره، وسداد رأيه وصواب قراره^(٤)، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانسراح صدره لهم ومشاركتهم معه لتحمل المسؤولية، فتتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

٤ - العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضى وجوبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وللعدل صورتان: صورة سلبية بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم، أى بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وإزالة آثار التعدى الذى يقع عليهم، وإعادة حقوقهم إليهم، ومعاقبة المعتدى عليها، فيما يستوجب

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص (١٦).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٢٨٥).

(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٥ - ١٧٧).

(٤) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٧٨).

العقوبة^(١). وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة، وقيامها بحق أفراد الشعب فى كفالة حرياتهم وحياتهم المعاشية، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك، ولا ضعيف مهمل، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد، وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم فى الإسلام^(٢). وقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه، وكان يرى أن المسئولية والسلطة هى القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم، وتحقيق مصلحتهم المشروعة، فالخليفة أجبر عند الأمة وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة^(٣)، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة، فكتب إلى الحسن البصرى يسأله فى ذلك، فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتب لهم فى حياته ويدخرهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً، ووضعته كرهاً، وربته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله، ويريههم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد، وشرّد العيال، فأفقر أهله وفرّق ماله^(٤).

أ- سياسته فى رد المظالم:

- أمير المؤمنين يبدأ بنفسه: تنفيذاً لما أَراده عمر من رد المظالم مهما كان صغيراً أو كبيراً؛ بدأ بنفسه، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم قال: إنه لينبغى أن لا أبدأ بأول من نفسى^(٥). وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين، فنظر إلى

(١) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٢).

(٢) المصدر نفسه ص (٢٢٢)، نظام الإسلام، محمد المبارك، ص (٤٥، ٤٦).

(٣) عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٣).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٢٤). (٥) الطبقات (٥/٣٤١).

ما فى يديه من أرض، أو متاع، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا
 بما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب فخرج منه^(١). وكان
 ذلك لإصراره على قطع كل شك ييقن، وحتى يطمئن إلى أن ما فى يده لا شبهة
 فيه لظلم أو مظلمة، حتى ولو كان ورثه، خصوصاً أن القصص والحكايات كانت
 كثيرة يتناقلها الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بنى أمية، وعمالهم، وقد
 بلغ به حرصه على الثبوت أنه نزع حلى سيفه من الفضة، وحلاه بالحديد، قال عبد
 العزيز بن عمر: كان سيف أبى محلى بفضة فنزعها وحلاه حديدًا^(٢)، وكان
 خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع، ذلك أنه حين استخلف نظر
 إلى ما كان له من عبد، وإلى لباسه وعطره، وأشياء من الفضول، فباع كل ما كان
 به عنه غنى، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار، فجعله فى السبيل^(٣). أو عن طريق
 ردها إلى أصحابها الأصليين، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التى أقطعه إياها
 قومه، يروى ابن الجوزى عن إسماعيل بن أبى حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن
 عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة فإذا مناد ينادى: الصلاة
 جامعة. قال: ففزعنا فرعاً شديداً مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه
 أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال: يا مزاحم، إن هؤلاء
 القوم قد أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها، وما كان لنا أن نقبلها،
 وإن ذلك قد صار إلىّ ليس على فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير
 المؤمنين، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا، قال: فذرفت عيناه، فجعل يستدمع
 ويقول: أكلهم إلى الله؟ قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على
 عبد الملك، فأذن له - وقد اضطجع للقائه - فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا
 مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم أشد الحدث عليك وعلى بنى
 أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعانى أمير المؤمنين - فذكر له ما قاله عمر - فقال عبد
 الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له يا أمير المؤمنين، تدري كم ولدك؟ هم كذا،
 وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول: أكلهم إلى الله تعالى. قال
 عبد الملك بشئ وزير الدين أنت يا مزاحم. ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر،

(١) الطبقات (٣٤١/٥، ٣٤٢).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (٣٥٥/٥)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٥).

فاستأذن عليه، فقال له الآذني: أما ترحمونه، ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟ قال عبد الملك: استأذن لي، لا أم لك. فسمع عمر الكلام، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه - وقد اضطجع عمر للقائلة - فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثني مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه، ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني أصلى الظهر، ثم أصدع المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة، فيجتمع الناس. فنادى المنادي: الصلاة جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلى ليس على فيه دون الله محاسب، ألا وإنني قد رددتها، وبدأت بنفسى وأهل بيتي، اقرأ يا مزاحم، قال - وقد جىء بسفط قبل ذلك، أو قال جرة - فيها تلك الكتب - فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر - وهو قاعد على المنبر وفي يده جلم - قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتاباً آخر فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتاباً آخر فما زال حتى نودى بصلاة الظهر^(١). ومن بين ما رده عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن وقطائع باليمامة^(٢)، إلى جانب فدك وخيبر^(٣)، والسويداء، فخرج منها جميعاً إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء، فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين، وقد جاءت غلتها مائتا دينار^(٤). وأما قرية فدك - التي تقع شمال المدينة - فقد كانت تغل في السنة عشرة

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٧، ١٠٨).

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢٠٧). (٣) المصدر نفسه، ص (٢٠٧).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

آلاف دينار تقريباً، فلما ولى عمر الخلافة سأل عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها في عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان... فكتب - بناء على ذلك - إلى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً قال فيه: أما بعد فأني نظرت في أمر فذك وفحصت عنه، فإذا هو لا يصلح لى، ورأيت أن أردّها على ما كنت عليه في عهد رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابى هذا فاقبضها وولّها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام^(١).

وأما الكتيبة فهي حصن من حصون خيبر، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: افحص لى عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خير أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله لما صالح بنى أبى الحقيق جزءاً النظاة والشق خمسة أجزاء، فكانت الكتيبة جزءاً منها، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه في عهد رسول الله^(٢)، كما أرجع عمر للرجل المصرى الذى كانت أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصرى فيها، وحتى الدار التى كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خازنة الذى كان يتيماً فى حجره، ردها عليه، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولى ممن يلى أمره، ثم التفت إلى المال الذى كان يأتيه من جبل الورد باليمن، فردّه إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحماً برد المال الذى كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله^(٣).

وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابهته شائبة الظلم، أو الشك فى خلاص حقه فيه، فرد كل ذلك إلى أصحابه، انطلاقاً من تمسكه بالزهد، وإيمانه برد المظالم إلى أصحابها تقوى لله، ووضعاً للحق فى نصابه، بعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق، اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك - وكان لها جوهر - فقال لها عمر: من أين صار هذا المال إليك؟ قالت: أعطانيه أمير المؤمنين، قال: إما أن ترديه إلى

(١) الطبقات (٣٨٩/٥)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٨).

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٠٩).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢١٢).

بيت المال، وإما أن تأذني لي في فراقك، فإنني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت^(١)، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله: قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك، ومن أصابه، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه، وإن خلصت إليه أنفقت، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك. قالت له: أفعل ما شئت وفعل ذلك. فمات - رحمه الله - ولم يصل إليه، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت من أخذه، وقالت: ما كنت لأتركه ثم أخذه، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بني^(٢).

- رد مظالم بني أمية: وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم، فقد ثنى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموي، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك، فقد رأى ما أذهله، وهو أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ، أو خلفائه الراشدين، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر العظمة والأبهة أمام رعيتهم، ومن تلك المظاهر المراكب الخلافية التي تتألف من برازين وخيول وبغال، ولكل دابة سائس، ومنها أيضاً تلك السراقات والحجرات والفرش والوطاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد، وفوجيء بتلك الثياب الحديدية وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له؛ بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحملة بيت مال المسلمين، وهو بأمس الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بينه الله ورسوله، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين^(٣).

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة في رد المظالم من أفراد البيت الأموي تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة، حين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموي عن أبيه كشف له أبوه عن

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢١٢)، الطبقات (٥/٢٩٣).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٢، ٥٣).

(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢١٣).

سياسته تلك حين قال له: وما تبلغهم؟ قال: أقول أبى يقرئكم السلام ويقول لكم: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الزمر: ١٣].

ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدي الأمويين من مظالم، فقال: يا بنى، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى ما أريد مكائدتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقاً تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يهراق فى سببى محجمة من دم، أو ما ترضى أن لا يأتى على أبىك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين؟^(١)، ثم زاد فى توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك: ما يمنعك أن تمضى الذى تريد؟ فوالذى نفسى بيده ما أبالى لو غلت بك وبى القدور، قال: وحق هذا منك؟، قال: نعم والله، قال عمر: الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على أمر دينى، إنى لو باهت الناس بالذى تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف، ولا خير فى خير لا يجىء إلا بالسيف. يا بنى، إنى أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بى عُمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تعدد منيتى فقد علم الله الذى أريده^(٢).

وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى فى تنفيذ سياسته، وتطبيقاً لهذه السياسة فإنه قد مهد لهذه الخطوة الحاسمة والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم وردّها إلى أصحابها، أو بيت المال، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموى فجمعهم وطلب إليهم أن يخرجوا مما بأيديهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق^(٣). وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بنى أمية، ظلت تنمو فى الماضى، وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا.. وهاهى الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكى يأخذ العدل مجراه، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين، لا يستأثر بها أحد دون أحد، ولا حزب دون حزب.. أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع، جمعت بمختلف الطرق وسائر

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٦٠ - ٢٦٣).

(٢) المصدر السابق، ص (٢٦٢، ٢٦٣). (٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢١٥).

الأساليب.. . جرد عمر بنى أمية منها ومزق مستنداتها واحداً واحداً، وردّها إلى مكانها الصحيح، مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياح وقطاع، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شرطاً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف^(١)، ولا تمضى سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع، فيضجون ضد سياسة عمر هذه، ويعلنون معارضتهم الصارمة لها، فماذا يكون جواب عمر؟ انظروا: والله لوددت ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد الله ثم يعود كما كان حياً، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسى عندها^(٢). ولكن بنى أمية لم يأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة، وهم الذين ما خطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد، فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد - وكان كبيرهم ونصيحهم - أن يكتب إلى عمر، فكتب إليه: أما بعد فإنك أنسيت من كان قبلك من الخلفاء وسرت بغير سيرتهم، وسميتها المظالم نقصاً لهم ولأعمالهم، وشاتمًا لمن كان بعدهم من أولادهم ولم يكن ذلك لك، فقطعت ما أمر الله أن يوصل، وعملت بغير الحق في قرابتك، وعمدت إلى أموال قريش ومواريتهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلمًا وجورًا وعدوانًا، فاتق الله يا ابن عبد العزيز وارجع، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك إن خصصت ذوى قرابتك بالقطيعة والظلم، فوالله الذى خص محمدًا ﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازدادت من الله بعدًا فى ولايتك هذه التى تزعم أنها بلاء عليك، وهى كذلك، فاقصد فى بعض ميلك وتحاشيك^(٣). ويظهر فى هذا الكتاب مأخذ الأمويين على سياسة عمر وهى:

- خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.

- أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء.

- لم يكن عمله منسجمًا مع الحق.

- إن قطيعة أهل بيته تهدد مكانه من الخلافة.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٧ - ١٥١).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٦، ١٢٧)، عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، ص (١٩٤).

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة^(١)، وكان رد عمر حمماً من نار الحق تتفجر في كل كلمة فيها: .. ويلك وويل أيبك، ما أكثر طلابكما وخصمائكما يوم القيامة.. رويدك فإنه لو طالت بي حياة، ورد الله الحق إلى أهله، تفرغت لك ولأهل بيتك، فأقمت على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وراءكم^(٢).

- بنو أمية يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادئ: وما أن ينشئ بنو أمية من صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه، لجأوا إلى أسلوب الحوار الهادئ، عليهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون؛ فيتكلمون معه يوماً مستشيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم، فيجيبهم: أن مالى يتسع لكم، وأما هذا المال - أى المال العام - فحقكم فيه كحق أى رجل من المسلمين. والله أنى لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله^(٣)، ودخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إني رسول قومك إليك، وإن فى أنفسهم ما جئت لأعلمك به، إنهم يقولون: استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك وخل بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم، وببديهة يجيب عمر: أرايت أن أتيت بسجلين أحدهما من معاوية والآخر من عبد الملك فبأى السجلين آخذ؟ قال هشام: بالأقدم. فقال عمر: فإنى وجدت كتاب الله الأقدم، فأنا حامل عليه من أتانى ممن تحت يدي وفيمن سبقنى^(٤).

- بنو أمية يرسلون عمه عمر بن عبد العزيز: فعندما عجز الرجال من بنى أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم، لجأوا إلى عمته فاطمة بنت مروان، وكانت عمته هذه لا تحب عن الخلفاء، ولا يرد لها طلب أو حاجة، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، لذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه، فلما دخلت

(١) عمر بن عبد العزيز، صالح العلى، ص (١٩٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٧ - ١٥١).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١١٤، ١١٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٨، ١١٩)، ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، د. عماد الدين خليل، ص (١١٧، ١١٨).

عليه عظمها وأكرمها كعادته، وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك، قال: ما منعهم حقاً أو شيئاً كان لهم، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم، فقالت: إنى رأيتهم يتكلمون، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصبياً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره. قال: فدعا بدينار، وجنب، ومجمرة، فألقى ذلك الدينار بالنار، وجعل ينفخ على الدينار إذا احمر تناوله بشيء، فألقاه على الجمر فنشى وقتر فقال: أى عمة أما ترئين لابن أخيك من هذا؟^(١) وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر فى الكلام. واسمعه يقول، وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام لكى يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة، ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء، ثم ولى أبو بكر وترك النهر على حاله، ثم ولى عمر فعمل عملهما، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك وابناه الوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلى، وقد يبس النهر الأعظم فلم يرو أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه، فقالت: حسبك، قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه^(٢)، وجاء فى رواية: إنها قالت لهم: .. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده، فسكتوا^(٣).

- تلاشى المعارضة الجماعية لبنى أمية: وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بنى أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة وقالوا: ليس بعد هذا شيء^(٤). ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال، ولكن عمر الذى وقف تجاه رغباتهم مجتمعين، أخرى به الآن أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد، ويعلمه أن حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة فى يوم من الأيام^(٥).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٧).

(٢) الكامل فى التاريخ (٣/ ٢٧٠). (٣) المصدر نفسه (٣/ ٢٧١).

(٤) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٨، ٥٩)، ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (١١٩).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر، ص (١١٩).

أ- رد الحقوق لأصحابها:

لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بنى أمية وردها إلى بيت المال، بل يخطو خطوة أخرى، ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بنى أمية، أو لحقته منهم مظلمة، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه.. وتقدم عدد من الناس بظلامتهم وبيئاتهم، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات^(١)، ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصبت أرضه فرد عمر هذه الأرض إليه ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إليّ؟ قال: يا أمير المؤمنين تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت على أرضي، وهى خير من مائة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً كتعويض له عن نفقات سفره^(٢)، وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات^(٣)، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك فى حوانيت^(٤)، قد قامت لهم البينة عليه، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم، ولم يلتفت لسجل الوليد، فقام روح فتوعدهم، فروّع رجل منهم وأخبر عمر بذلك، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم^(٥)، وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاهها بعض أهله، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: «.. من أحيأ أرضاً ميتة فهي له»^(٦)، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم وقال مرة لفاطمة بنت على بن أبى طالب رضى الله عنهما: يا بنت على، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليّ منكم ولأنتم أحبّ إليّ من أهل بيتي^(٧).

ب- عزله جميع الولاة والحكام الظالمين:

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام والمسئولين الظالمين فعزلهم عن مناصبهم، ومنهم خالد بن الريان وصاحب حرس سليمان بن

(١) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٢٠).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٦، ١٤٧).

(٣) الطبقات لابن سعد (٣٤١/٥). (٤) الحوانيت: جمع حانوت وهو محل التجارة.

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٠). (٦) صحيح الجامع للألبانى رقم (٢٧٦٦).

(٧) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١٣١)، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٤٥).

عبد الملك الذى كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصارى، فقال عمر بن عبد العزيز: يا خالد ضع هذا السيف عنك، اللهم، إني قد وضعت لك خالد بن الريان، اللهم لا ترفعه أبداً، ثم قال لعمرو بن مهاجر: والله إنك لتعلم يا عمرو، أنه ما بينى وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ولكنى سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلى فى موضع تظن ألا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، فخذ هذا السيف قد وليتك حرسى^(١).

وهكذا يعزل عمر الظالمين، وهذا أسلوبه فى اختيار الولاة والقضاة والكتاب وغيرهم، إنه يبحث عن أصلح الناس ديناً وأمانة، ولما انتقد أحد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة فى سجده وقال: هذه غرتنى منك. يريد سجده أى أثر السجود فى وجهه، فهذه علامة من علامات صلاح الرجل، وهى دليل على كثرة السجود، ومن أجل ذلك اختاره عمر بن عبد العزيز، وعمر لا يكتفى بمظهر الرجل ولكنه يختبره أيضاً، فقد رأى رجلاً كثير الصلاة، وأراد أن يمتحنه ليوليه، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال: يا فلان إنك تعلم مقامى عند أمير المؤمنين فما لى لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟ فقال الرجل: لك عطاء سنة، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل، فتركه لأنه سقط فى الاختبار^(٢). وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز: أسامة بن زيد التنوخى - وكان على خراج مصر - لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدى فى العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل، يقطع الأيدى فى خلاف - دون تحقق شروط القطع - فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس فى كل جند^(٣) سنة، ويقيّد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ثم يرد فى القيد، فحبس بمصر سنة، ثم فلسطين سنة، ثم مات عمر وولى يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر فى عمله^(٤)، وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد بن أبى مسلم عن إفريقية، وكان عامل سوء يظهر التآله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور، والمخالفة للحق، وكان فى هذا يكثّر التسبيح والذكر، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون وهو يقول: سبحان الله والحمد لله، شد يا غلام

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٥٠).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٩١/١).

(٣) الجند: المدينة وقيل مدن الشام. (٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب، وهو يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، شد يا غلام شد موضع كذا وكذا، فكانت حالته تلك شر الحالات، فكتب عمر بعزله^(١)، وهكذا استمر عمر في عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين، وسيأتي الحديث عن فقه عمر في تعامله مع الولاة في محله بإذن الله تعالى.

ج - رفع المظالم عن الموالي:

تعرض الموالي قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم، فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم، كما منعوا من الهجرة مثلما حدث للموالي في العراق ومصر وخراسان، وفي عهد عبد الملك أوقع الحجاج بالموالي ظلماً عظيماً، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم، وحرّمهم من الهجرة من قراهم، وهذا ما دفعهم للاشتراك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج، كما وقع الظلم على الموالي في مصر وخراسان، فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التي لحقت بهؤلاء الموالي وكتب إلى عماله يقول: . . فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه غير أرضه وداره إنما هي من فيء الله على المسلمين عامة، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم، ولكنها فيء الله على المسلمين عامة^(٢)، وكتب إلى عامله على مصر - حيان بن شريح - يقول: وأن تضع الجزية عن من أسلم من أهل الذمة، فإن الله تبارك وتعالى قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥] وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، إلا إن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول: أما بعد، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن نابتة عشرين ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل^(٣). وجاء رد عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك وقد

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢، ٣٣). (٢) المصدر نفسه، ص (٧٨، ٧٩).

(٣) الخطط للمقريزي (٧٨/١)، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢٣٣).

وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً، فضع الجزية عمن أسلم - قبح الله رأيك - فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، ولعمري ولعمري أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه^(١). وفى رواية ابن سعد: أما بعد، فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابى هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل^(٢). ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذى طلب من عمر السماح له فى أخذ الجزية ممن أسلم، فها هو عامله على الكوفة - عبد الحميد بن عبد الرحمن - يسأله أخذ الجزية المتركمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا، فجاءه رد عمر الواضح أيضاً يقول: كتبت إلى تسألنى عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة، وتستأذننى فى أخذ الجزية منهم، وإن الله - جل ثناؤه - بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه فى ماله الصدقة ولا جزية عليه، وميراثه ذوى رحمه إذا كان منهم من يتوارثون أهل الإسلام، وإن لم يكن له وارث فميراثه فى بيت مال المسلمين الذى يقسم بين المسلمين، وما أحدث من حدث ففى مال الله الذى يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام^(٣). كما كتب إليه عامله على البصرة - عدى بن أرطاة - يقول: أما بعد، فإن الناس كثروا فى الإسلام وخفت أن يقل الخراج. فكتب إليه عمر: فهمت كتابك، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا^(٤).

هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التى أوقعها الحجاج بالموالى فى العراق، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التى أصابت الموالى، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم، وباتوا ينعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية^(٥).

(١) الخطط للمقريزى (٧٨/١)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٣).

(٢) الطبقات (٣٨٤/٥).

(٣) الخراج لأبى يوسف، ص (١٤٢)، عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٤).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩٩ - ١٠٠).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٣٤).

د- رفع المظالم عن أهل الذمة:

زاد عبد الملك في عهده الجزية على أهل قبرص، وكان معاوية بن أبي سفيان غزا قبرص بنفسه وصالحهم صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار، وعلى النصيحة للمسلمين، وإنذارهم عدوهم من الروم. ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولى عبد الملك بن مروان، فزاد عليهم ألف دينار، فجرى ذلك إلى عهد عمر ابن عبد العزيز فحطها عنهم^(١)، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة في العراق، وقد وضعها عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسة عامة التزم بها في أن يرفع المظالم عن أهل الذمة حتى يدعمون بحياتهم في ظل الشرائع الإسلامية السمحة. ويؤيد ذلك ما جاء في كتابه إلى عامله على البصرة - عدى بن أرطاة: أما بعد، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتياً^(٢)، وخسراناً مبيئاً، فضع الجزية على من أطاق حملها، وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين، وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه، وضعفت قوته، وولت عنه المكاسب، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق، وذلك أنه بلغنى أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك، إن كنا أخذنا منك الجزية في شببتك ثم ضيعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه^(٣).

كما بلغت سياسة عمر بن عبد العزيز في وضع المظالم عن الناس مساعدتهم أيضاً وذلك حين كتب إلى عامله على الكوفة يقول: انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإننا لا نريد لهم لغام ولا لعامين^(٤)، وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحمة والرأفة بالناس، فقد منع تعذيب أهل البصرة وغيرهم لاستخراج الخراج منهم، وعندما أرسل إليه عامله على البصرة عدى بن أرطاة يقول: إن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى

(١) فتوح البلدان، ص (١٥٩)، عمر وسياسته في رد المظالم، ص (٢٤٠).

(٢) عتياً: العاتى المجاوز للحد في الاستكبار. (٣) الأموال لأبي عبيد، ص (٥٧).

(٤) المصدر نفسه ص ٣٢٠، عمر وسياسته في رد المظالم، ص (٢٤١).

يمسهم شيء من العذاب، فكتب إليه عمر: أما بعد، فالعجب كل العجب من استئذائك إياي في عذاب البشر كأني جنة لك من عذاب الله، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله، وإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليّ من أن ألقاه بعذابهم. والسلام^(١).

ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبى بنات ونساء من لواتة بشمال إفريقيا، ولكن عمر رد هذه المظلمة، يذكر أبو عبيد أن عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات: من أرسل منهن شيئاً فليس من ثمنها شيء وهو ثمن مرجها الذي استحلبها به - أو كلمة تشبه الثمن - قال: ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها، وإلا فليردها إلى أهلها. قال أبو عبيد: قوله اللواتيات هن من لواتة: فرقة من البربر، يقال لهم لواتة، أراه قد كان لهم عهد، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث أن عثمان أخذ الجزية من البربر، ثم أحدثوا بعد ذلك فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به^(٢)، كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم^(٣).

ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة على أساس أنه يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية، طالما أن هذا غير موجود في صلحهم^(٤). فكتب إلى عماله يقول: ... ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم^(٥)، وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة، والطمأنينة، والهدوء إليهم، وأوضح لهم أن بإمكانهم أن يعيشوا في ظل الإسلام آمنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشئونهم في كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون، لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة، ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وستة رسوله الكريم^(٦).

(١) الخراج لأبي يوسف، ص (١٢٩).

(٢) فتوح البلدان، ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢٤٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٤٥).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨٣).

(٦) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (٢٤٨).

هـ- إقامة العدل لأهل سمرقند:

لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السرى: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والانصاف، فأذن لنا فليقد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قومًا قدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن السرى: إن أهل سمرقند، قد شكوا إلى ظلمًا أصابهم، وتحاملًا من قتيبة عليهم؛ أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم^(١) إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة. فأجلس سليمان جميع بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحًا جديدًا أو ظفرًا عنوة، فقال أهل الصغد^(٢): بل نرضى بما كان ولا نجد حربًا، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأى: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمناهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة فى المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا^(٣).

أية دولة فى القرن العشرين تحنى رأسها هكذا للعدل كى يأخذ مجراه وللحق كى يعود إلى أصحابه؟ وأى حاكم فى تاريخ الشعوب التى لم تعرف الله، استجاب - هكذا- لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟ ألا أنه المسئول الذى نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل فى أقطار الأرض، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا^(٤). فهذا مثل رفيع من عدل عمر وإننا لنلاحظ فى هذا الخبر عدة أمور:

- أن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكم عادلين، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد، وسيُنظر فيها بعدل،

(١) يعنى المسلمين الغزاة .

(٢) الصغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

(٣) تاريخ الطبرى (٤٧٢/٧).

(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (٦٨).

فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

- أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم، وإنما أحالها إلى القضاء الشرعى، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

- أن أولئك القوم قد أسقط فى أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ورأى أهل الرأى منهم أنهم خاسرون فى كلا الحالين، سواء حكم لهم أو عليهم، وأن مصلحتهم فى بقائهم على ما هم عليه، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامى^(١).

و- الاكتفاء باليسير من البيّنات فى رد المظالم:

نظراً لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاية قبله، وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شىء مألوف، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلّمته، وإنما يكتفى باليسير من البينة، فإذا عرف وجه مظلّمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة، فقد روى ابن عبد الحكم وقال: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة، وكان يكتفى باليسير، إذا عرف وجه مظلّمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة، لما يعرف من غشم الولاية قبله على الناس، ولقد أنفد بيت مال العراق فى رد المظالم حتى حمل إليه من الشام^(٢). فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع، لأن فيه اختصاراً للوقت وتوفيراً للجهد^(٣)، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة فى التفريق بين أصول التحقيق فى القضاء العادى وبين أصول التحقيق فى القضاء الإدارى، وضعها عمر بن عبد العزيز، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها، وجمع عناصرها، فإذا كان الظلم واضحاً، اكتفى قاضى المظالم بالبينة اليسيرة^(٤).

(١) التاريخ الإسلامى (١٥/٦٢، ١٦).

(٢) سيرة عمرة بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٠٦، ١٠٧).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٥٥٨/٢). (٤) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٥٦٥/٢).

ز - وضع المكس^(١):

لما كان المكس من الظلم والبخس، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعى، ولما كانت الزكاة على المسلم، والجزية والعشور والخراج على الذمى كافيها عما سواها، فقد نهى عمر عن المكس وشدد فى ذلك ومنعه كما يأتى: عن محمد بن قيس قال: لما ولى عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض، ووضع الجزية عن كل مسلم^(٢). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة أن ضع عن الناس المكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذى قال الله فيه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه، ومن لم يأت فالله حسيبه^(٣)، وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت الذى يقال له: المكس، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانفسه فى اليم نسفاً^(٤). نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق وأن ذلك يصدق على الجمارك التى تؤخذ على السلع عند استيرادها فى هذا الزمان، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه^(٥). والحجة فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

ح - رد المظالم وإخراج زكاتها:

قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التى فى بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة^(٦)، عن مالك بن أنس عن أيوب السختياني أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم فى بيوت الأموال، فرد ما كان فى بيت المال وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب آخر: إني نظرت فإذا هو ضمارة^(٧) لا يزكى إلا لسنة واحدة^(٨)، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالى فى زمن عبد الملك مال

(١) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق فى الجاهلية أو هى الجباية.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٤٥/٥).

(٣) المصدر نفسه (٣٨٣/٥). (٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٣).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٥٦١/٢).

(٦) المصدر نفسه (٥٦٦/٢). (٧) المال الضمار: أى الذى لا يرجى رجوعه.

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٤٢/٥).

رجل من أهل الرقة يقال له: أبو عائشة عشرين ألفاً فأدخلت في بيت المال، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أياه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلى ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولوا أنه كان مائلاً ضميراً أخذنا منه زكاة ما مضى^(١).

هذا هو عمر بن عبد العزيز في دولته التي أقامها على العدل، وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شئونها، فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن ير أمير المؤمنين أن يقطع لنا مائلاً نرمها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحسّنها بالعدل، ونقّ طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام^(٢)، وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم في الجور والعدوان والظلم، فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٣)، وكتب إلى أبي بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جور جاره من قبل من حق مسلم أو معاهد فردّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم^(٤).

وكان رحمه الله يواجه في تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة، وعقبات، فكان ينفق بعض المال في سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك؟ قال: يا بني، إنما أروّض الناس رياضة الصعّب، إنني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأوقّر ذلك حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذا^(٥)، وقام برصد الجوائز لمن يدل على خير، أو ينبه على خطأ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها، فكتب كتاباً أمر أن يُقرأ على الحجيج في المواسم وفي كل المحافل والمجامع جاء فيه: أما بعد، فأيما

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠٢/٣).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص (٢٣)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٦).

(٣) الطبقات (٣٨٣/٥، ٣٨٤).

(٤) المصدر نفسه (٣٤٢/٥، ٣٤٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٢٦).

رجل قدم علينا فى رد مظلمة، أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، بقدر ما يرى من الحسبة، وبعد الشقة. رحم الله امرأ لم يتكأده بعد سفر، لعل الله يحيى به حقاً، أو يميت به باطلاً، أو يفتح من ورائه خيراً^(١).

ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيؤ ظلاله كان يقول: والله لو ددت لو عدلت يوماً واحداً وأن الله تعالى قبضنى^(٢)، ومع أنه رأى ثمرات العدل التى قطف منها جميع الناس فى خلافته إلا أن نفسه التوافة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد، ولقد عبر عن ذلك بقوله: لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت العدل^(٣). وحتى الحيوانات نالهن عدله وإنصافه ورفع الظلم عنه، وإليك هذه المشاهد:

- النهى عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقيل: فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه، قال أبو يوسف: حدثنا عبيد الله بن عمر: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد فى طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة، ونهى عن اللجم الثقيل^(٤)، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية^(٥).

- فى تحديد حمولة البعير بستمئة رطل:

وحين بلغه أن قوماً يحملون على الجمال ما لا تطيق، وذلك فى مصر، كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمئة رطل، وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه^(٦).

هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز، إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع الذى تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم، ومحاربته بكل أشكاله وأنواعه، وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

(١) المصدر نفسه، ص (٢٢٧) تكأده: شق عليه وصعب. (٢) تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٣).

(٣) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، ص (٢٢٧).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/٣٣٢)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٥٧٣).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٧١). (٦) فقه عمر بن عبد العزيز، محمد شقير (٢/٥٧٥).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»^(١)، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ في دولته، وكان أول مؤشر على رغبته في تطبيق مبدأ المساواة، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوى في المعيشة بين نفسه ولحمته التي هو منها وبين الناس^(٢)، فقال: أما والله لوددت أنه بدئ بي، وبلحمتي، التي أنا منها، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أما والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطاً ولكنت بأسبابه عارفاً^(٣). وقال في خطبة له: .. وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته، ما قدرت عليه^(٤).

كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس، في الحقوق والواجبات في جميع مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس في حقهم في تولي الوظائف والولايات، ولم يعط أحداً -كائناً من كان- شيئاً ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشرف بنى أمية وبين الناس، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلموه في ذلك: يتسع مالى لكم، وأما هذا المال - يقصد المال الذى فى بيت مال المسلمين - فإنما حققكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد^(٥). فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره، فلا يكون حكراً على فئات معينة من الناس، ومن أعماله التي تدل على ترسيخه مبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بنى أمية قد استحوزوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى، يحرم من الاستفادة

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٢٩٧).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٩٧). (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١١٢).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى من إدارة عمر، ص (٢٩٧).

(٥) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن، وقيل موضع بمكة.

منها عامة الناس، فقال: إن الحمى يباح للمسلمين عامة.. وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء^(١).

كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: ... فمن أسلم من نصراني أو يهودى أو مجوسى، من أهل الجزية اليوم، فخالط المسلمين فى دارهم وفارق داره التى كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه^(٢)، ويروى ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً^(٣)، وفى مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفى بهذا الدليل الذى كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضى، وتفصيل ذلك أنه: أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز - يقصد والد عمر - أخذ أرضى ظلماً، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولى شركاء - أى شركاء فى حلوان - وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقاضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضى: ذلك بما نلتُم غلتها، فقد نلتُم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لى أمراً أبداً، وأمر بردها^(٤).

وكان عمر يقيم وزناً لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى فى الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يخص أناس بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: .. وقد بلغنى أن أناساً من القصاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عدل ما يصلون على النبى ﷺ، فإذا جاءك كتابى هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبى ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك^(٥)، ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى فى الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة فى حاجة إلى دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة^(٦)، وقد طبق

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨١).

(٢) المصدر السابق، ص (٧٩).

(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٥).

(٤) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٩٨).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٧٣).

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٢٩٩).

مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم في رجل في مسجد رسول الله ﷺ، وأبو بكر بن محمد بن حزم والى عمر على المدينة في صلاته، فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتى بكتاب عمر، فقرئ عليهم، فشتم عمر، والكتاب، ومن جاء به، فهم أبو بكر بضرب عنقه، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه، وأنه هم بقتله، فكتب إليه عمر: لو قتلته لقتلتك به، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا أن يُشتم النبي ﷺ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة في كل هلال، فإذا تاب فخلّ سبيله^(١)، ولم يكتف عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فأس بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحد الناس أثر عندك من أحد، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندى اليوم سواء، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون من نازعهم^(٢). كانت تلك بعض مواقف عمر، وإن كانت متفاوتة، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة في دولته^(٣).

٦ - الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في دولة عمر بن عبد العزيز، ويقضى هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية، وبما لا يتناقض معها، فقد اهتم عمر بجميع صور الحرية الإنسانية، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤٢).

(٢) الطبقات (٣٤٣/٥)، النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٠١).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٠١).

أ- الحرية الفكرية والعقدية: حرص عمر بن عبد العزيز على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد في المجتمع، وكانت سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم، وعدم التضييق عليهم في معتقداتهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند، والقبائل الخارجة عن الإسلام، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، ولم يكره عمر أحداً من النصارى أو غيرهم على الدخول في الإسلام، وأما حرية الفكر من حيث الرأي والتعبير، فقد أخذت نطاقاً واسعاً في إدارة الدولة، وقيادته لعماله ورعيته، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية أن يقول كل ما يريد، وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق^(١) إذا لم يخالف الشرع.

ب- الحرية السياسية: كما أعلن عمر استئناف الحرية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكماً أو والياً، فقد أعلن عمر في أول يوم من أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منكرًا على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم، فقد خطب الناس يوماً فقال: ... ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي، إلا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم^(٢)، ومما يدل على إعطاء عمر الناس الحرية السياسية، أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازله عن الخلافة وطلب من الناس أن يختاروا خليفة، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى في ممارستها في موضعين: أولهما المشاركة في اختيار الحاكم، عن طريق أهل الحل والعقد، وبيعة المسلمين ورضاهم، وثانيهما: إبداء الرأي والنصح للحكام، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام^(٣)، فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح^(٤)، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله.

(١) الطبقات لابن سعد (٣٤٤/٥). (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٢٤٠).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٢).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢١٢).

ج- الحرية الشخصية: عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة، أو ما يسمى بحرية التنقل، أو الغدو والرواح، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد، إذ قال: .. وأما الهجرة فإننا نفتحها لمن هاجر من إعرابي فباع ماشيته، وانتقل من دار إعرابيته إلى دار الهجرة وإلى قتال عدونا، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم^(١)، كما قال في كتابه لعماله: .. وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة^(٢). وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس في الهجرة والتنقل، فقد تجلّى حرصه على مبدأ حرية الإنسان في أمر قل من يراعيه، أو يهتم به، أمر يخص من هم في ملكه، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولى الخلافة بين العتق والإمساك على غير شيء، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقاً لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شيء أو العتق، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة^(٣)، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خير جواريه، فقال: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكنّ، فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها، ومن أمسكتها لم يكن لها مني شيء، فبكين بكاءً شديداً يأساً منه^(٤).

د- حرية التجارة والكسب: أما في حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله في البر والبحر، كجزء من الحرية الاقتصادية، فقد أكد في كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم، والاتجار بها في البر والبحر على حد سواء، فقد كتب إلى عماله: .. وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة، .. وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر، ولا يمنعون ولا يحبسون^(٥). وكتب أيضاً: .. وأما البحر، فإننا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجنّة: ١٢]، فأذن أن يتجر فيه من شاء، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده يبتغون فيهما

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٧٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٨). (٣) النموذج الإداري المستخلص، ص (٣١٠).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢١). (٥) المصدر نفسه، ص (٩٤).

من فضله، فكيف نحول بين عباد الله وبين معاشهم^(١). ويقول عمر فى موضع آخر: .. أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسىرون عليها دون جعل^(٢)، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به^(٣)، وأما عن الأسعار والتسعير زمن عمر، فقد قال أبو يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، ما بال الأسعار غالية فى زمانك، وكانت فى زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم، ولم يكونوا يجدون بدءاً من أن يبيعوا ويكسروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سعت، قال: ليس إلينا من ذلك شىء، إنما السعر إلى الله^(٤). وتشدد عمر فى أمر السلع المحرمة، ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين، لحرمتها ولضررها حيث يؤدى شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام^(٥)، ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة فى ماله ونفسه ونجعله نكالا لغيره^(٦). ولقد أثمرت سياسة عمر فى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج، وأزالت العوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكاة، مما يؤدى إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة، وارتفاع قوتها الشرائية، التى ستوجه إلى الاستهلاك، وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتصاد، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه^(٧). لقد كانت الحرية فى دولة عمر بن عبد العزيز

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٨).

(٢) الجعل: من الجعالة وهو ما يجعل للشخص على عمله.

(٣) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص (١٠٥).

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٤٨).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٣).

(٦) المصدر نفسه، ص (٤٨).

(٧) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٤٨)، سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف

محمد الكفراوى، ص (٣٧٢).

مصونة ومكفولة، ولها حدودها وقيودها، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم فى مدار الرقى، فالحرية حق أساسى للفرد والمجتمع، ليتمتع بها فى تحقيق ذاته، إبراز قدراته، وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقوماته فهو أشبه بالأموات، إن الحرية فى الإسلام إشعاع داخلى ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة، فأصبحت النفس تواقفة لفعل الصالحات، والمصارعة فى الخيرات ابتغاء مرضاة رب الأرض والسموات، فالحرية فى المجتمع الإسلامى دعامة من دعائمه تحققت فى دولة عمر بن عبد العزيز فى أبهى صورة انعكست أنوارها على صفحات الزمن^(١).

(١) المجتمع الإسلامى، محمد أبو عجوة، ص (٢٤٥) مع بعض التصرف .

الفصل الثانى

أهم صفاته ومعالم تجديده

أولاً: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف -رضى الله عنه- بصفات القائد الربانى، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمآل، وخوفه من الله تعالى، والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة والمروءة، والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات، وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحى ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التى اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق فى الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة، وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحى التجديدى مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد نرسم نور الدين زنكى خطوات عمر بن عبد العزيز فى عهده، فحقق نجاحاً كبيراً للأمة فى صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم الشيخ أبى حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام ٥٧٠هـ والذى كان أحد شيوخ نور الدين زنكى، حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر ابن عبد العزيز لكى يسير عليها نور الدين زنكى فى خطواته وجهاده، وإن من أهم الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز هى:

١- شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التى اتسم بها، ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوى بالآخرة، وخشية الله، والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوى، الذى امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً -فى مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته

وحرّيته وسلطانه - من إغراءات مادية قاهرة، ومن تسويلات الشيطان، والنفس المغرية، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس، والاستقامة على طريق الحق^(١)، فقد كان مشتاقاً إلى الجنة، مؤثراً الآخرة على الدنيا، مؤمناً بقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]، فأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عمر في كتاب له إلى يزيد بن المهلب: .. لو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج، واعتقال أموال، كان فى الذى أعطانى من ذلك، ما قد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنى أخاف - فيما ابتليت به - حساباً شديداً، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم^(٢).

كما كان عمر شديد الخوف من الله تعالى، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله فى فراشه، فيتفرض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول: ليصبحنّ الناس ولا خليفة لهم^(٣)، وقال مكحول: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز^(٤)، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، فقد دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقال: عظمى. قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرّك من دخل النار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكى عمر^(٥) حتى طفئ الكانون الذى بين يديه من دموعه، وقد كان جلّ خوفه - رحمه الله - من يوم القيامة، فيدعو الله، ويقول: اللهم إن كنت تعلم إنى أخاف شيئاً دون القيامة، فلا تؤمن خوفى^(٦)، ذلك اليوم الذى أحدث تغييراً جذرياً فى مجرى حياته، ذلك اليوم الذى يقول عنه عمر: «.. لقد عنيتم بأمر، لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققّت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى

(١) النموذج الإدارى المستخلص، ص (١٤٠) نقلاً عن رجال الفكر للندوى.

(٢) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (١٤٠).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٢).

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص (٢٢١).

(٦) تاريخ الخلفاء ص (٢٢٤).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٩٠).

إحداهما^(١)، نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار، هي التي تضع المسؤولين، وتجعلهم يرتعدون خوفاً إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله^(٢)، فالوعى والإحساس بيوم الحساب، وغيرهما من الصفات الاعتقادية، تجعل القائد لا يخطو خطوة، ولا يقول قولاً، ولا يفعل فعلاً، إلا ربط ذلك بما يرضى الله عز وجل، وتلك الصفات والجوانب، لم تُعطَ حقها من البحث والتحري في الدراسات القيادية الحديثة، وهي أساس النجاح في القيادة، وأهم الصفات القيادية التي ينبغي للقائد أن يتحلى بها، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز، الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر، وشدة خوفه من الله، والوجل من يوم القيامة^(٣).

٢- زهده:

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معاشته للقرآن الكريم، ودراسته لهدى النبي الأمين ﷺ، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار، وإنها مزرعة للآخرة، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها، وزينتها، وبريقها، وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهراً وباطناً، وكان وصل إلى حقائق استقرت في قلبه ساعدته على الزهد في هذه الدنيا، ومن هذه الحقائق:

أ- اليقين التام بأننا في هذه الدنيا أشبه بالغرباء، أو كعابري سبيل، كما قال النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(٤).

ب- وأن هذه الدنيا لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله - تبارك وتعالى - إذ يقول النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٥).

ج- وأن عمرها قد قارب على الانتهاء: إذ يقول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين بالسبابة والوسطى»^(٦).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٢٣٢).

(٢) ملامح الانقلاب، ص (٤٥).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (١٤٢).

(٤) الترمذی، ك الزهد رقم (٢٣٣٣) وهو حديث صحيح.

(٥) الترمذی، ك الزهد رقم (٢٣٢٠).

(٦) مسلم، ك الفتن وأشراف الساعة رقم (١٣٢-١٣٥).

د- وأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار، فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز في الدنيا، وأول الزهد: الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول وكل ما لك عنه غنى^(١)، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبنياً على الكتاب والسنة، ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه في آخرته، فلم يفرح بوجوده وهي الخلافة، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما هو خير في الآخرة ورغبة فيما عند الله عز وجل^(٢)، قال مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها^(٣)، قال ابن عبد الحكم: ولما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا، ورفض ما كان فيه، وترك ألوان الطعام، فكان إذا صنع له طعام هُيئَ على شيء وغطى، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل^(٤)، فكان لا يهتم من الأكل إلا ما يسد جوعه ويقيم صلبه.

وكانت نفقته وعياله في اليوم كما في الأثر، عن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين^(٥)، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التي سادت قبله، وأمر ببيعها وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين^(٦)، وهكذا فعل بالجواري والعبيد حيث رد الجواري إلى أصحابهن إن كن من اللاتي أخذن بغير حق، ووزع العبيد على العميان وذوي العاهات، وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف^(٧)، وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته: ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات^(٨)، فهذا ينافي ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدى الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع في ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامي الذي بينه رسولنا ﷺ، وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (١٤٨).

(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/١٤٦).

(٣) حلية الأولياء (٥/٢٥٧). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٣).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣٨). (٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/١٥٥).

(٧) المصدر نفسه (١/١٥٥). (٨) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٥٠).

الفرق المنحرفة عن الإسلام، وتدعى أنه من الزهد الإسلامى، ولهم فى ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم فى ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

- من ترك النساء والطعام فلا بد له من ظهور كرامة.

- من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.

- لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوى إلى منازل الكلام.

- من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

- من تزوج فقد ركن إلى الدنيا^(١).

إلى غير ذلك من العجائب والغرائب، وهذا المفهوم يخالف الإسلام دين التوسط والاعتدال، فقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢). وجملة القول أن زهد عمر بن عبد العزيز كان مقيداً بالكتاب والسنة، وأن كثيراً مما نسب إليه فى هذا الباب لا يصح لمخالفته هدى النبى ﷺ، ومن زهد عمر بن عبد العزيز فى جمع المال، أنه كان على النقيض من يلى منصباً فى وقتنا الحاضر، فقد كانت غلته حين استخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبحت حين توفى أربعمائة دينار، ولو بقى لنقصت^(٣)، حيث لم يرتزق رحمه الله من بيت المسلمين شيئاً^(٤)، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه، إن لم يكن أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن طويلاً^(٥). وأخباره فى الزهد كثيرة ذكر منها الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء حوالى ثمانية وعشرين أثراً^(٦)، لقد وصل عمر بن عبد العزيز إلى مرحلة متقدمة فى الزهد والتحلّى بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يستطيع الوصول إليه أصحاب العيش فى الظروف المادية فى وقتنا الحاضر، الذى طغت فيه المادة على كل شيء

(١) الطبقات للشعراني (٣٤/١).

(٢) فتح البارى على صحيح البخارى (١٠٤/٩).

(٣) حلية الأولياء (٢٥٧/٥).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٦).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥١).

(٦) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٣٦٦/١ - ٣٧٨).

فى الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادى إن لم يتصفوا بصفة الزهد، على أقل تقدير، أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال، وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ما تآقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا. . إلى جنات النعيم^(١)، ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر بن عبد العزيز بهذا الأثر، فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد اشتيت الحج، فهل عندك شىء؟ قال: بضعة عشر ديناراً. قال: وما تقع منى؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال، سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان، قال: اجعلها فى بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفيننا، وإن تكن حراماً فكفانا ما أصابنا منها، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علىّ قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شىء صنعته لله، فإن لى نفساً تواقّة لم تتق إلى منزلة فنالتها إلا تآقت إلى ما هى أرفع منها، حتى بلغت اليوم المنزلّة التى ليس بعدها منزلّة، وإنها اليوم قد تآقت إلى الجنة^(٢).

٣- تواضعه:

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال ابن القيم: أى يمشون بسكينة ووقار متواضعين^(٣). وقال ﷺ: «إن الله أوحى إلى: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»^(٤). وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التى تميز بها عمر بن عبد العزيز، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه، لأن شرط الزهد الحقيقى هو التواضع لله^(٥)، وقد كان تواضع عمر فى جميع أمور حياته ومعاملاته، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجا ما عنده، وأراد الطاعة والولاء من رعيته^(٦)، وما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله فى الأرض، فقال له عمر: مه إني لما ولدت أختار لى أهلى اسماً فسمونى عمر، فلو ناديتنى: يا عمر، أجبتك، فلما

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥١).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٢). (٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠).

(٤) مسلم رقم (٢٨٦٥). (٥) عمر بن عبد العزيز للزحيلي، ص (١٠٥).

(٦) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٢).

اخترت لنفسى الكُنَى فكُنيت أبى حفص، فلو ناديتنى يا أبا حفص أجبتك، فلما وليتمونى أموركم سميتمونى أمير المؤمنين، فلو ناديتنى يا أمير المؤمنين أجبتك، وأما خليفة الله فى الأرض، فلست كذلك، وكن خلفاء الله فى الأرض داود والنبي ﷺ وشبهه (أى الأنبياء) (١)، مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]. ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له، فقال: يا معشر الناس: إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وكان يقول للحرس: لا تبتدونى بالسلام، إنما السلام علينا لكم (٢)، وكان متواضعاً حتى فى إصلاح سراج به نفسه، فقد كان عنده قوم ذات ليلة فى بعض ما يحتاج إليه، فغشى سراج به، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نكفيك؟ قال: وما ضرني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز (٣)، ومن تواضعه أيضاً قال يوماً لجارية له: يا جارية روِّحيني قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه، فغلبتها عينها فنامت، فانتبه عمر، فإذا هو بالجارية قد احمر وجهها، وقد عرقت عرقاً شديداً - وهى نائمة - فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال: فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلى أصابك من الحر ما أصابنى، فأحببت أن أروحك مثل الذى روحتنى (٤)، وكان يمتنع عن كثرة الكلام - وهو العالم الفصيح المفوّه - خشية على نفسه من المباهاة بما عنده، أو يظن الناس به ذلك، فكان يقول: إنه ليمنعنى من كثير من الكلام مخافة المباهاة (٥)، ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زيناً، وأنت زين الخلافة، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

وإذا الدرّ زان حسن وجوه كان للدرّ حسن وجهك زيناً

فأعرض عنه (٦). وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: لا، بل جزى الله الإسلام عنى خيراً (٧)، ودخل عليه رجل - وهو فى ملأ من الناس - فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عمّ سلامك (٨)، وهكذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٣٤، ٣٥).

(٣) المصدر نفسه، ص (٣٩). (٤) أخبار أبى حفص للأجرى، ص (٣٩).

(٥) المصدر السابق، ص (٨٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٣٦/٥)، الحلية (٣٢٩/٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥)، الحلية (٣٣١/٥). (٨) الطبقات (٣٨٤/٥).

كان أمير المؤمنين عمر، يخفض الجناح للمؤمنين، ولا يتكبر على أحد من عباد الله، ولم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق، يصلح سراجاً بنفسه، ويجلس بين يدي الناس على الأرض، ويأبى أن يسير الحراس والشرط بين يديه، ويعتف من يعظمه، أو يخصه بسلام من بين الجالسين، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب، أو مأكل، أو ملابس، أو مشرب^(١).

٤- ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع، والورع هو الإمساك عما قد يضر، فتدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر، فإنه من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعى حول الحمى يوشك أن يواقعه^(٢)، والورع في الأصل الكف عن المحارم والتخرج منها، ثم استعير للكف عن الحلال المباح^(٣). وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع، وتحرى السلامة من الشبهات، فقد روى أنه كان يعجبه أن يتأدم بال غسل، فطلب من أهله يوماً غسلًا فلم يكن عنده، فأتوه بعد ذلك بال غسل، فأكل منه، فأعجبه، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته: بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد، فاشتراه لى، فقال: أقسمت عليك لما أتيتنى به، فأنته بَعْكَةً^(٤)، فيها غسل، فباعها بثمن يزيد على الدينارين، ورد عليها مالها، وألقى بقيته فى بيت مال المسلمين وقال: أنصبت دواب المسلمين فى شهوة عمر^(٥). ومن ورعه أنه كان له غلام يأتيه بقمقم^(٦)، من ماء مسخن، يتوضأ منه، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين، فتجعله عنده، حتى يسخن، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله، قال: أفسدته علينا، قال: فأمر مزاحماً أن يغلى ذلك القمقم، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب ثم يحسب تلك الأيام، التى كان يغليه فيها، فيجعله حطباً فى المطبخ^(٧). ومن أمثلة ورعه كان لا يقبل أى هدية من عماله أو

(١) عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، ص (١٢٣).

(٢) الفتاوى (٦١٥/١٠). (٣) لسان العرب (٢٨٨/٨).

(٤) العكة: وعاء من جلد ماعز يذيق ويخصص للسمن والغسل.

(٥) أخبار أبى حفص للأجرى، ص (٥٤). (٦) القمقم: هو ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره.

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

من أهل الذمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً فقال: لو كان لنا -أو عندنا- شئ من التفاح، فإنه طيب الريح طيب الطعم، فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحاً، فلما جاء به الرسول، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه، أرفعه يا غلام، فأقرئ فلاناً السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت: يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، قال: ويحك! إن الهدية كانت للنبي هدية وهى لنا اليوم رشوة^(١)، ومن ورعه أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين، فعندما وضعت بين يديه مسكة عظيمة فأخذ بأنفه، فقيل: يا أمير المؤمنين إنما هو ريح، قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها^(٢)، وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة، فكان يسرج السراج من بيت المال إذا كان فى حاجة المسلمين، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجة الخاص به من ماله الخاص^(٣)، وقد ذكر المؤرخون كثيراً من الأمثلة التى تدل على ورعه، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى فى الأشياء اليسيرة القليلة هو من باب الابتعاد عن الشبهة، فكان بعيداً عن الشبهات^(٤) احتياطاً لدينه، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

١ - أمر استبان رشده فاتبعه. ٢ - وأمر تبين خطؤه فاجتنبه.

٣ - وأمر أشكل عليك فتوقف عنه^(٥).

وكان رحمه الله ورعاً حتى فى الكلام فعندما قيل له: ما تقول فى أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدي منها، فلا أحب أن أخضب لسانى بها^(٦)، وهكذا يتضح أن ورع عمر كان فى شأنه كله، فى مأكله وحاجته وشهوته، ومال المسلمين

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٩٧).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٠٠)، كتاب الورع لابن أبى الدنيا، ص (٧٤) وقال محقق الكتاب إسناده إسناد الأثر.

(٣) الآثار الواردة فى عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/١٦٤).

(٤) المصدر نفسه (١/١٦٥). (٥) العقد الفريد (٤/٣٩٧)، الآثار الواردة (١/١٦٥).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٩٥).

وفى كل أمور حياته، ذلك الورع النابع من الإيمان القوى، والشعور بالمسئولية، واستحضاره الآخرة، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجليلة، فقد بلغ به مبلغًا جعله يشترى مكان قبره الذى سيوارى فيه، فلا يكون له من الدنيا دون مقابل حتى موضع قبره^(١).

٥ - حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التى تجسدت فى شخصية عمر بن عبد العزيز الحلم والصفح والعفو، فعن شيخ من الخناصرين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة، فخرج يلعب مع الغلمان فشجه غلام، فاحتملوا ابن عمر والذى شجه فأدخلوهما على فاطمة، فسمع عمر الجلبة وهو فى بيت آخر فخرج، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابنى وهو يتيم، قال: أله عطاء؟ قالت: لا. قال: فاكتبوه فى الذرية، فقالت فاطمة: أفضل هذا به وقد شج ابنك؟ فعل الله به، وفعل! المرة الأخرى يشج ابنك ثانية، فقال عمر: إنكم أفزعتموه^(٢). وعن إبراهيم بن أبى عبل قال: غضب عمر بن عبد العزيز يومًا غضبًا شديدًا على رجل، فأمر به فأحضر وجردَّ وشُدَّ فى الحبال وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله، ثم قال: أما أنى لولا أن أكون غضبان لسؤتُك. وتلا: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار^(٣)، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوق فى وجهه فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم فى الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله^(٤) وروى أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التقى مُلجم^(٥)، وعن حاتم بن قدامة أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو يخطب فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجزِ شهادتك^(٦)، وروى أن عمر بن عبد العزيز لما

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٦).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٠٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٣).

(٣) الطومار: صحيفة مطوية.

(٤) حلية الأولياء (٥/٣١١). (٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٠٨).

(٦) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٤).

ولى الخلافة خرج ليلة فى السحر إلى المسجد ومعه حرسى فمرّاً برجل نائم على الطريق فعثر به عمر . فقال له : أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا، فهمّ الحرس به . فقال له عمر: مه، فإنه سألتنى أمجنون أنت؟ فقلت: لا^(١). وروى أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز. وهو على المنبر فقال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا أردت أن يستفزنى الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بى غداً مثله . اذهب غفر الله لى ولك^(٢). وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكى، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربنى فلان العبد . فجىء به . فقال له: ضربته؟ قال: نعم . فقال له: اذهب فلو أنى معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك، اذهب ولم يكلمه^(٣). والمواقف فى حلمه وصفحه وعفوه كثيرة، وهذا غيض من فيض .

٦- صبره:

ومن صفاته -رحمه الله- الصبر والشكر، روى أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز حضر عند قبره فقال: لا تعمقه، فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها^(٤)، وروى أنه حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتلى أمير المؤمنين ببلاء عظيم؛ مات ولده عبد الملك، لا والله إن رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ لا والله ما رأيت أخاً أنفع لأخ منه . قال: وسكت عن مزاحم . فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم، فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندى، رحمك الله يا مزاحم مرتين أو ثلاثاً، والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت فى أمر الآخرة^(٥)، وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثنى عليه عند قبره، فقال مسلمة: أرايت لو بقى أكنت تولّيه؟ قال: لا . قال: فأنت تثنى عليه بهذا الثناء، قال: إنى أخاف أن يكون زين لى من المحبة له ما يزين فى عين الوالد من حبّ ولده^(٦). وخطب عمر فى خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، إلا كان الذى أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضا قليل، والصبر معتمد المؤمن . وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد

(٤) المصدر نفسه (٢/٤٢٧).

(١)، (٢)، (٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/٤٢٥).

(٦) المصدر نفسه (٢/٤٢٨).

(٥) المصدر نفسه (٢/٤٢٧).

أكثر مما يصلح، ومن لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، والرضا قليل، ومعمول المؤمن على الصبر^(١). وكان من أجل ما صبر عليه عمر في حياته: أمر الخلافة، فقد قال: والله ما قعدت مقعدى هذا إلا خوفاً أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أنى أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مستحقها - يعنى الخلافة -، ولكنى أصبر حتى يأتى الله بأمر من عنده، أو يأتى بالفتح^(٢).

٧- الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، فى وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة فى حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاية والأمراء والعمال، ولقد تحلى عمر بصفة الحزم وضبط الأمور، وعدم التهاون فيما يراه ضرورياً لخدمة الصالح العام، وما يصلح به أمر المسلمين، وقد أخذ حزم عمر صوراً مختلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف بنى أمية، ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم وإثارة الفتن وسفك الدماء وغير ذلك من الأمور، فقد كان أول مؤشر على حزمه موقفه من بنى مروان، إذ قال لهم: أدوا ما فى أيديكم ولا تلجئوني إلى ما أكره، فأحملكم على ما تكرهون، فلم يجبه أحد منهم. فقال: أجيبوني، فقال رجل منهم: والله لا نخرج عن أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا، فنفقّر أبناءنا ونكفر آباءنا، حتى تتزاييل رؤوسنا، فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحق له، لأضرعت خدودكم عاجلاً، ولكنى أخاف الفتنة، ولئن أبقانى الله لأردنّ إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله^(٣)، وكان إذا وقع فى أمر مضى فيه، وجاءه يوماً كتاب من بعض بنى مروان فأغضبه فاشتاط،^(٤) ثم قال: إن لله من بنى مروان يوماً - وقيل: وذبحاً - وإيم الله، لئن كان ذلك الذبح على يدي، فلما بلغهم ذلك، كفوا وكانوا يعلمون صرامته، وأنه إذا وقع فى أمر مضى فيه^(٥) رأما فيما يتعلق بمن يريد شق عصا المسلمين والخروج عليهم، فقد اتبع معهم أسلوب الحوار والمناظرة - وهم الخوارج الذين ثاروا ضد بنى أمية بقيادة شوذب الخارجى ١٠٠هـ - ليقف على ما دفعهم إلى ذلك، ويرى

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/٤٢٨). (٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٤٤).

(٣) العقد الفريد (٥/١٧٣). (٤) اشتطاط الرجل: أى احتد واحتدم كأنه التهب فى غضبه.

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٥٨).

إن كان الحق معهم نظر في أمره، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس، إلا أنه في الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشيء من الحزم والصلابة، عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول: لا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فخلّ بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً طيباً حازماً فوجهه إليهم، ووجهه معه جنداً، وأوصه بما أمرتك به^(١)، وهكذا كان عمر في حزمه، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة، والتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية، وكان لذلك الحزم مردود إيجابى كبير على سير الأمور، وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالـم الخلافة الراشدة^(٢).

٨ - العدل:

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق، وقد تحدثنا عن العدل في دولته وسياسته في رد المظالم فيما مضى، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه - أى عمر بن عبد العزيز - من أئمة العدل، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين^(٣)، ولعل من أهم أسباب عدل عمر هو إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله في كونه، ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق، ويرجع وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس في خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين، بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية، وما نماه الإسلام في نفس عمر، من حب للعدل وإحياء لقيمته^(٤)، وإليك هذه الصور من عدله والتي لم أذكرها فيما مضى، فنورد ما رواه الآجرى من أن رجلاً ذمياً من أهل حمص قدم على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضى - والعباس جالس - فقال له: يا عباس ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا

(١) تاريخ الطبرى (٤٥٩/٧). (٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٦٣).

(٣) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (١٦٣).

(٤) النموذج الإدارى، ص (١٦٣، ١٦٤).

أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، وكتب لى بها سجلاً، فقال عمر: ما تقول يا ذمى؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك، فاردد عليه يا عباس ضعته فردّها عليه^(١).

ومن موافقه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعيني، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة^(٢)، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد، وخصماؤك بين يدي، ولكن وكل بخصومتك من شئت، وإلا فجائى القوم بين يدي، فوكل مولى له بخصومته - يعنى مسلمة - ففضى عليه بالناعورة^(٣)، وهذا قليل من كثير، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر.

٩- تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه:

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء، فقد كان يقول: يا رب خلقتني ونهيتني، ووعدتني بثواب ما أمرتني، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه، وسلطت على عدواً أسكتته صدرى وأجريت مجرى دمي، إن أهمّ فاحشة شجعتني، وإن أهمّ بصالحة ثبطني، لا يغفل إن غفلت، ولا ينسى إن نسيت، ينصب لى فى الشهوات، ويتعرض لى فى الشبهات، وإلا تصرف عنى كيده يستذلنى، اللهم فأقهر سلطانه علىّ بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكرى لك؛ فأكون مع المعصومين بك، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٤)، وكان يقول: اللهم أصلح من كان فى صلاحه صلاح أمة محمد ﷺ، اللهم أهلك من كان فى هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ^(٥)، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم ألبسنى العافية حتى تهينى المعيشة، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضررنى الذنوب، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين^(٦)، وكان يقول: اللهم إنى أطعك فى أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك، فاغفر لى ما بينهما^(٧). وكان يقول:

(١) أخبار أبى حفص، ص (٥٨).

(٢) الناعورة: موضع بين حلب وبالس يبعد عن حلب ثمانية أميال.

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩١).

(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/٣٤١).

(٥) المصدر نفسه (١/٣٤٢).

(٦) المصدر نفسه (١/٣٤٣).

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٣٠).

اللهم أنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرًا، أو أن أكفرها بعد موتها، أو أن أنساها فلا أثنى بها^(١). وكان كثيرًا ما يدعو فيقول: اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل شىء آخرته، ولا تأخير شىء عجلته^(٢). وكان رحمه الله مستجاب الدعوة، فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سيقًا للوليد بن عبد الملك، فلما ولى عمر الخلافة قال: إنى أذكر إباءه وتيهه، ثم قال: اللهم إنى قد وضعت لك فلا ترفعه، فما رُئى شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر^(٣)، وقد دعا عمر رحمه الله حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقله الماء فيها، فدعا عند ذلك، فأجاب الله دعاءه، فسقوا؛ وهذا حين كان أميرًا على المدينة^(٤)، كما دعا على غيلان القدرى حين ناظره فقال: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقًا وإلا فاصلبه، فصلب بعد فى خلافة هشام بن عبد الملك^(٥).

ثانيًا: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية، إجماعًا تامًا على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول فى الإسلام^(٦)، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال: يروى فى الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها» فنظرنا فى المائة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز^(٧)، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين، وذكر بعض أهل العلم هو من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها»^(٨). ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليف بآن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث، فقد كان عالمًا عاملاً، همه كله، وعزومه، وهمته، آناء الليل والنهار، إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/٣٤٣). (٢) المصدر نفسه (١/٣٤٤).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٠).

(٤) البداية والنهاية نقلًا عن الآثار الواردة (١/١٨٣). (٥) الشريعة للأجرى (١/٤٣٨).

(٦) عون المعبود (١١/٣٩٣) العظيم آبادى، جامع الأصول (١١/٣٢٢).

(٧) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٧٤).

(٨) المجددون فى الإسلام للصعيدى، ص (٥٧)، موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى، ص (٦٣).

ومحوها، وكسر أهلها باللسان، والسنن^(١)، يقول ابن حجر العسقلاني: إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل^(٢). ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد الكامل لا يستحقه إلا مهدي آخر الزمان، وأنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى^(٣). وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا، فإن الأعمال التجديدية التي قام بها، والجهود الكبيرة التي بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية، وإعادتها إلى نقائها وصفائها في زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا، وقد ساعده على ذلك موقعه الذي تبوأه على رأس خلافة قوية، منيعة الجانب، مترامية الأطراف، ولكي ندرك حجم الأعمال التجديدية التي اضطلع بها هذا الخليفة، وقدر الإصلاح الذي أحدثه، ينبغي أن نقف على حجم الانحرافات التي طرأت على الحياة الإسلامية والتغير والانقلاب الذي حدث للخلافة الإسلامية، ولعلنا لا نجنب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف في ذلك الوقت بنظام الحكم، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد، وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لازالت ذات أثر بالغ فيها، وكان الدين صاحب السلطان الأول في قلوب الناس^(٤).

١- من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية:

أ- الشورى: قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز في أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان

(٢) فتح الباري (١٣/٢٩٥).

(١) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (١/١٧٧).

(٤) عمر بن عبد العزيز للندوي، ص (١٠).

(٣) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي، ص (٦٩).

منى فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك؛ فل أمرنا باليمن والبركة^(١). وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدى، حيث أعفى الناس من الملك العضوض، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم^(١).

ب- الأمانة فى الحكم وتوكيل الأمانة:

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب، فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة، فقال لمن سألته: مالى أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إلى فيه، ولا طالبه منى^(٣). وقال: لست بخير من أحد منكم، ولكنى أثقلكم حملاً^(٤). وكان يطالب عماله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأنًا من شئون المسلمين، فقد كتب إلى أحد عماله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى^(٥)، ولم تكن سياسته فى التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط بل ألزم بها عماله وولاته، فقد كتب إلى عامله أبى بكر بن حزم: أن أدق قلمك، وقارب بين أسطرك، فإننى أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لا يتفعون به^(٦)، وقد ساس رعيته سياسة رحيمة، وأمن لهم عيشاً رغيداً، وكفاهم مذلة السؤال، فقسم فضول العطاء فى أهل الحاجات^(٧)، وقسم فى فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان، وأعطى الزمنى خمسين خمسين^(٨)، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج^(٩)، وكتب إلى عماله: أن

(١) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٦٥).

(٢) التجديد فى الفكر الإسلامى، د. عدنان محمد، ص (٧٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٥٨٦).

(٥) تاريخ الطبرى، نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨١).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥/٥٩٥).

(٧) تاريخ الطبرى، نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٨١).

(٨)، (٩) تاريخ الطبرى (٧/٤٧٤).

اعملوا خانات فى بلادكم، فمن مر بكم من المسلمين، فأقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فأقروهم يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّه بما يصل به إلى بلده^(١)، وقد عزّ فى زمن عمر وجود من يقبل الزكاة، يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون، فما يبرح يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس^(٢)، وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال، فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم^(٣)، ولا تزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية، على كل أولئك الذين يشككون فى إمكانية إقامة نظام اقتصادى إسلامى، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشرعية الربانية هو وحده الذى يكفل للناس السعادة فى الدنيا والآخرة^(٤).

ج - مبدأ العدل:

فقد كان فيه لعمر القدح المغلّى، وكان بحق وارثاً فيه لجده لأمه عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل^(٥)، وطلب أن لا يقام على أحد حد إلا بعد علمه^(٦)، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمى أمير خراسان: يا ابن أم جراح، لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا فى حق، واحذر القصاص، فإنك صائر إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها^(٧). وأنصف أهل الذمة وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه^(٨)، وقد رفع المكس وحوطّ العشور والضرائب التى فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة فى البر والبحر، وقد تبرأ من المظالم التى كان يرتكبها بنو أمية وتبرأ من الحجاج وأفعاله وأنكر على عماله الاستئنان بسنته^(٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٨).

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٢).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٠).

(٤) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، ص (٤١، ٤٢).

(٥) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٩٨).

(٧) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٤).

(٦) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٤).

(٩) سيرة ومناقب عمر، ص (١٠٧، ١٠٨).

(٨) المصدر نفسه (٧/ ٤٧٧).

د- أحياءه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ، ورفع لواءه وأعلى شأنه، وجعله المهيمن والمقدم على ما سواه. وما حقق عمر ما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقاً من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد^(١)، حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة^(٢). وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ في تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها^(٣)، وسيأتى بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى. وقد نقل عنه الإمام الأوزاعي قوله: إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة^(٤). وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها^(٥)، وقد اهتم اهتماماً شديداً بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عماله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات، فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعاً^(٦). والناظر في رسائل عمر وخطبه ومواظبه -وهي أكثر من أن تحصى- يرى إيماناً قوياً، ومراقبة جلية، وخوفاً من يوم يقف فيه الناس بين يدي رب العالمين، وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم^(٧)، يدل على ذلك ما ذكره الطبرى في تاريخه مقارناً عهد عمر بعهد من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضيايع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجوارى، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون، فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تخرم، ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر؟^(٨) ولم يكتف

(٢) سير أعلام النبلاء (٥١٨/٥).

(١) التجديد في الفكر الإسلامى، ص (٨٥).

(٣) التجديد في الفكر الإسلامى، ص (٨٦).

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٨٣).

(٥) التجديد في الفكر الإسلامى، ص (٨٦).

(٦) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٢١).

(٧) التجديد في الفكر الإسلامى، ص (٨٦).

(٨) تاريخ الطبرى نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامى، ص (٨٧).

عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء العرب^(١)، ولعل من أجل الأعمال التي خدّم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية، وخاصة علم الحديث، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى، كل هذه الأعمال العظيمة والإصلاحات الجليلة حققها عمر في مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنازة يستهدى بنورها الملتصقون دروب التجديد والإصلاح^(٢).

٢- من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدد أهم شروط المجدد والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أ- أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج: وذلك لأن من أخص مهمات التجديد إعادة الإسلام صافياً نقيّاً من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التي جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في عقيدته، ومنهجه وتصورات^(٣). وهذا الشرط قد توافر في عمر بن عبد العزيز، وسوف نوضحه في آثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

ب- أن يكون عالماً مجتهداً: وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز، فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة أن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه، ومن ذهب إلى وضع شروط يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الآلة كلها من نحو ولغة وبلاغة، وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قرآن ومصطلح حديث وسيرة، وبعلمي المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به^(٤)، والصواب أن

(١) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز للندوي، ص (٣٠). (٢) التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٨٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٦).

(٤) عون المعبود (١١/٣٩٢).

الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، قادراً على الفهم والاستنباط، مطلعاً على أحوال عصره، فقيهاً بواقعه^(١)، يقول المناوى: إن على المجدد أن يكون قائماً بالحجة، ناصراً للسنّة، له ملكة رد المشتبهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات، من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان.^(٢) ويقول العظيم آبادى: إن المجدد للدين لا بد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنّة، قامعاً للبدعة^(٣)، ويقول المودودى: من الخصائص التى لا بد أن يتصف بها المجدد هى: الذهن الصافى، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبية الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف^(٤)، ويقول فى تعدادة لعمل المجدد: الاجتهاد فى الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقى العمرانى فى عصره، ويرسم طريقاً لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشرعية سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكن الإسلام من الإمامة العالمية فى رقى المدنية الصحيح.

ج - أن يشمل تجديده ميدانى الفكر والسلوك فى المجتمع: وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التى ينبغى أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها انحرافات فكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيى العلم النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويثبه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتركيز نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشرعية، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٤٦).

(٢) فيض القدير للمناوى (١/١٤).

(٣) عون المعبود (١١/٣١٩).

(٤) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودى، ص (٥٢).

المنشئة في حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفساد في الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة^(١).

د- أن يعم نفعه أهل زمانه: وذلك لأن المجدد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرناً من الزمن، فلا بد إذن من أن يكون منارة يستضيء بها الناس، ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضى أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثراً يَبْيناً في فكر الناس وسلوكهم، وغالباً ما يتم تحقيق ذلك عبر من يريهم من تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية، وينشرون كتبه وأفكاره، ويؤسسون مدارس فكرية ترسم خطاه في الإصلاح والتجديد^(٢).

٣ قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٣) والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقدم الزمان وبكفالاته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلوك الليل، واشتد الظلام، ونحن في الوقت الحاضر بحاجة ماسة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التي عمّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا في آخر الزمان، وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التي تبذل، لأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن في انتظار العلامات الكبرى التي

(١) عون المعبود (١١/٣٩١)، التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٤٨).

(٢) التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٤٨). (٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/١٥١).

سيعقبها قيام الساعة، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها^(١). من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضى الله عنه عند البخارى: «لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم»^(٢)، وحديث: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(٣). وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التى تحمل البشرى والأمل للأمة، مثل حديث: «مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أو آخره»^(٤)، وفى قوم دون غيرهم، وفى زمن دون زمن، كما ذكر ابن القيم^(٥) ولذلك شهد التاريخ الإسلامى حقبة من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز^(٦)، ونور الدين، وصلاح الدين، ويوسف بن تاشفين، ومحمد الفاتح، وغيرهم، وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذى نحن بصدد شرحه، وكذا الأحاديث التى تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة، وإن كانت أخباراً يقينية صدرت عن الصادق المعصوم، ولا بد أن تتحقق كما أخبر، إلا أنها تحمل فى مضمونها تكليفاً واستنهاضاً لعزائم المسلمين بوجوب السعى الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين، وإعزاز أهله، كما هى سنة الله فى ترتيب المسببات على الأسباب^(٧).

أ- فى قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة»^(٨): إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة، فهو صاحب عزيمة وهمة، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده، مواصلاً عمل النهار بالليل، لينقذ هذه الأمة من هدهتها، ويعيد لها ثقتها بدينها، ويردها إلى المنهج الصحيح، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات، ومغالباً كل المشقات والتحديات، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودتها^(٩).

(١) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٥). (٢) البخارى رقم (٦٥٤١)، ك الفتى.

(٣) مسلم، ك الإيمان رقم (٢٠٨). (٤) سنن الترمذى رقم (٢٧٩٥) صحيح.

(٥) مدارج السالكين (١٩٦/٣). (٦) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٦).

(٧) الاجتهاد للتجديد، عمر عبيد حسنة، ص (٧). (٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥١/٢).

(٩) التجديد فى الإسلام نقلاً عن التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٧).

ب - قوله: على رأس كل مائة سنة^(١): الرأس فى اللغة يمكن أن يراد به أول الشئ، كما أن يمكن أن يراد به آخره^(٢)، وقد اختلف العلماء فى المراد من الرأس فى هذا الحديث، فقال بعضهم: المراد: أول المائة، وقال آخرون: المراد آخرها^(٣)، وهذا ما اختاره ابن حجر^(٤)، والطيبى^(٥)، والعظيم آبادى^(٦)، وقد احتج العظيم آبادى لاختياره بكون الإمامين الزهرى وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وعلى رأس المائة الثانية الإمام الشافعى رحمه الله، وقد توفى عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومائة، وله أربعون سنة، ومدة خلافته ستان ونصف، وتوفى الشافعى سنة أربع ومائتين^(٧)، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى اعتباره أولها لأنه لم يكن مولوداً أولها فضلاً عن أن يكون مجددها، وكذا الإمام الشافعى لم تكن ولادته بداية المائة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها^(٨).

ج - هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المائة؟ يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن، إلا أن هذا رأى مرجوح، لأن كلمة (البعث) فى الحديث تدل على الإرسال والإظهار، والموت قبض وزوال، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتى عليه نهاية القرن، وقد ظهرت أعماله التجديدية، واشتهر بالصلاح وعم نفعه، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن أو أن يبقى حياً حتى يدخل عليه القرن التالى^(٩).

د - هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟ أثار قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» سؤالاً فى الماضى والحاضر، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة فى الحديث فرد واحد من أفراد الأمة وأفذاذها يحى الله بها دينها، أم المراد بها ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد، ونسب السيوطى هذا رأى إلى الجمهور، فقال فى أرجوزته عن المجددين:

- | | |
|--|--------------------------------|
| (١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٥١/٢). | (٢) عون المعبود (٣٨٦/١١). |
| (٣) المصدر نفسه (٣٨٦/١١). | (٤) فتح البارى (٢٩٥/١٣). |
| (٥) عون المعبود (٣٨٩/١١). | (٦)، (٧) المصدر نفسه (٣٨٧/١١). |
| (٨) التجديد فى الفكر الإسلامى، ص (٥٨). | (٩) المصدر نفسه، ص (٦١). |

وكونه فرداً هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور^(١)

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن كلمة (من) في الحديث للعموم في أصل وضعها اللغوي^(٢)، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء^(٣)، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبي وابن كثير والمناوي والعظيم آبادي^(٤)، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) في الحديث على العموم أولى، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد على رأس كل قرن من القرون الخوالي، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق^(٥).

هـ- المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه:

يلاحظ المتأمل في قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» أنه أضاف الدين إلى الأمة ولم يقل يجدد لها الدين، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلهي الذي بعث الله به رسوله ﷺ، وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع، تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بنى جنسه، ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير، ولا التجديد، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به. وترجمتها له واقعاً ملموساً على الأرض، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين^(٦).

(١) عون المعبود (١١/٣٩٤).

(٢) التجديد في الفكر الإسلامي، ص (٦١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٦١).

(٤) المصدر نفسه، ص (٦٢، ٦٣).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٥).

(٦) من أجل صحة إسلامية للقرضاوى، ص (٢٦، ٢٧).

الفصل الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة، وحرص على تعلمها وتعليمها وبشها بين الناس، وتناثرت أقواله في عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية؛ من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها، ونال بهذا الجهد العلمى رسالة الماجستير، والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط الأضواء على هذا البعد المهم فى حياته والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح، الذى جاء ذكره فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن أهم الجوانب العقائدية التى تحدث فيها عمر ابن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوى، به أرسل جميع الرسل، وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذى دعا إليه كل رسول من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، بل هو الغاية من خلق الجن والإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكان سلف هذا الأمة رحمهم الله يهتمون بهذا النوع من التوحيد، ومن كان له إسهام فى هذه المسألة عمر بن عبد العزيز^(١)، وقبل بيان ما أثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه؛ فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له^(٢)، وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شىء من خلقه^(٣)،

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/ ١٩٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٩).

(٣) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدي، ص (٧) مطبوع على الآلة الكاتبة نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/ ٢٠٠).

وقد ورد عن عمر بن عبد العزيز آثار فى الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

١- الدعاء:

أ - مر عمر بن عبد العزيز برجل فى يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوجنى من الحور العين، فقام إليه فقال: بشئ الخاطب أنت، ألا ألقى الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء^(١). وفى هذا الأثر بين عمر بن عبد العزيز أن من شروط الدعاء الإخلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤] وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٢).

ب - قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إني أطعك فى أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك فى أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لى ما بينهما^(٣). فهنا توسل عمر بن عبد العزيز بالطاعة والتوحيد وطلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار^(٤)، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعمالهم الصالحة من الإيمان وقدموه قبل الدعاء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فإنهم قدموا الإيمان قبل الدعاء، وأمثال ذلك كثير^(٥).

ج - حصلت زلزلة بالشام، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن هذا الرجف شئ يعاتب الله به العباد، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا، فمن كان عنده شئ فليصدق^(٦). قال الله عز وجل: ﴿قَدْ

(١) الحلية (٢٨٧/٥)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٤).

(٢) سنن الترمذى (٤٨٣/٥)، صحيح سنن الألبانى رقم (٢٧٦٦).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن القيم الجوزية، ص (٢٤٢).

(٤) مسلم رقم (٢٧٤٣).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢١٩/١).

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٤)، الحلية (٣٠٤/٥، ٣٠٥).

أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَني ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿الاعلى: ١٤، ١٥﴾ وقولوا كما قال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد أمر -رحمه الله- الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى، والتصديق والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام^(١).

د - قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز، فكثر بكأؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يدك خيراً كثيراً؟ أحيا بك سنتاً، وأمات بك بدعاً، قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان، ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضاً دعا به - رحمه الله - خوفاً من الفتنة في الدين، لاسيما عند وفاة أعوانه: ابنه عبد الملك ومولاه مزاحم وأخيه سهل، كما جاءت في بعض الروايات^(٢).

٢- الشكر: عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها^(٣)، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى^(٤)، وكتب إلى بعض عماله فقال: .. أوصيك بتقوى الله وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته وآتاك في كرامته، فإن نعمه يمدّها شكره ويقطعها كفره^(٥). وقد حث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق تبارك وتعالى على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال عز وجل: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢٢٠).

(٢) العقد الفريد (٤/ ٣٩٦)، الآثار الواردة (١/ ٢٢٤). (٣) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٢٤٠).

(٤) ابن أبي الدنيا، كتاب الشكر لله تعالى، ص (١٩). (٥) ابن أبي الدنيا، ذم الدنيا، ص (٨١).

تَكْفُرُونَ ﴿البقرة: ١٥٢﴾. والشكر يستلزم المزيد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وما أثر عن عمر - رحمه الله تعالى - في هذا الجانب يبين منهج السلف في التعامل مع النعم التي ينعمها الخالق على عباده^(١).

٣- التوكل: قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمائة حرسى وثلاثمائة شرطى، فشهدته يقول لحرسه: إن لى عندكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرة دنائير ومن شاء فليلحق بأهله^(٢). ولما خرج عمر ابن عبد العزيز من المدينة نظر مولاة مزاحم إلى القمر فإذا القمر فى الدبران^(٣)، قال: فكرهت أن أقول ذلك له فقلت: ألا تنظر إلى القمر، ما احسن استواءه فى هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران فقال: كأنك أردت أن تعلمنى أن القمر بالدبران، يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار^(٤). يظهر هنا حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. والتوكل، من أعظم الأسباب التى يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها^(٥).

٤- فى الخوف والرجاء: عن يزيد بن عياض بن جعدبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبى كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلانى به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله إن عصاه منى، فقد ضاق بما أنا فيه ذرعى، وخفت أن تكون منزلتى التى أنا بها هلاكاً إلا أن يتداركنى الله منه برحمة، وقد بلغنى أنك تريد الخروج فى سبيل الله، فأحب يا

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣٦/٥).

(١) الآثار الواردة (١/ ٢٣٠).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣٥).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

أخى إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة وخطرى عظيم، فاسأل الله الذى ابتلانى بما ابتلانى به أن يرحمنى ويعفو عني^(١).

وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبد العزيز -وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم فى أيام -: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب فى أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى، قال: فنكس ساعة ثم قال لى: كيف قلت يا ربيع؟ فأعدتها عليه. فقال: لا والذى قضى عليهم الموت، ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن من الذى أرجو من الله فيهم^(٢)، وعن قتادة أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولى العهد من بعده: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك: السلام عليك، فإننى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإننى كتبت إليك وأنا ذنف^(٣) من وجعى، وقد علمتنى أنى مسئول عما وليت، يحاسبنى عليه ملك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملى شيئاً يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فإن يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط على فىا ويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو أن يجيرنى من النار برحمته، وأن يمن على برضوانه والجنة^(٤). ومن كلام عمر يتبين لنا جمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجاء هو من عقيدة السلف الصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليأس من روح الله، فالسلف كانوا يخافون ربهم، ويرجون رحمته^(٥)، وهم سائرون على ما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّفُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

(١) الطبقات (٣٩٤/٥، ٣٩٥)، الآثار الواردة (٢٤٠/١).

(٢) المعرفة والتاريخ للفسوى (٦١٠/١)، الآثار الواردة (٢٤١/١).

(٣) ذنف الرجل من مرضه: براه المرض حتى أشفى على الهلاك.

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٤٤).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢٤٥/١).

ثانياً: معتقد عمر بن عبد العزيز في أسماء الله الحسنى:

أسماء الله الحسنى: هي كلماته الدالة على ذاته المتضمنة إثبات صفات الكمال له، بلا مماثلة، وتنزيهه عن صفات النقص والعيب^(١). والأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي تقتضى المدح والثناء بنفسها^(٢)، ولا شك أن كل قارئ للقرآن الكريم، وللأحاديث النبوية يجد أن الله تبارك وتعالى في كتابه قد سمى نفسه بأسماء، وأن رسوله ﷺ قد سمى ربه بأسماء، ومن المعلوم أن السلف الصالح يثبتون لله تعالى من الأسماء ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسول الله ﷺ، لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ، وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وهي أعلام، وأوصاف، وهي أسماؤه حقيقة دالة على ذاته وصفاته وهي توقيفية، وغير محصورة بعدد معين، وغير مخلوقة، ولا يجوز الإلحاد فيها^(٣)، ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز نوضح بعض أسماء الله تعالى التي ذكرها في رسائله وخطبه، ومنهج عمر بن عبد العزيز هو منهج الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وقد قعد أهل السنة قواعد في أسماء الله تعالى يمكن استنتاج بعضها من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فمن هذه القواعد ما يلي:

- أن أسماء الله تعالى أزلية، قال عمر بن عبد العزيز: .. ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق^(٤) بل لم يزل الله وحده بكل شيء عليمًا، وعلى كل شيء شهيدًا، قبل أن يخلق شيئًا وبعد ما خلق. فبين عمر أن الله له الأسماء الحسنى وهي العليم، والشهيد أزلاً، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة^(٥).

- أن أسماء الله تعالى توقيفية، وهذا منهج أهل السنة والجماعة، وهو ما تبين بالاستقراء من كلامه حيث لم يذكر حسب اطلاعى إلا أسماء الله الواردة في الكتاب والسنة، وهذا هو الحق إذ لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمى به نفسه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ^(٦).

(١). منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، خالد عبد اللطيف (٢/ ٣٩١).

(٢). الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٧٦). (٣) المصدر نفسه (١/ ٢٨٧).

(٤). الحلية (٥/ ٣٤٨)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٠٤).

(٥). الآثار الواردة (١/ ٣٠٥). (٦) المصدر نفسه (١/ ٣٠٥).

- أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف، أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهى بالاعتبار الأول - أى أعلام - مترادفة، وبالعبار الثانى - أى أنها أوصاف - متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فالهى الرحمن الرحيم كلها أسماء لمسمى واحد، لكن معنى الحى غير معنى الرحمن؛ هكذا^(١). وقد خالف معتقد السلف الصالح فى توحيد الأسماء الحسنى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام؛ فالجهمية^(٢) أنكرت الأسماء الحسنى وذلك لظنهم أن التوحيد نفى محض، وأن إثبات الأسماء الحسنى إثبات لأعراض حادثة، ولم يثبتوا من الأسماء الحسنى غير اسمى (القد ر والخالق) لأن الجهم لا يسمى أحداً من المخلوقين قادراً لنفيه استطاعة العباد، ولا يسمى أحداً خالقاً غير الله تعالى، لأن عنده أن كل صفة أو اسم يجوز أن يسمى أو يتصف به غير الله فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى^(٣)، وعلى هذا يجب على المسلم الوقوف عند ما ثبت وترك الابتداع، والتحريف والتأويل المفضى إلى الإلحاد^(٤) فإن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد وردت فى رسائل عمر بن عبد العزيز وخطبه كثير من أسماء الله الحسنى، كالله عز وجل، والرب، والرحمن، الرحيم، المليك، الخبير، والكريم، والحى، والرقيب، والشهيد، والواحد القهار، والعلی العظيم، والعفو الغفور، والعزیز الحكيم، والوارث، والخالق، والعليم^(٥)، ونتحدث عن بعض هذه الأسماء.

١- فى اسمه تعالى «الرب»: كان عمر يقول: يا رب انفعنى بعقلی^(٦). والرب من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. ومعنى الرب: المصلح للشيء. ورب الشيء: مالكة، فالله عز وجل مالك العباد ومصلحهم ومصلح شئونهم^(٧)، ومصدر الرب الربوبية، وكل من ملك شيئاً فهو

(١) القواعد المثلى، ص (٨).

(٢) الجهمية: سياى الحديث عنها فى محاورات عمر لأهل الفرق.

(٣) منهاج السنة (٢/٥٢٦)، الآثار الواردة (١/٣٠٦).

(٤) الآثار الواردة (١/٣٠٦).

(٥) المصدر السابق (١/٢٧٩ - ٣٠٦).

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (٦٨)، الآثار الواردة (١/٢٨١).

(٧) الآثار الواردة (١/٢٨١).

ربه، يقال: هذا رب الدار، ورب الصنيعة، ولا يقال الرب معرقاً بالألف واللام مطلقاً إلا لله عز وجل لأنه مالك كل شيء^(١).

٢- في اسمه تعالى «الحى»: كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا فى وجهه، فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذى يرزقكم حى لا يموت^(٢). فالحى اسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وحياته تعالى لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات فى العلم والقدرة والسمع والبصر، وغيرها^(٣).

٣- فى اسميه «الواحد القهار»: قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار^(٤). وهما من أسماء الله الحسنى قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والواحد القهار أى: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته، وأفعاله العظيمة، وقهره لكل العوالم، فكلها تحت تصرفه وتديره، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه^(٥).

٤- فى اسميه تعالى «العلى العظيم»: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد رسالة واختتمها بقوله: .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم^(٦). والعلى العظيم من الأسماء الحسنى، قال تعالى: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهو العلى بذاته فوق عرشه، العلى بقهره لجميع المخلوقات، العلى بقدره لكمال صفاته^(٧)، والعظيم: الذى تتضاءل عند عظمته جيروت الجبابرة، وتصغر فى جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة^(٨).

(١) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجى، ص (٣٢، ٣٣)، الآثار الواردة (١/ ٢٨١).

(٢) الحلية (٥/ ٣٣٠)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٨٨).

(٣) اشتقاق أسماء الله الحسنى، ص (١٠٢).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

(٥) تفسير السعدى، ص (٤٢٨).

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٨١).

(٧)، (٨) تفسير السعدى، ص (١١٠).

فهذه بعض أسماء الله الحسنى التى جاءت فى الرسائل والآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز، وهى للمثال وليست للحصر.

ثالثاً: معتقد عمر بن عبد العزيز فى صفات الله تعالى:

صفات الله عز وجل هى نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية، كالعلم والحكمة، والسمع، والبصر، واليدين والوجه، وغيرها مما أخبر الله تعالى بها عن نفسه فى كتابه وعلى لسانه نبيه ﷺ، وتوحيد الله عز وجل فى صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به نبيه ﷺ نفيًا وإثباتًا، فيثبت ما أثبتته لنفسه وينفى عنه ما نفاه عن نفسه^(١). فالأصل فى هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله نفيًا وإثباتًا، فيثبت ما أثبتته لنفسه، وينفى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكيف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبتته من الصفات من غير إلحاد، لا فى أسمائه ولا فى آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون فى أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]. فطريقتهم تضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفى مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] رد للإلحاد والتعطيل^(٢). وقد جاءت الآثار عن عمر بن عبد العزيز فى باب الصفات، فأثبت ما أثبتته الله لنفسه، وتحدث عن إثبات صفة النفس، والوجه، والعلم، والكبرياء والقدرة، والعلو، والمعية والقرب، وصفة المشيئة والإرادة، وصفة الغضب، والرضا، وصفة الرحمة^(٣)، وإليك الحديث عن بعضها:

(١) أقوال التابعين فى مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ٨٧٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣) .

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣١٣ - ٣٥٩) .

١- صفة النفس: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن رسالة فقال: أما بعد، فإن الله عز وجل جعل الإسلام -الذي رضى به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه- لا يقبل ديناً غيره^(١). وهذا الأثر يبين إثبات صفة النفس، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال ﷺ في ثنائه على ربه: «.. لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢)، فففسه تعالى هى ذاته المقدسة، كما تبين ذلك من الكتاب والسنة^(٣). فففسه تعالى هى ذاته المتصفة بصفاته، وليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة الذات^(٤).

٢- صفة الوجه لله تعالى: كتب عمر إلى الخوارج رسالة وفيها: .. وإنى أقسم لكم بالله لو كنتم أبكارى من ولدى.. لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة^(٥). صفة الوجه من الصفات الخبرية الذاتية، دل عليها الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]. وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه، ففى سؤاله ربه لذة النظر إلى وجهه يقول: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك»^(٦).

٣- صفة القدرة لله تعالى: كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد، فإذا دعيتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم، فاذكر قدرة الله عليك فى نفاذ ما يأتى إليهم وبقاء ما يأتى إليك^(٧). وقال فى رسالته فى الرد على القدرية وفيها: .. فالله أعز فى قدرته وأمنع من أن يملك أحداً إبطال علمه^(٨). يتبين من خلال الأثرين السابقين إثبات عمر بن عبد العزيز صفة القدرة لله تبارك وتعالى، وهى من الصفات التى دل عليها السمع والعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(٣) مسلم رقم (٤٨٦).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٨٦)، الآثار الواردة (١/٣١٣).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٣١٤).

(٤) الفتاوى نفاً عن الآثار الواردة (١/٣١٤).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٥).

(٦) صححه الألبانى فى صحيح سنن النسائى (١/٢٨٠، ٢٨١).

(٨) الحلية (٥/٣٤٧).

(٧) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٥).

[البقرة: ٢٠]. ومن السنة حديث أبي مسعود البدرى لما ضرب غلامه قال له النبي ﷺ: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»^(١).

هذه بعض الآثار التي تدل على إثبات عمر بن عبد العزيز لصفات الله تعالى على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

رابعاً: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد:

عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. لا يبقى -أو قال: لا يجتمع- دينان بأرض العرب»^(٢)، وقال: حصين: إن عمر بن عبد العزيز نهى أن يبنى القبر بأجر وأوصى بذلك^(٣). والحديث الذي أرسله عمر -رحمه الله- يبين تحذير رسول الله ﷺ لأئمة من اتخاذ القبور مساجد، وبين أن ذلك فعل اليهود والنصارى، والمسلم منهى عن الاقتداء بهؤلاء الضلال المغضوب عليهم بنص القرآن، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتخصيصها مما أجمع على منعه سلف هذه الأمة، كما مر عن عمر بن عبد العزيز حيث نهى أن يبنى القبر بأجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبر^(٤)، ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد النبوى حين كان عمر عاملاً له على المدينة وإدخال حجرات الرسول ﷺ -ومنها حجرة عائشة -رضى الله عنها - التى فيها قبر الرسول ﷺ وصاحبيه - كان عمر بن عبد العزيز هو الذى جعل مؤخر القبر محدداً بركن، لئلا يستقبل قبر النبي ﷺ فيصلى إليه، جعل ذلك حين انهدم جدار البيت فبناه على هذا فصار للبيت خمسة أركان^(٥)، والمقصود أن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- قد سد منافذ الشرك بعلمه وحكمته، كما تبين من نقل من شاهدوا بناء المسجد النبوى فى عهد ولايته على المدينة النبوية، ولا شك أن نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً كان خوفاً من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به، بل ربما أدى ذلك

(١) مسلم رقم (١٦٥٩).

(٢) البخارى رقم (١٣٣٠)، مصنف عبد الرزاق (١٠/٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٤٦). (٤) الآثار الواردة عن عمر فى العقيدة (١/٢٦٤).

(٥) المصدر نفسه (١/٢٦٥).

إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية^(١). وقد منع عمر من اتخاذ البناء لقبره، وأوصى بذلك مع أنه كان في الزمن الذي فيه العقيدة صافية نقية إذا قورن ذلك الزمان بما بعده، ولكن لفهمه الصحيح لمقاصد السنة ولاتباعه المنهج الصحيح؛ منهج النبي ﷺ وأصحابه، وفقه الله تعالى للوصية بأن لا يبنى على قبره خشية أن يتخذ مسجداً، فحسم الموقف قبل أن يستفحل، ولا شك أن ما ذهب إليه عمر هو ما يدل عليه الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه^(٢).

خامساً: مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز:

قال عدي بن عدي: كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص^(٣)، وعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن عرى الدين وقوائم الإسلام: الإيمان بالله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فصلوا الصلاة لوقتها^(٤). فقد بين عمر بن عبد العزيز أن للإيمان فرائض أى: أعمالاً مفروضة كالصلاة والحج والصوم، وشرائع أى: عقائد دينية كالإيمان بالله وملائكته، وحدوداً أى: منهيات ممنوعة كشرب الخمر والزنا، وسنناً أى مندوبات كإمالة الأذى عن الطريق، وغيرها من المندوبات. فهذه الأمور كلها من الإيمان^(٥)، وهذا المأثور عن عمر هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، فالإيمان عند أهل الحق: قول اللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان^(٦)، فمن الأدلة الدالة على أن الإيمان قول باللسان قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني

(٢) مسلم رقم (٩٧٠).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٨٥).

(٣) فتح الباري على صحيح البخاري (١/ ٤٥).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٢)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٤٣).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٤٥).

(٦) المصدر نفسه (١/ ٥٤٤).

نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»^(١). ومن الأدلة على أن أعمال القلوب من الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ [الأنفال: ٣]. والوجل من أعمال القلوب، وقد جرى في الآية إيماناً. ومن الأدلة على أن أعمال الجوارح من الإيمان قوله تعالى: ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٤٣]. يبين ذلك سبب نزول الآية حين سُئِلَ عليه السلام: أرايت الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل ﴿...وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ...﴾. وفي هذا دلالة على أنه تعالى سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً، فإذا ثبت ذلك في الصلاة ثبت ذلك في سائر الطاعات^(٢)، وكتب عمر بن عبد العزيز رسالة وفيها: أسأل الله برحمته وسعة فضله أن يزيد المهتدي هدى، وأن يرجع بالمسيء التوبة في عافيته^(٣)، وفي قوله عند الحديث عن الإيمان،... فمن استكملهن فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملهن لم يستكمل الإيمان^(٤). فهذه الآثار تبين أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة والآثار عن السلف الصالح. قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»^(٥)، ومن أقوال سلف الأمة قول البخارى: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص^(٦).

سادساً: الإيمان باليوم الآخر:

الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، منها: كل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من البعث والنشور، وما يكون في يوم القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار... إلخ وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن هذه الأمور، منها:

(١) مسلم رقم (٣٢).

(٢) الاعتقاد للبيهقي، ص (٩٥، ٩٦)، الآثار الواردة (١/ ٥٤٥).

(٣) الطبقات (٦/ ٣١٣)، الآثار الواردة (١/ ٥٥٠).

(٤) فتح الباري (١/ ٤٥).

(٥) الإيمان لابن أبي شيبه، ص (٥)، وصححه الألباني، الآثار الواردة عن عمر (١/ ٥٥٣).

(٦) البخارى مع الفتح (١/ ٤٧).

١- عذاب القبر ونعيمه: قال عمر بن عبد العزيز لرجل: يا فلان قرأت البارحة سورة فيها زيارة، ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢]. فكم عسى يلبث عند المزور حتى ينكفى، إما إلى جنة وإما إلى نار^(١). وخطب مرة فقال: أيها الناس ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وفى بيوت الميتين، وفى دور الظاعنين، جيراناً كانوا معكم بالأمس أصبحوا فى دور خامدين، بين آمن روحه إلى يوم القيامة وبين معذب روحه إلى يوم القيامة^(٢). وخطب مرة أخرى بخناصرة فقال: .. فى كل يوم تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً، قد قضى نحبه وانقضى أجله، ثم تغيبونه فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب وخلع الأسباب وواجه الحساب وسكن التراب، مرتهاً بعمله غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدم^(٣)، وما قاله عمر بن عبد العزيز يدل على إثبات عذاب القبر ونعيمه وهو معتقد أهل السنة، والجماعة، وبهذا دلت النصوص من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر^(٤). وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥].

٢- الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء: خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه والفصل بينكم^(٥). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد، فكأن العباد قد عادوا إلى الله فينبئهم بما عملوا؛ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى^(٦)، وعن جرير بن حازم قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدى: ... اعلم أن أحداً لا يستطيع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شيء، لا بد أن تتأخر قضايا ليوم الحساب^(٧). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة: أما بعد، فإننى أذكرك ليلة تمخض بالساعة وصباحها القيامة، فيالها من ليلة، ويالها من صباح

(١) الخلية (٣١٧/٥)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (٣٣٦/١).

(٢)، (٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٥٩، ٢٦٠). (٤) الروح لابن القيم، ص (١٤٤).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٢). (٦) ذم الدنيا لابن أبى الدنيا، ص (٨١).

(٧) فى الزهد، هناد السرى (٢٩٩/١، ٣٠٠)، الآثار الواردة (٤٤٨/١).

كان على الكافرين عشرين^(١). وكتب إلى بعض الأجناد: أما بعد، أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته.. فمن كان راغباً في الجنة أو هارباً من النار، فالآن في هذه الأيام الخالية، والتوبة مقبولة، والذنوب مغفورة، قبل نفاذ الأجل وانقضاء المدة وفراغ الله عز وجل للثقلين ليدينهم بأعمالهم في موطن لا تقبل فيه فدية، ولا تنفع فيه الحيلة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس جميعاً بأعمالهم، ويتفرقون منه أشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله عز وجل، وويل يومئذ لمن عصى الله عز وجل^(٢)..

إن الإيمان بالمعاد والبعث والنشور وأن الله تبارك وتعالى يجمع كل الخلائق، وبيان الحكمة من ذلك، وبيان شدة هذا اليوم على الكفار هو مدلول الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى هنا، ولا شك أن الإيمان بالمعاد من أهم العقائد التي تميز بها الإسلام، وقد تحدث القرآن الكريم عن الإيمان بالمعاد، إما تصريحاً وتأكيدياً أو تلميحاً وإشارة، وقد بين الله تبارك في كثير من آيات الكتاب وجوب الإيمان بالبعث، وبين في بعضها الرد على من ينكر حشر الأجساد بحجج عقلية لا يمكن للمنكرين إلا الإذعان لها أو المكابرة^(٣)، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١] وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِيتُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦] وقال في منكري البعث، ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٧-٧٩]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَنِيِّ يَمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فُسُوًى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠]. كما ثبت في الأحاديث الإيمان بالبعث، منها حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوله: لى ولد

(١) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (١١٥) أبو حفص، الملاء (٢٠٦/١).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (١١٥، ١١٦)، أبو حفص، الملاء (٢٦٦/١).

(٣) الآثار الواردة في العقيدة (٤٥١/١).

فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولدًا»^(١). ومضمون هذه النصوص هو المأثور عن عمر^(٢).

٣- الميزان: قال عمر بن عبد العزيز: أو ما رأيتم حالات الميت؟ وجهه مفقود، وذكره منسى، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ ولم يعمر الديار: واتقوا يومًا لا يخفى فيه مثقال ذرة في الموازين^(٣). قال: .. أعوذ بالله أن آمرم بما أنهى عنه نفسى؛ فتخسر صفقتى، وتظهر عولتى، وتبدو مسكتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة^(٤).

وعن بجدل الشامى عن أبيه - وكان صاحبًا لعمر بن عبد العزيز - قال: رأيت عمر ابن عبد العزيز يتلو هذه الآية ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] حتى ختمها فمال على أحد شقيه يريد أن يقع^(٥). فهذه الآثار تدل على أن بعد القيام من القبور والذهاب إلى المحشر، ونزول الرب تبارك وتعالى - يليق بجلاله - لفصل القضاء، ينصب الميزان، وهو ميزان حقيقى توزن به أعمال العباد، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة^(٦)، قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان وغيرهم وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين^(٧)، وهذا الميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٤- الحوض: كتب عمر بن عبد العزيز إلى صاحب دمشق: أن سل أبا سلام عما سمع من ثوبان مولى رسول الله ﷺ فى الحوض، فإن كان يثبته فاحمله على

(١) البخارى رقم (٣٠٩٣). (٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٤٥٢).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٥٥).

(٤) الحلية (٢٩١/٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٣٤-٢٤٤).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٤٨).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٤٥٧). (٧) فتح البارى (١٣/٥٣٨).

مركبة من البريد^(١). وفى رواية: بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبى سلام الحبشى يحمل على البريد، فلما قدم عليه قال لقد شق علىّ، قال عمر: ما أردنا ذلك، ولكنه بلغنى عنك حديث ثوبان فى الحوض، فأحببت أن أشافهك به فقال: سمعت ثوبان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن حوضى من عدن إلى عمان البلقا^(٢) ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين^(٣). ولا شك أن الإيمان بالحوض هو عقيدة أهل السنة والجماعة استناداً إلى النصوص الصريحة بذلك، وأدلة إثبات الحوض فى السنة بلغت حد التواتر.

٥ - الصراط: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له: يا أخى إنك قد قطعت عظيم السفر وبقي أقله، فاذكر يا أخى المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك ﷺ فى القرآن أنك من أهل الورود ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج، وإياك أن تغرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له^(٤)، وهذا الأثر الوارد عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يدل على الإيمان بالصراط، وذلك أنه بعد الخروج من عرصات القيامة فى اليوم العصيب يمر الناس على الصراط، وهو جسر ممدود على متن جهنم، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، يرده الأولون والآخرين من أتباع الرسل الموحدين وفيهم أهل الذنوب والمعاصي، وفيهم أهل النفاق، فتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط، وفى هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم، ويعطى كل مؤمن نوره بقدر عمله يضىء له الطريق، فيمرون على الصراط، فمنهم من يمر كالبرق الخاطف، وكالريح، ومنهم من يرمل رملاً حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه تخريداً وتعلق يد وتخر رجل وتصيب جوانبه النار^(٥). وقد دل الكتاب والسنة على المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنْجِي

(١) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/٤٦٢).

(٢) الآثار الواردة (١/٤٦٣).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣٧).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٥٧).

(٥) شرح الطحاوية، ص (٤٧٠)، الآثار الواردة (١/٤٦٨).

الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿٧٢﴾. وقال ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة» قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢]. أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله. فالؤمنون يمرون فوق النار على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا، فينبى ﷺ أن الورد هو الورد على الصراط^(١)، والحق أن الورد على النار ورودان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، أى بشئ المدخل المدخول، والورد الثانى: ورود الموحدىن وهو مرورهم على الصراط^(٢)، وهو ما عناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى الأثر الماضى.

٦- الجنة والنار: بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم الصبر قالت فاطمة: بأبى أنت يا أمير المؤمنين، مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصور القوم من بين يدى الله، فريق فى الجنة وفريق فى السعير، ثم صرخ وغشى عليه^(٣). وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز يوماً ساكناً وأصحابه يتحدثون فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكراً فى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفى أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكى^(٤). وكتب إلى بعض الأجناد: واعلم أنه ليس يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه فى الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب فى الدنيا من نعمة أو رخاء. وما يجد أهل الدنيا من مكروه أصابهم فى دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها فى دنياهم، كل شئ من ذلك لم يكن^(٥) وعن الفضل بن ربيع قال: سمعت فضيل بن عياض يقول: بلغنى أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا

(١) شرح الطحاوية، ص (٤٧١).

(٢) القيامة الكبرى للأشقر، ص (٢٧٨).

(٣) الرقة والبكاء، ص (٦٧).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٥٤).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٥٠، ٢٥١)، الآثار الواردة (١/٤٧٣).

إليه فكتب إليه عمر: يا أخى اذكر طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك. لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى^(١).

ومعتقد عمر بن عبد العزيز في الجنة والنار هو ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَرَكَى﴾ [طه: ٧٥، ٧٦]. وقال ﷺ: «إن أحدمكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»^(٢).

٧- رؤية المؤمنين ربهم في الجنة: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمراء الأجناد: أما بعد، فإنى أوصيك بتقوى الله والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإنه بتقوى الله نجاة أولياؤه من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا^(٣) أنبياءه، وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم^(٤). وهذا المعتقد الذى كان يعتقده عمر بن عبد العزيز فى رؤية الله تعالى فى الجنة من أعظم النعم بعد نعمة التوفيق والهداية، قال تعالى فى وصف المؤمنين فى ذلك اليوم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] وقال جل شأنه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وعن صهيب قال: «قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة، الجنة وأهل النار، النار ينادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتجربنا من النار؟! قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»^(٥).

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٢٤، ١٢٥)، الآثار الواردة (١/٤٧٤).

(٢) مسلم رقم (٢٨٦٦). (٣) فى الحلية وابن الجوزى والملاء: رافقوا بدل وافقوا.

(٤) الرد على الجهمية للدارمى، ص (١٠٣)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (١/٤٧٩).

(٥) مسلم رقم ٢٩٧.

سابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين:

١- اتباع الكتاب والسنة: لما ولى عمر بن عبد العزيز كتب: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه والافتداء بسنة نبيه وهديه^(١)، وليس لأحد فى كتاب الله، ولا فى سنة نبيه ﷺ أمر ولا رأى إلا إنفاذه والمجاهدة عليه^(٢)... فإن الذى فى نفسى وبقيتى فى أمر أمة محمد ﷺ أن تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأن تحتبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد، من عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له فى الدنيا والأخرى، وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك، ولعمرى لأن تموت نفسى فى أول نفس أحب إلى من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم، التى عاش عليها من عاش، وتوفاه الله عليها حين توفاه إلا أن يأتى على وأنا حريص على اتباعه، وإن أهون الناس على تلقاً وحزناً لمن عسى أن يريد خلاف شيء من تلك السنة^(٣). وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله فرض فرائض وسنّ سنناً من أخذ بها لحق ومن تركها مُحق^(٤). وقال: يا لىتنى عملت فيكم بكتاب الله وعملت به، فكلما عملت فيكم بسنة وقع منى عضو، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسى^(٥)، وكتب إلى الخوارج: ... فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. وقال: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها، اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولآه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً^(٧).

فهذه الآثار توضح اتباع عمر للكتاب والسنة ولزومهما، وبذل الجهد والطاقة فى تطبيقهما، وإن أدى ذلك إلى قطع الأعضاء، وإزهاق النفس، وما ذهب إليه عمر هو أصل الدين وأساسه قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٥)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢٨٤/١).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٨)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢٨٧/١).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧١)، الآثار الواردة (٦٠١/٢).

(٤) محق: أهلكه وأباده، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٩).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٣٠)، الآثار الواردة (٦٠٢/٢).

(٦) الآثار الواردة (٦٠٢/٢). (٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٠).

شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿النساء: ٦٥﴾
وقال ﷺ: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وستتقون» (١).

٢- الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين: عن حاجب بن خليفة البرجمي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب الناس وهو خليفة، فقال في خطبته: ألا إن ما سن رسول الله ﷺ وصاحبه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه، وما سن سواهما فإننا نرجئه (٢)، وكتب إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله: أما بعد، فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني، ولا إرادة، يعلم الله، ذلك، فإذا أتاك كتابي هذا، فاكتب به سيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة وأهل العهد، فإني سائر بسيرته إن أعانني على ذلك والسلام (٣)، وعن عون بن عبد الله قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: أعدلان عندك عمر وابن عمر؟ قال: قلت: نعم، قال: فإنهما لم يكونا يكبران هذا التكبير (٤). وعن الزهري، قال: قال رجل لعمر بن عبد العزيز: طلقت امرأتى وأنا سكران، قال الزهري: فكان رأى عمر بن عبد العزيز أن يجلدته ويفرق بينه وبين امرأته حتى حدثه أبان بن عثمان (عن أبيه): ليس على المجنون ولا السكران طلاق، فقال عمر: تأمروني وهذا يحدثني عن عثمان بن عفان؟ فجلده ورد إليه امرأته (٥)، وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، قوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً (٦). إن عمر بن عبد العزيز تمسك بسنة رسول الله وخلفائه الراشدين، وأعاد للخلافة الراشدة معالمها وملامحها، وسار على هديها وعض على سنتهم بالنواجذ ورجع إلى أقوالهم عند النزاع، وأخذ بها في الحكم على أهل القبلة وأهل العهد، كما أخذ بها في العبادات والمعاملات، وقد أولى الخليفة الأول

(١) موطأ مالك (٩٣/٣)، والحاكم (٩٣/١).

(٢) الحلية (٢٩٨/٥)، جامع العلوم والحكم، ص (٢٨٨). (٣) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (١٠٨).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٦٦/٢)، الآثار الواردة (٦٦/٢).

(٥) مصنف عبد الرزاق (٣١/٤)، الآثار الواردة (٦٣٣/٢). (٦) سيرة عمر لابن عبد الحكيم، ص (٤٠).

والثانى أبا بكر وعمر جل اهتمامه، وعدّ الأخذ بستتهما أخذًا بسنة رسول الله ﷺ، كما أخذ بسنة الخليفة الثالث فور سماعها وطبق تلك السنة، واعتصم بسنة الخليفة الرابع فى معاملة الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم، فلما تهادوا حاربهم، وحكم على أموالهم وذرايرهم وأسراهم بقضاء الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنهم^(١)، بل يرى عمر بن عبد العزيز أن من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين رضى الله عنهم فهو خارج عن سبيل المؤمنين، وهو من الفرقة الهالكة، وكل ما سنه الخلفاء الراشدون فإنه من سنته ﷺ؛ لأنهم إنما سنوه بأمره ولا يكون فى الدين واجب إلا ما أوجبه، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا مستحب إلا ما استحبه، ولا مكروه إلا ما كرهه، ولا مباح إلا ما أباحه. واتباع سنة الخلفاء الراشدين فى العقائد والأحكام هو ما عليه السلف الصالح وهو الذى دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(٢). وعن حذيفة رضى الله عنه قال: كنا عند النبی ﷺ جلوسًا فقال: «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم فاقعدوا باللذين من بعدى، وأشار إلى أبى بكر وعمر»^(٣).

٣- التمسك بما تدل عليه الفطرة: عن جعفر بن رقان، قال: جاء رجل إلى عمر ابن عبد العزيز فسأله عن شيء من الأهواء فقال: الزم دين الصبى فى الكتاب والأعرابى، وأله عما سوى ذلك^(٤). وعمر بن عبد العزيز هنا يرى أن العباد مخلوقون على الدين القويم، وأن الانحراف عنه طارئ وحادث، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «ما من

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/٦٣٧).

(٢) سنن الترمذى (٥/٤٤)، حديث حسن صحيح.

(٣) سنن الترمذى (٥/٦١٠)، صحيح سنن الترمذى للألبانى (٣/٢٠٠).

(٤) الطبقات (٥/٣٧٤)، شرح اعتقاد أهل السنة رقم (٢٥٠).

مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء^(١)، هل تحسون فيها من جدعاء^(٢)، ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه: فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم^(٣). فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه وتتذلل له وتخلص له الدين وفيها قوة موجبة لذلك، وكذلك تقر بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره، فهي تعرف هذا الشرع وتشعر به مجملًا ومفصلاً بعض التفصيل، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه، وتفصله لها وتبينه، وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتضائها أثرها^(٤).

ثامناً: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم:

عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه أنه قال: لقد أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا، لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة^(٥). قال أبو عمر رحمه الله، هذا فيما كان طريقه الاجتهاد^(٦)، وسئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لسانى فيها^(٧). وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه فلا تعملوا ألسنتكم فيه^(٨). وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ولم لا يكون ذلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] ومعتقد أهل السنة: بأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن

(١) جمعاء: سليمة من العيوب الأعضاء، كاملها فلا جدد ولا كى .

(٢) جدعاء: أى مقطوعة الأطراف أو واحدها . (٣) البخارى رقم (١٣٥٨) .

(٤) شفاء العليل، ص (٦٢٩، ٦٣٠) .

(٥) جامع بيان العلم (٢/ ٩٠١ - ٩٠٢)، الآثار الواردة (١/ ٤١٠) .

(٦) الآثار الواردة (١/ ٤١٠) . (٧) الطبقات (٥/ ٣٩٤)، الآثار الواردة (١/ ٤١٢) .

(٨) الطبقات (٥/ ٣٨٢)، الآثار الواردة (٥/ ٣٨٢) .

المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب^(١)، وقال ابن حجر: وافق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين^(٢)، ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

تاسعاً: موقفه من أهل البيت:

قال ابن القيم: إن العلماء اختلفوا في تحديد المراد بأهل البيت على أربعة أقوال: فقليل هم الذين حرمت عليهم الصدقة وفيهم ثلاثة أقوال:

١ - أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

٢ - أنهم بنو هاشم خاصة.

٣ - أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة.

والقول الثالث: أن آله أتباعه إلى يوم القيامة.

والقول الرابع: أن آله هم الأتقياء من أمته^(٣). ثم رجح الله القول الأول وهو أن آله ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة^(٤). هذا ويرى الشيعة أن آل النبي ﷺ هم علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وقولهم هذا مخالف للنصوص الصحيحة، ولا تؤيده اللغة ولا العرف، لأن لفظة أهل البيت وردت في القرآن الكريم في سياق الخطاب لأزواج النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقد تحدثت عن هذه الآية ورددت على أفهام الشيعة الإمامية لها في كتابي عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب. هذا وقد عرف عمر بن عبد العزيز حقوق أهل البيت المادية

(٢) فتح الباري (١٣/٣٤).

(١) الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة أبي زيد، ص (٢٣).

(٣) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، ص (١٠٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٠ - ١١٩)، الآثار الواردة (٤٢٨/١).

والمعنوية، وأداها إليهم كافة مستوفاة كاملة بدون بخس ولا شطط^(١)، وأزال عنهم المظالم التي وقعت عليهم وأحسن إليهم غاية الإحسان المعنوى والمادى، فعن جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت علي بن أبي طالب ذكرت عمر بن عبد العزيز، فأكثر الترحم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ، فأخرج عنى كل خصى وحرسى، حتى لم يبق فى البيت غيرى وغيره ثم قال: يا بنت على، والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلى منكم، ولأنتم أحب إلى من أهل بيتى^(٢)، وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبى طالب قال: أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمال بعث به إلينا أهل البيت، فأعطى المرأة منا مثل ما يعطى الرجل، وأعطى الصبى مثل ما تعطى المرأة. قال: فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار، وكتب لنا: إني إن بقيت لكم أعطيتكم جميع حقوقكم^(٣)، وعن حسين بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان وقال قائلون: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهّد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب رضى الله عنه^(٤)، فعمّر بن عبد العزيز كغيره من السلف الصالح كان قائماً بأداء حقوق أهل بيت النبى ﷺ امتثالاً لما أمر به ﷺ: «... وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى»^(٥)، وقال ابن تيمية: وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبى ﷺ ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ، وآل بيته ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقاً فى الخمس والفىء وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ^(٦). والحقوق التى ذكرها ابن تيمية رحمه الله هى التى حرص عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أدائها على الوجه المطلوب شرعاً، فرد على آل رسول الله ﷺ فذك كما قام برد خمس الخمس عليهم كما أطعمهم فى الفىء^(٧)، وقام رحمه الله بالاهتمام

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٤٢٩/١).

(٢) المصدر نفسه (٣٩٢/٥).

(٣) الطبقات (٣٨٨/٥).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٢).

(٥) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٢).

(٦) الفتاوى (٤٠٧/٣).

(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٤٣٣/١).

بحقوق أهل بيت النبي ﷺ المادية والمعنوية، حرصاً منه على اتباع ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وحباً منه لاتباع السلف الصالح^(١) رضوان الله عليهم. وأما ما تذكره كتب التاريخ أن ولاية بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علياً وهذا الأثر الذى ذكره ابن سعد لا يصح، قال ابن سعد: أخبرنا على بن محمد، عن لوط بن يحيى قال: كان الولاية من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون علياً رضى الله عنه، فلما ولى هو - عمر بن عبد العزيز - أمسك عن ذلك فقال كثير عزة الخزاعى:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
فصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضياً كل مسلم^(٢)

فهذا الأثر واه، فعلى بن محمد هو المدائنى فيه ضعف، وشيخه لوط بن يحيى واه، قال عنه يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطنى: إخبارى ضعيف، ووصفه صاحب الميزان: إخبارى تالف لا يوثق به^(٣). وعامة رواته عن الضعفاء والهللكى والمجاهيل^(٤). وقد اتهم الشيعة معاوية رضى الله عنه بحمل الناس على سب على رضى الله عنه ولعنه فوق منابر المساجد، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة، والذى يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل، حتى صارت عند المتأخرين من المسلمات التى لا مجال لمناقشتها علماً بأنها لم تثبت قط فى رواية صحيحة، ولا يعول على ما جاء فى كتب الدميرى، واليعقوبى، وأبى الفرج الأصفهانى، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء^(٥)، ويؤكد احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين على وأهل بيته الأطهار، فحكاية لعن على على منابر بنى أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبنى أمية، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٧/٥).

(١) الآثار الواردة (٤٣٥/١).

(٤) دفاعاً عن السلفية، ص (١٨٧).

(٣) الميزان (٤١٩/٣).

(٥) الحسن والحسين، محمد رضا، ص (١٨) كلام، المحقق د. أحمد أبو الشباب.

أبدًا، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بنى العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بنى أمية في نظر الجمهور الإسلامي، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب وغيره من كتاب الشيعة، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ولا يوجد فيها رواية صحيحة، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل، وسلامة السند من الجرح، والمتن من الاعتراض، ومعلوم وزن هذه الدعوة عند المحققين والباحثين، ومعاوية رضى الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين، وكان محمود السيرة في الأمة، أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين، وشهدوا له بالدين والعلم، والعدل والحلم، وسائر خصال الخير^(١).

وقد ثبت هذا في حق معاوية - رضى الله عنه - كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته، أن يحمل الناس على لعن على رضى الله عنه على المنابر، وهو من هو في الفضل، ومن علم سيرة معاوية - رضى الله عنه - في الملك وما اشتهر به من الحلم والصفح، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه، فقد بلغ معاوية رضى الله عنه في الحلم مضرب الأمثال، وقدوة الأجيال^(٢). وقد تحدثت عن هذه الفرية بنوع من التوسع في كتابي خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب. وقد بينت فيه علاقة معاوية بأولاد على رضى الله عنه بعد استقلاله بالخلافة، وما كان بينهم من الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم، كما أن المجتمع في عمومهم مقيد بأحكام الشريعة حريص على تنفيذها، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذىء. وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين، فعن عائشة - رضى الله عنها - مرفوعًا -: لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا^(٣).

(١) الانتصار للصحب والآل للزحيلي، ص (٣٦٧).

(٢) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن على بن أبى طالب، ص (٣٠٣).

(٣) البخارى رقم (٦٥١٦).

الفصل الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية

أولاً: الخوارج:

برزت هذه الفرقة أثناء خلافة علي بن أبي طالب رضى الله عنه وبالتحديد عام ٣٧هـ بعد معركة صفين، وقبول علي رضى الله عنه تحكيم الحكيمين، وقد تحدثت عن هذه الفرقة بشيء من التفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه، ومن أهم آرائهم الاعتقادية:

١ - تكفير علي بن أبي طالب رضى الله عنه وعثمان بن عفان رضى الله عنه والحكمين رضى الله عنهما أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص.

٢ - القول بالخروج على الإمام الجائر.

٣ - قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده فى النار^(١).

هذه المبادئ الثلاثة هى جوهر اعتقاد الخوارج، وليس بينهم فى ذلك خلاف إلا خلافاً لبعضهم فى تطبيق هذه المبادئ^(٢). يقول أبو الحسن الأشعرى فى حكاية ما أجمع عليه الخوارج من الآراء: أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب رضى الله عنه أن حكمهم، وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على: أن كل كبيرة كفر إلا النجذات^(٣)، فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى يعذب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلا النجذات أصحاب نجدة^(٤)، وقال المقدسى فى ذلك: وأصل مذهبهم: إكفار علي ابن أبي طالب رضى الله عنه، والتبرؤ من عثمان بن عفان، والتكفير بالذنب، والخروج على الإمام الجائر^(٥).

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٩١).

(٣) النجذات: أتباع نجدة بن عامر الحنفى المقتول ٦٩هـ، فرقة من فرق الخوارج.

(٤) مقالات الإسلاميين (١/١٦٧، ١٦٨).

(٥) البدء والتاريخ (٥/١٣٥)، وسطية أهل السنة فى الفرق، ص (٢٩٢).

استمر الخوارج في حربهم للدولة الأموية، أحياناً ينشطون، وفي الغالب، تتغلب عليهم الدولة بالقوة وتكسر شوكتهم إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز، فدخل معهم في محاورات ونقاشات، واستخدم معهم القوة عند اللزوم، وكان عمر بن عبد العزيز يذم الجدل المذموم وينظر ويجادل بالتي هي أحسن، فقد قال: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل^(١). وقال: احذروا المراء فإنه لا تؤمن فتنه، ولا تفهم حكمته^(٢)، وقال: قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع^(٣)، فقد كان رحمه الله ينهى عن المراء العقيم ويحث على الجدل بالتي هي أحسن؛ وقد كان لعمر بن عبد العزيز مواقف مشهورة وأقوال ماثورة في التعامل مع الخوارج ومناظرتهم ودحض شبهاتهم بالحجة وآرائهم بالدليل، وإيضاح الحق لهم، ودليله حياً منه للسنة واتباعاً للسلف الصالح رحمة الله عليهم^(٤).

١ - موقفه من خروج الخوارج عليه: عن هشام بن يحيى الغساني، عن أبيه أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه في الخوارج إن كان من رأى القوم أن يسيحوا في الأرض من غير فساد على الأئمة، ولا على أحد من أهل الذمة، ولا يتناولون أحداً، ولا قطع سبيل من سبل المسلمين، فليذهبوا حيث شاءوا. وإن كان رأيهم القتال فوالله لو أن أبكارى من ولدى خرجوا رغبة عن جماعة المسلمين لأرقت دماءهم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة^(٥). وجاء في رواية: أقسم بالله لو كنتم أبكارى من أولادى ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا لدفقت دماءكم ابتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة، فإنه يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، فهذا النصح إن أحببتم، وإن تستغشوني فقديماً ما استغش الناصحون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٦). يتبين من الآثار السابقة منهج عمر بن عبد العزيز في التعامل مع

(١) ابن أبى الدنيا، ك الصمت وآداب اللسان، ص (١١٦)، الطبقات (٣٧١/٥).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٣)، الخلية (٣٢٥/٥).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٩١)، الآثار الواردة (٦٧١/٢).

(٤) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (٦٩٣/٢).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٥)، سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٩٩، ١٠٠).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٦٩٥/٢).

الخوارج، فمع خروجهم عليه -وهو الخليفة الحق- لم يحركهم، وإنما كتب إليهم وحذرهم من الخروج عن الجماعة الذين هم أهل الحق، لقد أمر الله -تبارك وتعالى- بالاجتماع ونهى عن التفرق، وأمر بلزوم الجماعة، ونهى عن الخروج عنها وجعل إجماع هذه الأمة حجة، فإذا اجتمعوا على أمير وجب طاعته وحرم الخروج عليه ما لم يأمر بمعصية ولم يظهر كفراً بواحاً^(١)، والآثار المروية عن عمر بن عبد العزيز هنا تبين منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع الخوارج الذين هم أوائل الفرق ظهوراً في الإسلام، فمع خروجهم عليه -وهو الخليفة الحق- لم يحركهم، ولم يرسل عليهم الحملة تلو الحملة، وإنما عاملهم معاملة أتاح لهم الفرصة في الرجوع إلى الحق؛ مستنّاً بسنن أمير المؤمنين على بن أبي طالب في معاملة الخوارج حين خرجوا عليه^(٢).

٢ - مناظرته للخوارج: تبين موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج عموماً فيما سبق، وفي هذا المبحث يتضح موقفه من الذين كتبوا إليه وكتب إليهم طالباً المناظرة معهم، إذا كانوا مستعدين لذلك، وقد وجد من بعضهم استجابة، قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله فإنه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدَرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. أما بعد: فقد بلغني كتابكم والذي كتبت فيه إلى يحيى بن يحيى، وسليمان بن داود الذي أتى إليهما، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. وإنى أدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إن

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٩٦، ٦٩٧).

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥).

شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا، بغير قوة ولا تشنيع، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه، ونحن ندعوكم إليهما. هذه نصيحة منا نصحنا لكم، فإن تقبلوها فذلك بغيتنا، وإن تردوها على من جاء بها فقدیمًا ما استغش الناصحون، ثم لم نر ذلك وضع شيئًا من حق الله، قال العبد الصالح لقومه: ﴿وإن تولّوا فإنّی أخاف علیکم عذاب یوم کبیر﴾ [هود: ٣]. وقوله تعالى: ﴿قل هذه سبیلی أدعو إلى الله علی بصیرة أنا ومن اتبعنی وسبحان الله وما أنا من الْمُشْرِکِینَ﴾ [یوسف: ١٠٨] (١).

وجاء فی رواية: وكتب عمر کتابًا إلى الخوارج، فلما قرؤوه قالوا: نوجه رجلین یکلمانہ فإن أجابنا فذاك، وإن أبى كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبنی شییان یقال له: عاصم ورجلاً من بنی یشکر من أنفسهم، فلما دخلا علیه قالاً: السلام علیکم وجلسا، وقال لهما عمر: أخبرانی ما أخرجكما مخرجكما هذا؟ وأی شیء نقمتم علینا؟ قال عاصم وكان حبشیًا: ما نقمنا علیک فی سیرتک لتحرى العدل والإحسان، فأخبرنا عن قیامک بهذا الأمر أعن رضا من المسلمین ومشورة أم ابتزرتهم إمرتهم؟ قال: ما سألتهم الولاية علیهم ولا غلبتهم على مشیئتهم، وعهد إلى رجل عهداً لم أسأله قط لا فی سر ولا علانية، فقامت به ولم ینکره علی أحد، ولم یکرهه غیرکم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس، فأنزلونی ذلك الرجل، فإن خالفت الحق وزغت عنه فلا طاعة لی علیکم، قالوا: بیننا وبینک أمر إن أعطیتناہ فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالوا: رأیتک خالفت أعمال أهل بیتک وسلکت غیر طریقهم وسمیتها مظالم، فإن زعمت إنک على هدى وهم على ضلال فابراً منهم والعنهم، فهو الذى یجمع بیننا وبینک أو یفرق، قال: فتکلم عمر عند ذلك، فقال: إنی قد عرفت أو ظننت أنکم لم تخرجوا لطلب الدنیا، ولكنکم أردتم الآخرة فأخطأتم سبیلها. وأنا سائلکم عن أمر؛ فبالله لتصدقانى عنه فیما بلغکم علمكما. قالوا: نفعل. قال: أرأیتم أبا بکر وعمر ألیسا من أسلافکم ومن

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (٧٩ ، ٨٠)؛ وسيرة عمر لابن الجوزی، ص (٩٩)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٧٠١/٢).

تتولون وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالوا: بلى. فقال: هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله ﷺ فقاتلهم أبا بكر، فسفك الدماء وسبى الذراري وأخذ الأموال؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائريهم؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أبو بكر من عمر أو عمر من أبي بكر؟ قالوا: لا قال: فهل تبرأون من واحد منهما؟ قالوا: لا. قال: أخبراني عن أهل النهروان أليسوا من أسلافكم ومن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالوا: بلى، قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفوا أيديهم فلم يخيفوا أمناً، ولم يسفكوا دمًا، ولم يأخذوا مالاً؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب الراسبي^(١)، واستعرضوا الناس فقتلوه وعرضوا لعبد الله بن خباب^(٢)، صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم أصبحوا حيًا من العرب يقال لهم: بنو قطيعة فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والولدان حتى جعلوا يلقيون الأطفال في قدور الإقط وهي تفور بهم؟ قالوا: قد كان ذلك. قال: فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ أو أهل البصرة من أهل الكوفة؟ قالوا: لا. قال: فهل تبرأون من طائفة منهما. قالوا: لا. قال عمر: أخبراني رأيتم الدين واحدًا أم اثنين؟ قالوا: بل واحد. قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قالوا: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى كل واحد منهما صاحبه وقد اختلفت سيرتهما؟ أم كيف وسع أهل الكوفة أن تولوا أهل البصرة وأهل البصرة أهل الكوفة، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج والأموال، ولا يسعني بزعمكما إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم، فإن كان لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لابد منها فأخبرني عنك أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون، ويقال: بلعن هامان؟ قال: ما أذكر متى لعنته. قال: ويحك فيسعك ترك لعن فرعون، ولا يسعني بزعمك إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحك، إنكم قوم جهال، أردتم أمرًا فأخطأتموه، فأنتم تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ، وتردون عليهم ما قبل منهم، ويأمن عندكم من خاف عنده، ويخاف عندكم من آمن عنده. قال: ما نحن كذلك.

(١) الآثار الواردة (٧٠٣/٢).

(٢) المصدر نفسه (٧٠٣/٢).

قال: بلى تقرون بذلك الآن. هل علمتم أن رسول الله ﷺ يبعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فمن فعل ذلك حقن دمه وأمن عنده، وكان أسوة المسلمين، ومن أبى ذلك جاهده؟ قالوا: بلى. قال: أفلمستم أنتم اليوم تبرأون ممن يخلع الأوثان ومن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه، وتلقون من يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى فتحرمون دمه ويأمن عندهم؟ فقال الحبشى: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذاً من حجتك، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنتى برىء ممن خالفك. وقال للشيبانى: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت وأحسن ما وصفت، ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدري ما حجتهم فيه حتى أرجع إليهم، فلعل عندهم حجة لا أعرفها. قال: فأنت أعلم. قال: فأمر للحبشى بغطائه وأقام عنده خمس عشرة ليلة ثم مات، ولحق الشيبانى بقومه فقتل معهم^(١).

وجاء فى رواية: ودخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا: السلام عليك يا إنسان، فقال: وعليكما السلام يا إنسانان، قالوا: طاعة الله أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضل. قالوا: الأموال لا تكون دولة بين الأغنياء. قال: قد حرموها. قالوا: مال الله يقسم على أهله. قال: الله بين فى كتابه تفصيل ذلك. قالوا: تقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها. قالوا: إقامة الصفوف فى الصلوات. قال: هو من تمام السنة. قالوا: إنما بعثنا إليك. قال: بلغا ولا تهابا. قالوا: ضع الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما. قالوا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبستغوا بها باطلاً. قالوا: ائتمن الأئمة. قال: هم أعوانى. قالوا: احذر الخيانة. قال: السارق محذور. قالوا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به. قالوا: فمن دخل فى الإسلام فقد أمن. قال: لولا الإسلام ما أمنا. قالوا: أهل عهود رسول الله ﷺ قال: لهم عهودهم. قالوا: لا تكلفهم فوق طاقتهم. قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قالوا: ذكرنا بالقرآن. قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. قالوا: تردنا

(١) أنساب الأشراف (٨/ ٢١١ - ٢١٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٠٤).

على دواب البريد. قال: لاهو من مال الله لا نطيه لكما. قال: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذن ابنا سبيل على نفقتكما^(١)، وعن أوطاة بن المنذر قال: سمعت أبا عون يقول: دخل ناس من الحرورية على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقى، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركة رجل يليه من أصحابه فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى فلا تكونيه أبداً^(٢).

وجاء فى رواية: عندما خرج شوذب واسمه بسطام من بنى يشكر على عبد الحميد ابن عبد الرحمن بالعراق فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مخرجه بجوخي^(٣) فى ثمانين فارساً، أكثرهم من ربيعة، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دمًا، أو يفسدوا فى الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً. وأوصه بما أمرتك به، فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي فى ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه. وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان فى كتاب عمر إليه: إنه بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبهه، ولست بأولى بذلك منى. فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرك، فلم يحرك بسطام شيئاً، وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. قال أبو عبيدة: معمر بن المثنى: الرجلان اللذان بعثهما شوذب إلى عمر مخدوج مولى بنى شيبان، والآخر من بنى يشكر - قال: فيقال: أرسل نفرًا فيهما هذان، فأرسل إليهم عمر: أن اختاروا رجلين فاختراهما، فدخل عليهما فناظراه، فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيرى، قال: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه، أترأى كنت أدبت

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٤٧)، الآثار الواردة (٦٧٧/٢).

(٢) سيرة عمرة لابن الجوزى، ص (٨١)، الآثار الواردة (٧٠٥/٢).

(٣) جوخي: بضم والكسر وقد يفتح: نهر بالجانب الشرقى من بغداد.

الأمانة إلى من ائتمن^(١)، وتذكر الروايات تخميناً: أن بنى مروان خافوا أن يخرج عمر ما عندهم وما فى أيديهم من الأموال، وأن يخلع يزيد بن عبد الملك، فдسو عليه من سقاه سماً، فلم يلبث أن مات فى اليوم الذى تقرر أن يعطى فيه جوابه للمتفاوضين^(٢). يتضح من الآثار السابقة أن عمر بن عبد العزيز سلك معهم المسلك الصحيح الذى تبعه سلفنا الصالح كابن عباس وأمير المؤمنين على رضى الله عنهما، ويبدو أن عمر قد طمع فى رجوع هؤلاء الخوارج، ولذلك لم يترك لهم شبهة إلا كسرهما وبين زيفها وكشف عوارها^(٣)، ولم يجادلهم فى الحق الذى معهم ولكنه طلب مهلة إلا أنه مات قبل انتهائها، وعندما استخدم خوارج العراق القوة ضد واليه عبد الحميد، وتمكن الخوارج من دحر جيش الوالى، أسرع عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش من أهل الشام، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغنى ما فعله جيشك، جيش السوء، وقد بعثت مسلمة فخل بينه وبينهم، وتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث عسكر الخوارج، ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار جيش الخلافة^(٤). إن اضطراب عمر إلى استخدام القوة إزاء فئة من الخوارج، لم يدفعه أبداً إلى تطبيق أسلوب الشدة تجاه كل الخوارج، فما دام خصمه مستعداً للحوار، فلا داعى أبداً لإراقة الدماء^(٥).

٣ - السبب المفضى لقتال الخوارج: لم يأمر عمر بن عبد العزيز بقتال الخوارج لما اختلفوا معه فى رأى، ولا عندما عارضوه وسبوه، بل صبر عليهم لعل الله أن يهديهم إلى الصواب، ثم لما وصلوا إلى مرحلة خطيرة وهى أخذ المال وإخافة السبيل وسفك الدماء عند ذلك أمر بقتالهم^(٦).

٤ - رد متاع الخوارج إلى أهلهم: لم يسب عمر بن عبد العزيز نساء الخوارج وذرائعهم، ولم يستحل أموالهم، بل أمر برد متاعهم إلى أهلهم، فقد كتب إلى

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠).

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٤٦٠)، ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٧).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٢/ ٧١١).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨)، ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٤).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (٩٤).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٤٦٩).

عامله في الخوارج: فإن أظفرك الله بهم، وأدالك عليهم فرد ما أصبت من متاعهم إلى أهليهم^(١)، وهذا رأى على بن أبى طالب فيهم فى عدم سبى ذرية ونساء الخوارج، وعدم استحلال أموالهم^(٢).

٥ - حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيراً: فلما قاتلهم، فقتل منهم من قتل، وأسر منهم من أسر، أمر عمر بن عبد العزيز بسجنهم حتى يحدثوا خيراً، من الرجوع إلى الحق والتخلى عن أفكارهم الضالة^(٣)، وقد مات عمر بن عبد العزيز وفى حبسه منهم عدة^(٤).

فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز فى التعامل مع المعارضين من الخوارج.
ثانياً: الشيعة:

تذكر فى الاصطلاح كاسم لكل من فضل علياً رضى الله عنه على الخلفاء الراشدين قبله رضى الله عنهم جميعاً، ورأى أهل بيته أحق بالخلافة^(٥)، وقد تحدثت عن الشيعة بالتفصيل فى كتابى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه. والشيعة فرق عديدة منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام وهم يدعونه ويدعون التشيع، ومنهم دون ذلك ومن أهم فرقهم: الكيسانية، والسبئية والإمامية وغيرها. وكان لعمر بن عبد العزيز أقوال فى الشيعة الغلاة، فقد قال عمر بن عبد العزيز: إنى لأعرف صلاح، بنى هاشم وفسادهم بحب كثير^(٦)، فمن أحبه منهم فهو فاسد، ومن أبغضه فهو صالح، لأنه كان خشياً يؤمن بالرجعة^(٧)، وجاء عمر بن عبد العزيز كتاب من عامله على الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها، فرد عمر: لا تطلب طاعة من خذل علياً رضى الله عنه وكان إماماً مرضياً^(٨)، وعن إسحاق بن طلحة بن أشعث قال: بعثنى عمر بن عبد العزيز إلى العراق فقال: أقرئهم ولا تستقرئهم، وحدثهم ولا تسمع منهم، وعلمهم ولا تتعلم منهم. وكان عمر بن

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٤٧٣).

(١)، (٢) فقه عمر، د. محمد شقير (٢/ ٤٧١).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨، ٣٥٩) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٧٣).

(٥) مقالات الإسلاميين، ص (٦٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٢٧).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ٧٢٨).

(٦) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٨).

(٨) تاريخ دمشق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٩).

عبد العزيز على معرفة بعقيدة كثير الشاعر ، ويؤيدها ما يروى أن كثير عزة له أبيات
يثبت فيها عقيدته الفاسدة في الغلو في أهل البيت مثل قوله :

ألا إن الأئمة من قریش ولأه الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيہ هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء^(١)

قال الذهبي : قال الزبير بن بكار عن كثير : كان شيعياً يقول بتناسخ الأرواح ،
ويقراً ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨] قال : وكان خشياً يؤمن
بالرجعة يعني رجعة على رضى الله عنه إلى الدنيا^(٢) . ولم يهتم عمر بالرد على
ما كان يراه كثير وغيره من الشيعة الغلاة كما اهتم بالرد على القدرية والخوارج ،
وحذر عمر بن عبد العزيز من مخالطة ومجالسة أصحاب البدع والأهواء^(٣) ، ومن
أشهر آراء الشيعة الغلاة :

- القول بوجوب إمامة على رضى الله عنه ، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة
وأن الرسول نص على إمامته .

- القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر .

- القول بالتولى والتبرى قولاً وفعلاً ، أى تولى على رضى الله عنه ، والتبرى من
أصحاب رسول الله ﷺ ، ولاسيما الخلفاء الثلاثة رضى الله عنهم^(٤) ، ومن أراد
الرد على هذه المعتقدات فليراجع كتابى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب
رضى الله عنه .

ثالثاً: القدرية فى عهد عمر بن عبد العزيز:

١- تعريف القدرية فى الاصطلاح: للقدرية إطلاقان ، خاص وعام .

(١) الفرق بين الفرق نقلاً عن الآثار الواردة (٧٣٤/٢) .

(٢) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٧٣٤/٢) ، والخشبية فرقة من الشيعة سموها بذلك لقولهم : إنا لا
نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم ، فقاتلوا بالخشب ، منهاج السنة (٣٦/١) .

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى العقيدة (٧٣٣/٢ ، ٧٣٤) .

(٤) وسطية أهل الشيعة بين الفرق ، ص (٢٩٣ ، ٢٩٤) .

أ- فالقدرية بالمعنى الخاص: هم المنكرون للقدر: أى المكذبون بتقدير الله تعالى لأفعال العباد أو بعضها أى: الذين قالوا: لا قدر (من الله) والأمر أنف أى مستأنف ليس لله فيه تقدير سابق، كما سيأتى بيانه بإذن الله.

ب- القدرية بالمعنى العام: هم الخائفون فى علم الله تعالى وكتابته ومشئته وتقديره وخلقهم بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص وفهم السلف^(١).

٢- نشأة القول بالقدر فى الإسلام:

عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أخاف على أمتى: الاستسقاء بالأنوار، وحيف السلطان، وتكذيب القدر»^(٢)، كما حذر النبى ﷺ من المراء والجدل فى الدين عمومًا وفى القدر على جهة الخصوص، وعن ضرب آيات الله والأحاديث الصحيحة بعضها ببعض، وعن إثارة الشبهات والمعارضات فى نصوص القدر، من ذلك ما رواه أحمد فى المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ذات يوم والناس يتكلمون فى القدر قال: فكأنما تفقأ فى وجهه حبّ الرمان من الغضب قال: فقال لهم: «مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»^(٣).

تتابع الفرق ومقالاتها فى القرن الأول إلى ظهور القدرية:

بعد ظهور الفرق الأولى من الخوارج والشيعة سنة (٣٧-٤٠هـ) بقى الحال على هذا إلى ما بعد سنة (٦٢هـ)، حيث بزغ نجم القدرية النصرانية والمجوسية حتى جاء بها بعد معبد الجهنى ثم توالى المقولات على منوالها تترى، أو كما قال ابن تيمية: فالبدع تكون فى أولها شبراً ثم تكثر فى الأتباع حتى تصير أذراعاً وأميالاً وفراسخ^(٤).

أ- ظهور القدرية الأولى: وتتمثل فى مقولات معبد الجهنى (ت: ٨٠هـ) وأتباعه، ثم غيلان الدمشقى وأتباعه (١٠٥هـ) وتتلخص بأن الله تعالى (بزعمهم) لم يقدّر أفعال العباد ولم يكتبها، وأن الأمر أنف (أى مستأنف) لم يكن فى علم الله

(١) القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل، ص (١٩).

(٢) مسند أحمد (٩٠/٥) صححه الألبانى فى سلسلة الصحيحة رقم (١١٢٧).

(٣) مسند أحمد (١٧٨/٢، ١٩٦) قال صاحب الزوائد: هذا إسناد رجاله ثقات.

(٤) الفتاوى (٤٢٥/٨).

ولا تقديره السابق، وكانت بدايات كلامهم فى هذا بعد سنة ٦٣هـ وهو تاريخ نشأة القدرية الأولى، إذن فالقدرية الأولى هم: الذين أنكروا علم الله السابق، وزعموا أنه تعالى لم يقدر أفعال العباد سلفاً ولم يعلمها ولم يكتبها فى اللوح المحفوظ، وأن الأمر أنف (أى مستأنف) ليس بتقدير سابق من الله تعالى، مما استقل العباد بفعلها، وهذه مقولة غالية فى القدر حيث تنكر العلم والكتابة وتقدير عموم أفعال المكلفين؛ خيرها وشرها فيما يظهر، هذا أول أمرهم، فلما أنكروا الأئمة هذا القول صار جمهور القدرية يقرون بالعلم المتقدم والكتاب السابق، لكن ينكرون عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه لأفعال العباد، فأنكروا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد أو بعضها، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر، هذا ما استقرت عليه القدرية الثانية وعلى رأسهم المعتزلة^(١).

وكانت مقالات القدرية الأولى تتخلص فى قولين.

- إن الأمر أنف «أى مستأنف» ويعنون بذلك أفعال المكلفين^(٢)، فيزعمون أن الله تعالى لم يقدرها ولم يعلمها إلا أثناء حدوثها من المكلف ويفسره الثانى.
- قولهم: إن الله تعالى لم يقدر الكتابة (أى فى اللوح المحفوظ) ولا الأعمال^(٣) فى السابق.

ب- رؤوس القدرية الأولى:

- معبد الجهنى (ت: ٨٠هـ): ساق ابن حجر فى تهذيب التهذيب أقوال بعض أهل الجرح والتعديل فيه فقال: وقال أبو حاتم: كان صدوقاً فى الحديث، وكان أول من تكلم فى القدر بالبصرة، وكان رأساً فى القدر، قدم المدينة فأفسد بها ناساً^(٤).

وقال الدارقطنى: حديثه صالح ومذهبه ردى^(٥)، وقال محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعى: أول من نطق فى القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن، وكان نصرانياً، فأسلم ثم تنصر، فأخذ عنه معبد الجهنى، وأخذ غيلان

(٢) الفتاوى (٣٨٥/٧).

(١) القدرية والمرجئة، ناصر العقل، ص (٢٥).

(٤) تهذيب التهذيب (٢٢٥/١٠).

(٣) المصدر السابق نقلاً عن القدرية والمرجئة، ص (٣٠).

(٥) تهذيب التهذيب (٢٢٥/١٠)، سير أعلام النبلاء (١٨٦/٤).

عن معبد^(١). وكان مسلم بن يسار يقعد على هذه السارية فقال: إن معبدًا يقول بقول النصرارى

- غيلان الدمشقى المقتول (١٠٥هـ): وهو الرجل الثانى بعد معبد الجهنى من رؤوس بدعة القدرية، وقد ظهرت مقولته بالشام وافتن بها خلق^(٢)، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد، بل تكلم فى الصفات فنفى بعض الصفات، كالاستواء^(٣)، ونسب إليه كذلك: القول بأن الإيمان هو المعرفة، وأن الأعمال لا تدخل فى مسمى الإيمان، والقول بخلق القرآن^(٤)، وهى أصول الجعد بن درهم بعده، ثم أصول الجهمية والمعتزلة، حيث وضعوا بها القواعد والأصول وناظروا فيها وتوسعوا فى هذه البدع^(٥)، ويقال: إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء هو غيلان الدمشقى (قتل ١٠٥هـ) أو الجعد بن درهم (قتل ١٢٤هـ)، وقيل: الجهم بن صفوان (قتل ١٢٨هـ). وإنكار الاستواء ينسجم مع قاعدة الجعد الخبيثة فى التعطيل التى أنكر بها الكلام والخلة، والأرجح أن أول من حفظ عنه أنه قال بأن الله - تعالى - ليس على العرش حقيقة: الجعد، ثم أخذها عنه الجهم وأظهرها^(٦)، وإنكار الاستواء وتأويله هو الشرارة الأولى لأهل الأهواء، والتى فيها خاضوا فى صفات الله - تعالى - نفياً وتعطيلاً وتأويلاً، ذلك أن الاستواء مرتبط بالعلو والفوقية، فالرؤية، ثم صفات الله الفعلية، ومنها تجرؤوا على بقية الصفات الخبرية كاليد والعين والوجه وهلم جرا^(٧).

٣- موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقى:

عن عمرو بن مهاجر قال: بلغ عمر بن عبد العزيز أن غيلان بن مسلم يقول فى القدر، فبعث إليه فحجبه أياماً، ثم أدخله عليه فقال: غيلان، ما هذا الذى بلغنى

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٦).

(٢) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٥١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٥٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٥١).

(٦) الفتاوى (٥/ ٢٠)، دراسات فى الأهواء والفرق، ص (٢٥١).

(٧) دراسات فى الأهواء والفرق والبدع، ص (٢٥١).

عنك؟ قال عمرو بن مهاجر: فأشرت إليه أن لا يقول شيئاً، قال: فقال: نعم يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴿[الإنسان: ١ - ٣]. قال: اقرأ آخر السورة﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً (٣٠) يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿[الإنسان: ٣٠، ٣١] ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصرتنى، وأصم فأسمعتنى، وضالاً فهديتنى^(١). وفى رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان فقال: يا غيلان، بلغنى أنك تتكلم فى القدر، فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون على؟ فقال: يا غيلان اقرأ أول «يس» فقرأ ﴿يَسْ﴾ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿حتى قول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١ - ١٠]. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأنى لم أقرأها قط قبل اليوم، أشهدك يا أمير المؤمنين أنى تائب مما كنت أقول، فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فثبته وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين^(٢). وجاءت روايات كثيرة فى محاوره عمر بن عبد العزيز لغيلان الثقفى، وكان له حديث طويل فى معتقد أهل السنة فى مسألة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية وسألهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا، فقال لغيلان الدمشقى: ما تقول فى العلم. قال: قد نفذ العلم. قال: فأنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، ويحك يا غيلان إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر^(٣).

ولعل عمر بن عبد العزيز أول من نهج هذا النهج فى سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجاً لأهل السنة بعده، وقد استدلل رحمه الله فى ردوده على غيلان بآيات صريحة فى الرد على المكذبين بالقدر - كما جاء فى بعض الروايات -

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٥٠).

(٢) الإبانة (٢/ ٢٣٥)، الآثار الواردة (٢/ ٧٤٩).

(٣) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢/ ٤٢٩).

وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٢]. قال ابن حجر رحمه الله في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان، ما أنتم عليه بفاتنين، أى بمضلين أحداً إلا من سبق فى علمى أنه صال الجحيم^(١). وقد بين عمر فى خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادى وهو المضل، وهذا ما جاء فى الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعِلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] وغيرها من الآيات، وقد كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادى وهو الفاتن. وإنما العبد هو الذى يهدى نفسه إذا شاء، ويضلها إذا شاء فلعل رسائل عمر وخطبه فى الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم، تبقى ردوداً قوية على كل من انحرف فى باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بين عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، مقدرة له، مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقال ﷺ: «كل شىء بقدر حتى العجز والكيس»^(٢). وقد بين عمر بن عبد العزيز - كما جاء فى خطبه - أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى ولا يحتج على الله بالقدر ولا يقول: أى ذنب لى وقد قدر على هذا الذنب، بل يعلم أنه هو المذنب العاصى الفاعل للذنب، وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشئته، إذ لا يكون شىء إلا بمشيئته وقدرته وخلقته، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة مستقلة يستطيع بها رد علم الله فيبين أن العبد له قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى^(٣).

٤ - بيان مراتب القدر:

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر، كما تدل على الإيمان بمراتب القدر الأربع التى اتفق السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- ومن سار على نهجهم على أنه لا يتم الإيمان بالقدر، إلا بالإيمان بها كلها. وهى: العلم، والكتابة والمشيئة والخلق، وكان القدرية

(٢) مسلم رقم (٢٦٥٥).

(١) تفسير الطبرى (١٠٩/٢٣).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٧٦٩/٢)، (٧٧٠).

الموجودون في زمن عمر بن عبد العزيز ينكرون العلم والكتابة، وهؤلاء هم الذين تبرأ منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب بقوله: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برىء منهم، وأنهم برآء منى^(١).

ومن كلام عمر بن عبد العزيز في بيان مراتب القدر رده على الرجل الذي كتب إليه فجاء في رسالته: .. كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر فعلى الخبير -ياذن الله- وقعت، وما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هي أبين أثراً ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم يعززون به أنفسهم على ما فاتهم، ثم لم يزد الإسلام بعد إلا شدة، ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين، وقد سمعه منه المسلمون فتكلموا به في حياته، وبعد وفاته يقيناً وتسليماً لربهم، وتضعيفاً لأنفسهم أن يكون شيء لم يحط به علمه، ولم يحصه كتابه ولم يمحض فيه قدره، وأنه مع ذلك لفي محكم كتابه، منه اقتبسوه ومنه تعلموه، ولئن قلت: لم أنزل الله آية كذا ولم قال كذا، لقد قرأوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كله بكتاب وقدر وكتب الشقاوة وما يقدر يكن وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا نملك لأنفسنا ضرراً ولا نفعاً، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا^(٢).

ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز يتضح معتقد عمر بن عبد العزيز في القدر وفي بيانه لمراتبه، فأول مراتبه:

أ- العلم: والمقصود أن الله تبارك وتعالى قد علم ما العباد عاملون، وإلى ما هم صائرون قبل أن يخلقهم بعلمه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته، وأنه يعلم أهل الجنة وأهل النار، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن السنة قوله ﷺ لرجل سأله بقوله: يا رسول الله، أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: فقال: «نعم». قال: فيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «كل مُيسر لما خلق له»^(٣).

(١) مسلم، ك الإيمان، باب القدر (١/٣٦، ٣٧).

(٢) الإبانة لابن بطة (٢/٢٣١-٢٣٣)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٥١٠).

(٣) مسلم رقم (٢٦٤٩).

ب - مرتبة الكتابة: خطب عمر بن عبد العزيز فقال: أيها الناس من عمل منكم خيراً فليحمد الله تعالى، ومن أ.ء. فليستغفر الله، ثم إن عاد فليستغفر الله فإنه لا بد لأقوام أن يعملوا أعمالاً وضعها الله في رقابهم وكتبها عليهم^(١). وخطب يوماً فقال: إن الدنيا ليست بدار قرار، دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها منها الطعن^(٢). فهذا هو المأثور عن عمر من كتابة الله مقادير الخلائق قبل خلقهم وإحصائه كل ذلك وعلمه جزئيات كل شيء^(٢). قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(٣).

ج - المشيئة: والمقصود بها: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السماوات والأرض إلا بمشيئته سبحانه وتعالى، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد، وقد حرص عمر بن عبد العزيز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها، ففي رسالته إلى عامله يقول: وما يقدر يكن، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وكان يقول: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس^(٤)، وناظر غيلان الدمشقي وأفحمه حين بين له خطئه في الاحتجاج بأوائل الآيات من سورة الإنسان، فطلب منه أن يقرأ آخر السورة وقال له: ويحك أما تسمع الله يقول: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] وقال رسول الله ﷺ: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء. ثم قال: يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^(٥).

د - الخلق: المقصود بها: أن الله تعالى هو خالق الخلق وخالق كل شيء، فهو الذى خلق الكون وأوجده، فهو الخالق وما سواه مربوب مخلوق^(٦)، ولعمر بن

(١) الآثار الواردة (٥١٩/١) نقلا عن الشريعة الآجری.

(٢) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٢٤٤).

(٣) مسلم رقم (٢٦٥٣).

(٤) الآثار الواردة (٥٢٤/١).

(٥) مسلم رقم (٢٦٥٤).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٥٢٥/١).

عبد العزيز فى تقرير هذه المرتبة أبلغ البيان، فقد كتب فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩]. قال: الذين لا يختلفون خلقهم لله للرحمة^(١). فهذه الآية تضمن خلق العباد وأعمالهم^(٢)، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ... ﴿[هود: ١١٨، ١١٩]. وكتب إلى عدى بن أرطاة: أما بعد: فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان من الخطايا التى قدر الله عليك وقدر أن تبلى بها^(٣).

وهذا الذى قرره عمر بن عبد العزيز دلّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وقال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»^(٤).

٥ - الفرق بين القضاء والقدر فى الاصطلاح:

قيل المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. أى خلقهن فى القضاء والقدر أمرين متلازمين، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه^(٥). وقيل: إن القضاء هو العلم السابق الذى حكم الله به فى الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضى السابق^(٦)، وقال ابن حجر: وقالوا - أى العلماء -: القضاء هو الحكم الكلى الإجمالى فى الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفصيله^(٧). وقيل: إذا اجتماعا افترقا، بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر فى القولين السابقين، وإذا افترقا اجتماعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر^(٨)، قياساً على ما جاء فى التفريق بين الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين ونحو ذلك. ولعل هذا التعريف توفيق بين من يرى التفرقة بين القضاء والقدر، وبين من

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٤).

(٢) (٣) مصنف عبد الرزاق (١١/١٢٢).

(٥) النهاية لابن الأثير (٤/٧٨).

(٧) فتح البارى (١١/٤٨٦).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٤٩٤).

(٨) القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد، ص (٢٩)، الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/٤٩٤).

لا يرى ذلك. والذي يظهر أنه ليس هناك فرق واضح بين القضاء والقدر^(١)، ولا فائدة من هذا الخلاف، لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر، وعند ذكرهما معاً فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل على الآخر^(٢).

٦ - الرضا بالقضاء والقدر:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أصبح لى اليوم فى الأمور هوى إلا فى مواقع قضاء الله فيها^(٣)، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر يقول: ما برح بى هذا الدعاء حتى لقد أصبحت ومالى فى شىء من الأمور هوى إلا فى موضع القضاء^(٤). وقال حين دفن ابنه عبد الملك: رضىنا بقضاء الله وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين^(٥). ولما عزى فى ابنه عبد الملك قال: وأنا أعوذ بالله أن يكون لى محبة فى شىء من الأمور تخالف محبة الله، فإن ذلك لا يصلح لى فى بلائه عندى وإحسانه لى^(٦).

تحت الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز فى هذا المبحث على الرضا بالقضاء، والمقصود بالقضاء الذى قدره الله على عبده من المصائب التى ليست ذنباً، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع. لكن هل هو واجب أم مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهما، أصحهما أنه مستحب ليس بواجب^(٧). ولا شك أن الرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر وهو دليل على الثقة بما عند الله تعالى، فلا يندم على ما فات، ولا يفرح بما هو آت مما قدره الله تعالى له، فهو يرضى به على وفق قضاء الله له^(٨).

رابعاً: المرجئة:

نسبة إلى الإرجاء، وهو تأخير العمل عن الإيمان^(٩).

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٤٩٤/١).

(٢) القضاء والقدر، عبد الرحمن المحمود، ص (٤٤).

(٣) الطبقات (٣٧٢/٥)، الآثار الواردة (٥٣٥/١). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧).

(٥) الآثار الواردة (٥٣٦/١). (٦) الحلية (٣٥٨، ٣٥٧/٥)، الآثار الواردة (٥٣٧/١).

(٧) مجموع الفتاوى (١٩١/٨). (٨) الآثار الواردة (٥٣٨/١).

(٩) الفرق بين الفرق للبغدادى، ص (٢٠٢)، وسطية أهل السنة، ص (٢٩٤).

والإرجاء على معنيين:

أحدهما: بمعنى التأخير فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء: ٣٦] أى: أمهله وأخره. والثانى: إعطاء الرجاء^(١).

والمرجئة فى الاصطلاح: فقد عرفهم الإمام أحمد بقوله: هم الذين يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان، وأن الناس لا يتفاضلون فى الإيمان، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن الإيمان ليس فيه استثناء، وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً^(٢).

والمرجئة الخالصة: هم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ومن هؤلاء جهم وأصحابه^(٣)، وأول من تكلم فى الإرجاء -الذى هو تأخير الأعمال عن الإيمان- غيلان الدمشقى، كما يقول الشهرستانى^(٤) وأما الإرجاء المنسوب إلى أبى محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية فليس هو الإرجاء فى الإيمان، وإنما هو إرجاء أمر المقاتلين من الصحابة إلى الله عز وجل^(٥)، وقال ابن سعد فى ترجمته: وهو أول من تكلم فى الإرجاء ويذكر كذلك أن زاذان وميسرة دخلا عليه فلما هاه على الكتاب الذى وضع فى الإرجاء فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أنى كنت مت ولم أكتبه^(٦)، فهذا الكتاب إنما فيه إرجاء أمر المشتركين فى الفتنة التى حدثت بعد خلافة أبى بكر وعمر إلى الله عز وجل^(٧)، وقد ذكر ابن حجر: أنه اطلع على هذا الكتاب الذى ألفه الحسن بن محمد وقال: المراد بالإرجاء الذى تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء -الذى عييه أهل السنة- المتعلق بالإيمان^(٨)، وأهم أقوالهم التى خالفوا فيها أهل السنة:

- قولهم بتأخير الأعمال عن مسمى الإيمان.

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١/١٣٩). (٢) موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع (١/١٥٢).

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٤). (٤) الملل والنحل (١/١٣٩).

(٥) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٥).

(٦) الطبقات (٥/٣٢٨)، قضية الثواب والعقاب، د. السميرى، ص (٣٠).

(٧) قضية الثواب والعقاب للسميرى، ص (٣٠).

(٨) تهذيب التهذيب (٢/٣٢٠)، قضية الثواب والعقاب، ص (٣٠).

- وقول الخالصة منهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة^(١).

وقد جاءت عن عمر بن عبد العزيز آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه. وهذه الآثار رد على المرجئة ولاسيما، أن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار في معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه - رحمه الله تعالى - التحذير من البدع كلها ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء^(٢)، وها هي الآثار الواردة عنه في هذا المبحث، فقد مر معنا قوله: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص^(٣). وقال: لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى^(٤). وقال: فلو كانت كل بدعة يميته الله على يدى وكل سنة ينعشها الله على يدى ببضعة من لحمى حتى يأتى آخر ذلك على نفسى، كان فى الله يسيراً^(٥).

يتبين مما سبق أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى كان حريصاً على رد البدع كلها. حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحى بأعضائه كلها، وقد بين فى تلك الآثار القول الصحيح فى الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها، وأولى عناية خاصة بشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففى هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح فى الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه فى مسألة الإيمان^(٦). وأما ما رواه ابن سعد فى الطبقات أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة جاءه راحلاً إليه عون بن عبد الله وموسى بن أبى كثير وعمر بن حمزة، وفى بعض المراجع عمر بن ذر فكلّموه فى الإرجاء وناظروه، فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم فى شىء منه^(٧)، فهذا لا يثبت عنه لما يلى:

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق، ص (٢٩٥).

(٢) الآثار الواردة (٨١٣/٢).

(٣) سيرة عمر لابن الحكم، ص (٤٠)، الآثار الواردة (٨١٣/٢).

(٤) الآثار الواردة (٨١٤/٢).

(٥) الطبقات (٣٣٩/٦)، سير أعلام النبلاء (١٠٤/٥).

(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٨١٤/٢).

- لأن ابن سعد رواه بدون سند، فهو إذاً منقطع.

- ولأنه جاء فيه بصيغة التمريض (زعموا).

- وأيضاً إن مثل هذا الزعم والادعاء لا يعول عليه، لأن رواته متهمون بالإرجاء^(١).

هذا وعلى فرض تسليم تلك الرواية فإن عون بن عبد الله قد تاب عن الإرجاء. وقد روى ذلك اللالكائي بسنده عن نوفل الهذلي عن أبيه قال: كان عون ابن عبد الله بن مسعود من آدب أهل المدينة وأفقههم وكان مرجئاً ثم رجع فأنشد يقول:

لأول ما نفارق غير شك نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال وقد حرمت دماء المؤمنين^(٢)

فثبت أن عون بن عبد الله - رحمه الله - قد رجع عن القول بالإرجاء، ولعل قوله بالإرجاء كان قبل اتصاله بعمر - رحمه الله تعالى - اتصالاً وثيقاً وكونه من المقربين عنده^(٣).

خامساً: الجهمية:

تتنسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان ومولى لبني راسب، تتلمذ على الجعد بن درهم، وكان كاتباً للحارث بن سريح^(٤)، الذي أثار الفتن ضد الدولة الأموية في خراسان، وكان جهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته^(٥)، ويحرص الناس على الخروج معه. وفي سنة ١٢٨هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان - نصر بن سيار - وجيش الحارث بن سريح، وكان جهم بن صفوان في

(١) الآثار الواردة (٢/ ٨١٥). (٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٧٧).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/ ٨١٦).

(٤) حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥).

(٥) الكامل في التاريخ نقلاً عن حقيقة البدعة (١/ ١١٥).

جيش الحارث، فطعنه رجل فى فمه فقتله، وقيل: بل أسر وأوقف بين يدى سلم ابن أحوز^(١) فأمر بقتله^(٢)، وأهم أصول الجهمية:

١- تبنى الجهم آراء الجعد بن درهم، والتى هى نفى صفات الله عز وجل، والقول بخلق القرآن ثم زاد عليها بدعاً أخرى.

٢- القول بالجبر، حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شىء، ولا يوصف بالاستطاعة وإنما هو مجبر على أفعاله.

٣- القول بأن الإيمان هو المعرفة، حيث زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

٤- القول بفناء الجنة والنار، حيث زعم أنهما تفتيان بعد دخول أهلها فيهما، إذ لا يتصور على حسب زعمه حركات لا تنهاى.

٥- القول بأن علم الله حادث، حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشىء قبل خلقه^(٣). فنفى الصفات أخذها الجهم من الجعد ومن الفلاسفة، والسمنية^(٤)، وذلك أن الجهم كان فصيح اللسان، ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم، فكلم السمنية فقالوا له: صف لنا ربك عز وجل الذى تعبد، فدخل البيت ولم يخرج، ثم خرج إليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء مع كل شىء، وفى كل شىء، ولا يخلو منه شىء. وروى الإمام أحمد يرحمه الله مناظرة وقعت بين الجهم والسمنية فى إثبات الله عز وجل انتهى فيها الجهم إلى أن شبه الله فيها بالروح التى لا ترى ولا تحس ولا تسمع^(٥). ويقول ابن تيمية: إن الجعد بن درهم قيل إنه من أهل حران وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة... ومذهب النفاة من هؤلاء فى الرب: إنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها... فيكون الجعد قد أخذها من الصابئة والفلاسفة^(٦)، وكان الجهم قد أخذ

(١) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة وأحكامها (١١٥/١).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة (١١٦/١).

(٣) تناقض أهل الأهواء والبدع فى العقيدة (١٣١/١).

(٤) السمنية: قوم من الزنادقة الهنود، لهم فلسفة خاصة ومدرسة فكرية ضالة. ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى (٣٩٢/٢).

(٥) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد، ص (٤٤، ٤٥).

(٦) الفتاوى (٢١/٥، ٢٢)، تناقض أهل الأهواء والبدع (١٣١/١).

بمعتقدات الجعد^(١). وأما القول بالجبر فقد قاله المشركون من العرب قبله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]. فيخبر الله تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك محتجين بالقدر، فمضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنتنا منه^(٢)، وأما القول بأن الإيمان هو المعرفة فقد قالت بهذا القول المرجئة قبله، وأما القول بفناء الجنة والنار فمصدره الإسماعيلية^(٣) والباطنية وأهل الكلام واليهود، يقول ابن أبي العز -يرحمه الله- عن الجهم بن صفوان: وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة... وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث، وهو عمدة أهل الكلام المذموم^(٤).

وأهل الكلام المذموم عامتهم لا يرون قطيعة شيء من دلالة الكتاب والسنة، دلالتها كلها عندهم ظنية، فالتكلمون قد أخذوا علومهم ومصطلحاتهم من الفلاسفة والمناطق^(٥)، الذين يرجعون في أصولهم إلى المجوس والنصارى واليهود. وأما القول بأن علم الله حادث فقد اقتبسوه الجهم من معبد، ومعبد أخذه من سوسن النصراني، فدل ذلك على مدى تأثر كبار الفرق وأخذه من الأمم الهالكة، فما بالك بمن جاء بعدهم^(٦). وما جاء من الآثار عن عمر بن عبد العزيز تعتبر ردوداً عامة على الجهمية، وقد أوردها علماء السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد والدارمي، وغيرهما من علماء السلف. فعن جعفر بن برقان، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الإعرابي، والغلام في الكتاب فاتبعه والله عما سوى ذلك^(٧). وقال: سن رسول

(١) تناقض أهل الأهواء والبدع (١٣١/١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٦٢٦).

(٣) الإسماعيلية: منسوبون إلى محمد بن إسماعيل وهو ابن جعفر الصادق، يقولون: بالتفسير الباطني، وإن الله عز وجل اختص بالعلم على بن أبي طالب: ويقولون: بكفر من خالف علياً. الفرق بين الفرق، ص (٤٢)، تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة (١٣٢/١).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، ص (٤٢٠). (٥) تناقض أهل الأهواء والبدع (١٣٣/١).

(٦) المصدر نفسه (١٣٣/١).

(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/٨١٩).

الله ﷻ وولاية الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً^(١). قال عبد الله بن عبد الحكم: سمعت مالكا يقول: وأعجبني عزم عمر في ذلك^(٢). وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل^(٣).

وهذه الآثار عن عمر بن عبد العزيز أوردها علماء السلف في ردهم على الجهمية، ولا شك أنها تعتبر رداً على جميع المبتدعة، وذلك في أمره رحمه الله بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال ونعوت الجلال، كإثبات الفوقية والعلو، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهي عن الخصومات في الدين بغير علم، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به، فضل وأضل.

وكان السلف الصالح يستدلون بما أثر عن عمر بن عبد العزيز في الأخذ بسنن رسول الله ﷺ، وسنن الخلفاء الراشدين من بعده في ردهم على الجهمية مثلما فعله ابن تيمية في الفتوى الحموية حيث ذكر أن أبا القاسم الأرجي روى بإسناده عن طرف بن عبد الله، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز، ويذكر الأثر: سن رسول الله وولاية الأمر من بعده.. وقال الشاطبي متحدثاً عن هذا الأثر: إنه كلام مختصر جمع أصولاً حسنة من السنة، منها قطع مادة الابتداع جملة. ومنها المدح لمتبع السنة وذم لمن خالفها، ومنها أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله. فقد جمع كلام عمر أصولاً حسنة وفوائد مهمة^(٤)، وقد أورد الإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية» أثر عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل^(٥)، وقد أخذت المعتزلة من الجهمية نفى صفات الله

(١) الآثار الواردة (٢/ ٨٢٠).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٢٥).

(٤) الاعتصام نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٢٢).

(٥) الرد على الجهمية للإمام أحمد، ص (٦٩).

والقول بخلق القرآن، وهذا الاتفاق بين الجهمية والمعتزلة على نفى صفات الله والقول بخلق القرآن جعل كثيراً من محققى علماء المسلمين يسمون المعتزلة جهمية، ولهذا لا بد من الحذر عند إطلاق أسماء الفرق بعضها على بعض، لأنه لا يكاد توجد فرقة إلا وتشترك مع أخرى فى جانب من الاعتقاد، فلو تجاوزنا فى إطلاق اسم هذه الفرقة على من شاركها لحصل الالتباس وما استقام المنهج أبداً، إذن لا بد من إطلاق اسم الفرقة على المسمى الصحيح بحيث لا يستعار لغيرها البتة، وهذا من الناحية العلمية أدق وأسلم^(١).

سادساً: المعتزلة:

اسم يطلق على تلك الفرقة التى ظهرت فى الإسلام فى أوائل القرن الثانى على يد واصل بن عطاء^(٢)، وسلكت منهجاً عقلياً صرفاً فى بحث العقائد، وقررت أن المعارف كلها عقلية حصولاً، ووجوباً، قبل الشرع وبعده، وهم أرباب الكلام، وأصحاب الجدل^(٣).

١ - نشأة المعتزلة وسبب التسمية: دخل رجل على الحسن البصرى فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون مصير أصحاب الكبائر لأمر الله تعالى، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان، وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً؟ ففكر الحسن فى ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو فى منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم قام لفوره، واعتزل حلقة شيخه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمى هو وأصحابه معتزلة^(٤)، وهذا القول يكاد يجمع عليه مؤرخو الفرق^(٥).

(١) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين، ص (٣٤).

(٢) أبو حذيفة واصل بن عطاء البصرى، الغزال المتكلم، كان من أجلاد المعتزلة، سمع الحسن البصرى، له من التصانيف كتاب: أصناف المرجئة، وكتاب: معانى القرآن، وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة ت: ١٣١هـ.

(٣) التنبيه والرد للملطى، ص (٥٠)، تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، عبد اللطيف الحفطى.

(٤) الفرق بين الفرق، ص (١١٨). (٥) آراء المعتزلة الأصولية، د. على الضويحي، ص (٧١).

ولا علاقة بتسمية المعتزلة بالصحاب الكرام لا من قريب ولا بعيد، فالصحاب الذين اعتزلوا الفتنة بين على ومعاوية، وفي الجمل رضى الله عنهم، لم يسموا معتزلة بالمعنى الاصطلاحي الذى يفهم من مدلول هذه الكلمة، وإنما بالمعنى اللغوى، يؤيد ذلك أن المعتزلة الذين نحن بصدد الحديث عنهم إنما سموا بذلك لاعتزالهم مذهب أهل السنة والجماعة، وأصحاب رسول الله ﷺ هم أئمة أهل السنة والجماعة، فكيف يُجعلون سلفاً للمعتزلة الذين اقتفوا أثر العقل دون الشرع؟ وبذلك يعلم خطأ من جعل أصحاب رسول الله سلفاً لهؤلاء المعتزلة، فإن المعتزلة جعلوا الاعتزال ديناً لهم يتعبدون الله تعالى على أساس تعاليمه، وأما أولئك الصحابة فاعتزلوا الفتنة طلياً للسلامة من الإثم وصوتاً للسمعاء^(١). وقد تميز المعتزلة عن أهل السنة والجماعة بلمسة منهجية فكرية خاصة، الهيمنة فيها للعقل وحده بلا منازع، وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية، التى فيها محض الهدى والعصمة من الانحراف والضلال^(٢).

٢- فرق المعتزلة: لما كانت القاعدة الرئيسية التى اعتمد عليها المعتزلة هى العقل، به يثبتون وبه ينقون، وبسبب انغماس المعتزلة فى الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والخصومة دب الخلاف بين رجال هذه الفرقة، وتشعبت آراؤهم، وتفرقوا إلى اثنتين وعشرين فرقة منها: الواصلية والعمروية والهذلية والنظامية... الخ. ولكل فرقة من هذه الفرقة بدع خاصة بها، وكلهم يجتمعون على الأصول الخمسة فى الجملة، لكنهم يختلفون فى جزئيات داخل هذه الأصول، ولا عجب فى ذلك ما دام العقل هو المحكم عندهم، ولكل اهتماماته المختلفة عن الآخر^(٣).

٣- دور المعتزلة فى إحياء عقائد الفرق التى سبقتها: أخذت المعتزلة عن ثلاث فرق سابقة عليها، وأحييت بدورها تلك العقائد، ولكن بشكل آخر، فأخذت عن الخوارج، وعن القدورية الغلاة، وعن الجهمية^(٤).

✽ ما أخذته من الخوارج:

أ- حكم مرتكب الكبيرة فى الآخرة: يقول البغدادى: ثم إن واصلاً وعمرًا، وافقا الخوارج فى تأييد عقاب صاحب الكبيرة فى النار مع قولهما بأنه موحد، وليس

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٦).

(٤) المصدر نفسه، ص (١٩).

(١) آراء المعتزلة الأصولية، ص (٧٢).

(٣) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (١٨).

بمشرك ولا كافر^(١). من هذا النص يظهر لنا أن المعتزلة أحييت عقيدة الخوارج في صاحب الكبيرة في الآخرة، ولكن لم تحكم عليه بالكفر في الدنيا^(٢).

ب- الخروج على أئمة الجور: إن مما أجمعت عليه الخوارج: وجوب الخروج على الإمام الجائر بالقوة والسلاح لإزالة الظلم والبغى، وإقامة العدل والحق كما يقولون^(٣)، وصرفوا نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم وقتال المخالفين^(٤). وقد أخذت المعتزلة هذا المبدأ عن الخوارج وأحيوه نظرياً تحت أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول أبو الحسن الأشعري: أجمعت المعتزلة إلا الأئمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان، واليد، والسيف، كيف قدروا على ذلك^(٥). وقال في موطن آخر: وأوجبوا الخروج على السلطان مع الإمكان والقدرة^(٦).

ج - قضية التأويل^(٧): الخوارج هم أول من فتح باب التأويل الباطل في تاريخ الأمة، فأعملوا التأويل في نصوص الحكم بغير ما أنزل الله، ونصوص الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم جاءت الفرق بعدها فورثت هذا المنهج وطبقته في الاستدلال على بدعها التي أحدثتها، ومن تلك الفرق: المعتزلة التي أعملت التأويل في نصوص الصفات لتقرر التعطيل، بينما لم يكن استعماله في نصوص الصفات عند الخوارج^(٨). وقال ابن تيمية: ولم يعرف فيهم - الخوارج - الكلام وتأويل الصفات إلا بعد ظهور المعتزلة^(٩). واستخدم المعتزلة التأويل في نصوص القدر، ولم يكن هذا عند الخوارج أيضاً وهكذا.

فالخلاصة: أن المعتزلة ورثت منهج التأويل من الخوارج، وعضت عليه بالنواجذ، وأصبح عندهما قاعدة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة.

(١) الفرق بين الفرق، ص (١١٩)، تأثير المعتزلة، ص (٢٠).

(٢) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص (٢٠).

(٣) مقالات الإسلاميين (١/٢٠٤)، الملل والنحل (١/١١٥).

(٤) الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ناصر العقل، ص (٣٧).

(٥) مقالات الإسلاميين (١/٣٣٧)، تأثير المعتزلة، ص (٢١).

(٦) مقالات الإسلاميين (٢/١٥٧)، تأثير المعتزلة، ص (٢١).

(٧) التأويل البدعي: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجاز، وما يخالف ظاهره من غير قرينة.

(٨) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة، ص (٢٢). (٩) المصدر نفسه، ص (٢٢).

* ما أخذته عن القدرية: أخذ المعتزلة القول بنفى القدر وأحيته، ولكن ليس بشكله الغالى الذى يتضمن نفى علم الله تعالى، وهو الذى كان عليه القدرية الأوائل، فإن هذا القول قد تلاشى وسقط لسببين:

- قلة عدد القائلين بالقدر على هذا النحو.

- وقوف الصحابة الذين أدركوا هذه المقالة وعلماء التابعين ضد هذه المقولة بحزم، تارة بالبراءة من أهلها، كما فعل ابن عمر رضى الله عنه، فقد قال لمن جاء بخبرهم: فأخبرهم إني برىء منهم، وإنهم برآء منى^(١)، أو بإهانتهم واحتقارهم، كما فعل طاووس بن كيسان مع معبد الجهنى حين رآه فى المطاف، حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه^(٢)، أو بقتلهم وقطع دابر فتنهم بعد تكفيرهم كما فعل بغيلان الدمشقى حين أصر على هذه العقيدة الفاسدة^(٣).

لكن المعتزلة أحييت هذه العقيدة بطريقة خفضت فيها من غلو السابقين، فأثبتت لله تعالى العلم والكتابة، وأنكرت مرتبة الإرادة والخلق، حيث قرروا أن العباد هم الخالقون بأفعالهم، وأنهم يفعلونها بحض مشيئتهم دون مشيئة الله تعالى^(٤). ولهذا لم يكفرهم العلماء كما كفروا القدرية الغلاة السابقين، قال ابن تيمية: وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم، ولم يكفروا من أثبت العلم ولم يثبت خلق الأفعال^(٥).

* ما أخذته المعتزلة من الجهمية: مهد التعاصر والتزامن بين الفرقتين والاتصالات الشخصية التى كانت بين جهم وبعض أصحاب واصل لأخذ المعتزلة من الجهمية عقيدتهم فى التوحيد والتى تضمنت:

أ- نفى الصفات: يقول ابن تيمية: ثم أن أصل هذه المقالة - مقالة التعطيل للصفات - إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركون.. فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه^(٦). ثم إن المعتزلة ورثت هذه البدعة من

(١) مسلم، شرح النووى، ك الإيمان (١٥٦/١). (٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/٦٣٧).

(٣) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٤).

(٤) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١١٧).

(٥) الفتاوى نقلاً عن تأثير المعتزلة، ص (٢٤).

(٦) الفتوى الحموية الكبرى، تحقيق شريف هزاع، ص (٤٧، ٤٨).

الجهمية وأحيثها، ولكن بشكل خفضت فيه من غلو الجهمية، فإن الجهمية كانت تنفى عن الله الأسماء والصفات^(١)، كما ذكر ابن تيمية: أن الجهم زاد نفى الأسماء على نفى الصفات^(٢)، أما المعتزلة فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات^(٣).

ب- القول بخلق القرآن، ونفى رؤية الله تعالى مطلقاً: قال ابن تيمية فى المعتزلة: وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذى مضمونه نفى الصفات وغير ذلك، قالوا: إن الله لا يرى، وأن القرآن مخلوق^(٤).

فهذه جملة ما أخذته المعتزلة عن الفرق السابقة عليها وهم الخوارج والقدرية والجهمية، وقد ظهر دورهم فى إحيائها وقد غير المعتزلة فى كثير منها حتى تخف الوطأة عليها، كما أنها جمعت لتلك العقائد الأدلة العقلية الفلسفية، ثم جاءت الفرق فأخذت تلك العقائد بصورتها عن المعتزلة واستدلت بأدلة المعتزلة عليها^(٥).

٤ - أصول المعتزلة الخمسة: اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول خمسة عقدية، جعلوها أساساً مهماً لمذهبهم الاعتزالى، وهذه الأصول هى: التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٦). ومصطلح الأصول الخمسة لم يظهر عند واصل بن عطاء، وإنما أخذ عن تلاميذه واكتمل عند أبى الهذيل العلاف، والذى وصلت به الفرقة إلى ذروة الاعتزال، واكتملت على يديه موضوعاته، وقد كتب فى الأصول الخمسة بعض فصول كتبه، ثم توالى الكتب التى تحمل هذا المصطلح على يد جعفر بن حرب، والقاضى عبد الجبار وغيرهما من رجال المعتزلة^(٧)، ومع بداية الدولة العباسية نشطت حركة المعتزلة، وبدأوا يرسلون الرسل فى الآفاق للدعوة إلى مذهبهم ومعتقدهم، وقد حظى مذهبهم بتأييد بعض الخلفاء العباسيين، وخاصة فى عهد المأمون، وترك مناقشة أصول الاعتزال وموقف أهل السنة منها عند حديثنا عن الدولة العباسية بإذن الله تعالى.

(١) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٥).

(٢) تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٢٥) نقلاً عن الفتاوى . (٣) المصدر نفسه، ص (٢٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٢٦) نقلاً عن الفتاوى . (٥) المصدر نفسه، ص (٢٦).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٦)، آراء المعتزلة الأصولية، ص (٧٩).

(٧) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د. النشار (١/٤١٧)، تأثير المعتزلة فى الخوارج والشيعة، ص (٧٢).

الفصل الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

* اهتمامه بأولاده وأسرته:

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه، ولم تشغله مسؤولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامى، ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم:

١- ربطهم بالقرآن الكريم: ربط عمر بن عبد العزيز أولاده بالقرآن الكريم، وكان يأذن لهم يوم الجمعة بالدخول عليه قبل أن يأذن للناس ليتدارس معهم القرآن الكريم: فإذا قال: إياها،^(١) قرأ الأكبر منه ثم إذا قال: إياها، قرأ الذى يليه حتى يقرأ طائفة منهم^(٢).

٢- تعهدهم بالنصيحة: فقد أرسل فى العام الذى استخلف فيه وصية إلى ابنه عبد الملك، وهو إذ ذاك فى المدينة يقول فيما قال فيها: . . . فمن كان راغباً فى الجنة وهارباً من النار - يقصد عبد الملك وإخوته - فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور، قبل نفاذ الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للمنقلين ليدنيهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المَعْدرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يرده الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله^(٣).

وفى موضع آخر من هذه الوصية يحث ولده على ذكر الله وشكره عز وجل، ومراقبته فى القول والعمل، فيقول: . . فاذا ذكر فضل الله عليك وعلى أهلك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً، وتسييحاً، وتهليلاً فافعل، فإن

(١) قوله: (إياها) إشارة البدء فى القراءة وكذلك الذى يليه.

(٢) سياسة عمر بن عبد العزيز فى رد المظالم، ص (٥٢).

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٩٨).

أحسن ما وصلت به حديثًا حسنًا حمد الله وشكره، وإن أحسن ما قطعت به حديثًا سيئًا حمد لله وذكره^(١).

٣- الحث على التسامح وحسن الظن: كان رحمه الله يحثهم على التسامح وحسن الظن في الناس، فإن بعض الظن إثم، فيروى أنه قال مرة لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم، فلا تحملها على شيء من الشر.

٤- الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة: كان رحمه الله يتعامل معهم بالأسلوب اللين، دون أن ينصرف إلى التدليل، الذي يفسد الأبناء ويحاورهم محاورة العقلاء ويستخدم أسلوب الإقناع والمنطق في التفاهم معهم، وتلبية طلباتهم^(٢)، فيروى أن ابنه عبد الله استكساه ذات مرة وهو خليفة، فأرسله إلى الخيار بن رباح البصري وقال له: خذ مما عنده لى من ثياب. فلم تعجبه فعاد إلى أبيه وقال: يا أبتاه استكسيتك، فأرسلتنى إلى الخيار بن رباح، فأخرج لى ثيابًا ليست من ثيابى ولا من ثياب قومى، فقال: ذاك ما لنا عند الرجل فانصرف عبد الله. فما كان من عمر رضى الله عنه الأب المربى، إلا أن اتخذ موقفًا وسطًا مقتنعًا، فجمع بين إجابة طلب ولده، وأنه لا يتوافر كل مطلوب أو مرغوب دائمًا: فناده قبل أن ينصرف وقال له مخيرًا إياه: هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه، فأسلفه مائة درهم، فلما خرج عطاؤه حوسب بها فأخذت منه^(٣).

ومما يروى أيضًا فى حسن إجابته لأولاده وإقناعهم، أن ابنة له بعثت إليه بلؤلؤة وقالت له: إن رأيت أن تبعث لى بأخت لها، حتى أجعلها فى أذننى، فلم يرد عليها بالإجابة ولا بالرفض، وإنما الأمر مرتبط بصبرها على الجمر، إذ أرسل لها بجمرتين وقال لها: إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنك بعثت إليك بأخت لها^(٤)، فكان جوابًا مقتنعًا لها^(٥).

٥ - حرصه على العدل بينهم: وما يذكر من حسن معاملته رحمه الله لأولاده، حرصه على العدل بينهم مع كثرتهم، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو

(١) سيرة ومناقب عمر، ص (٢٩٨).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠١).

(٣) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٣١٢). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص (١٣٤).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١٠١).

يغضبه، فقد تحرى رحمه الله العدل حتى إثاره لابن الحارثية أن ينام معه، إذ تركه خشية أن يكون جوراً^(١)، وفى هذا الصدد يروى عن عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز قوله: كان عمر بن عبد العزيز له ابن من امرأة من بلحارث بن كعب، وكان يحبه وينام فى بيته، قال: فتعرضت له ذات ليلة، فقال: أعبد العزيز؟ قلت: نعم. قال: شرٌّ ما جاء بك؟ ادخل، فجلست عند شاذكونته^(٢)، وهو يصلى.. فأتانى فقال: ما لك؟ فقلت: ليس أحد أعلم بولد الرجل منه، وإنك تصنع بابن الحارثية ما لا تصنع بنا، فلست آمن أن يقال: ما هذا إلا من شىء تراه عنده ولا تراه عندنا. فقال: أعلمك هذا أحد؟ فقلت: لا. قال: فأعد علىّ. فأعدت عليه. فقال: ارجع إلى بيتك. فرجعت، فكنت أنا وإبراهيم وعاصم وعبد الله - وهم من إخوانه - نبيت جميعاً، فإذا نحن بفراش يحمل وتبعه ابن الحارثية - وهو أخوهم - فقلنا: ما شأنك؟ قال: شأنى ما صنعت بى، قال: كأنه خشى أن يكون جوراً^(٣).

٦- تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم: كان يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده، ويتحين الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع، وفى سياق رسالته رحمه الله إلى ولده عبد الملك، وهو فى المدينة ينهاه عن التفاخر والمباهاة فى الكلام، والإعجاب بالنفس، والغرور والتعالى على الناس، فيقول له: .. وإياك أن تفخر بقولك، وأن تعجب بنفسك، أو يخيل إليك إن ما رزقته لكرامة لك على ربك، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك^(٤).

٧- تربية أولاده على الزهد والاقتصاد فى المعيشة: تتجلى شخصية عمر رحمه الله التربوية بقدرته على جعل أولاده يتقبلون التحول من فترة النعيم إلى فترة الزهد والتقشف، وأن يقنعهم بالعيش كعامة الناس، بدلاً من حياة الترف والرفاهية، فمن أول إجراءاته ما جاء فى سياق رسالته التربوية لابنه عبد الملك وهو فى المدينة والتي جاء فيها: .. فإن ابتلاك الله بغنى فاقتصد فى غناك، وضع لله نفسك، وأد إلى الله فرائض حقه من مالك - يقصد الزكاة والصدقة وعدم الإسراف - وقل كما قال العبد الصالح: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

(١) النموذج الإدارى السمتخلص، ص (١٠٢). (٢) الشاذكونة: هى ثياب غلاظ مضرية تعمل باليمن.

(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٥٢، ٥٣).

(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص (٣١٤).

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ [النمل: ٤٠]. وكانت هذه الرسالة عقب توليه الخلافة مباشرة، في حين لا تزال فترة النعيم والرفاهية قائمة، إذ اتبع أسلوباً تربوياً رائعاً في ذلك، حيث أخذ الأمر بالتدرج، فأشعره بأن الغنى وكثرة المال ابتلاء من الله عز وجل، ثم أمره بالاقتصاد فيما هو فيه من الغنى، ثم قرن الأمر بالتواضع لله، وأخيراً أكد على ضرورة أداء حق الله، من زكاة الأموال والصدقات وامثال أمر الله عز وجل^(١).

- وفي موقف آخر، إذ بلغه رحمه الله إن ابناً له اتخذ خاتماً، واشترى لهذا الخاتم فصاً بألف درهم، فكتب إليه عمر: أما بعد: فقد بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم، فبعه، وأشبع ألف جائع، واتخذ خاتماً من حديد صيني، واكتب عليه: رحم الله امرأ عرف قدر نفسه^(٢).

ونلاحظ أن عمر ربط أمره ببيع الفص بوجود جائعين وحاجتهم للإشباع ليكون ذلك أجدى لإدراك مغزى الأمر، والتحري في إنفاق الأموال مستقبلاً، وليكن أمر الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائماً^(٣)، وذات يوم طلب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز إلى أبيه أن يزوجه، وأن يُصدق عنه من بيت المال - وقد كان لابنه ذلك امرأة - فغضب رضى الله عنه لذلك، وكتب يقول: لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها، فلا أعرفن ما كتبت بمثل هذا.. ثم كتب إليه أن انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه، واستعن بثمنه على ما بدا لك^(٤).

ولم يقتصر الأمر على الذكور من أولاده، بل شمل الذكور والإناث ومما يدل على ذلك أن ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها «أمنية» مرت به يوماً، فدعاها عمر: يا أمينة، فلم تجبه فأمر بها، فقال: ما منعك أن تجيبي؟ فقالت: إني عارية - أي ملابسها ليست حسنة - فقال: يا مزاحم: انظر إلى تلك الفرش التي فتقناها، فاقطع لها منها قميصاً^(٥). هذا عن كساء بنات عمر، أما عن طعامهن، فيروى ابن

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٦).

(٢) سيرة عمر ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٢٩٨).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (١٠٦).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٦).

(٥) حلية الأولياء (٢٦١/٥)، النموذج الإداري، ص (١٠٨).

عبد الحكم أن عمر: كان يصلى العتمة^(١)، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن، فدخل عليهن ذات ليلة فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب، فقال للحاضنة: ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن فبكى عمر. ثم قال لهن: يا بناتى ما ينفعكن أن تعشَيْنَ الألوان، ويمر بأبيكن على النار، فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرفن.^(٢) وكان عمر بدأ الانتقال بأهل بيته من فترة الرفاه والتنعم إلى فترة القناعة والزهد فى الدنيا، بأن وضع حلى ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبد الملك فى بيت المال، إذ قال لها: اختارى، إما أن تردى حليكِ إلى بيت المال، وإما أن تأذنى لى فى فراقك، فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه وعلى أضعافه إن كان لى^(٣).

* - اهتمامه بتعليم أولاده:

أولى عمر رحمة الله تعليم وتأديب أولاده جانباً من الاهتمام، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجاً جديراً يلبي حاجات الناشئ المسلم، ليكون موحد الذات والأهداف، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل، أو بين الواقع والمثال^(٤)، حيث تتضح معالم ذلك المنهج فى رسالته رضى الله عنه إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل بن صدقة، إذ قرر اختياره وتكليفه بمهام تعليم وتأديب أولاده، ثم حدد الطريقة المثلى للتأديب^(٥)، فقد قال: من عبد الله عمر، أمير المؤمنين، إلى سهل مولاه، أما بعد: فإنى اخترتك على علم منى بك لتأديب ولدى، فصرفتهم إليك من غيرك من موالى وذوى الخاصة بى، فحدثهم بالجفاء، فهو أمعن لإقدامهم، وترك الصحبة، فإن عادتها تكسب الغفلة، وقلة الضحك، فإن كثرت يميت القلب، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاحى التى بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغنى عن الثقات من أهل العلم، أن

(١) العتمة: هى الثلث الأول من الليل، والعتمة: وقت صلاة العشاء.

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٨، ٤٩).

(٣) الطبقات (٣٣٠/٥)، النموذج الإدارى، ص (١٠٩).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (١١٠).

(٥) المصدر نفسه، ص (١١٠).

حضور المعازف^(١) واستماع الأغاني، واللهج^(٢) بها ينبت النفاق في القلب، كما ينبت العُشْبُ الماء، ولعمري لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شىء مما ينتفع به، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت فى قراءته، فإذا فرغ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض^(٣) حافياً، فرمى سبعة أرشاق^(٤)، ثم انصرف إلى القائلة^(٥)، فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول: يا بنى قيلولوا، فإن الشياطين لا تقيل^(٦).

ونلاحظ على هذه التوجيهات الأمور الآتية:

١- اختيار المعلم والمؤدب الصالح: فالمعلم أو المربي يعد حجر الزاوية فى عملية التعليم، فقد اختار معلم أولاده من خاصته ومواليه، وعلى علم به وثقة فيه، ولم يكتف عمر بمولاه سهل لتأديبهم وتعليمهم بل عهد بتأديبهم أيضاً إلى أستاذه ومؤدبه الأول صالح بن كيسان^(٧). ولم يقف حرص عمر رحمه الله على تعليم أولاده وأدبهم عند هذا الحد، بل اختار من كبار علماء عصره من يختبر عقل أولاده وأدبهم، فقد كلف ميمون بن مهران أن يأتى ابنه عبد الملك فيستشيره وينظر إلى عقله. قال ميمون: فأتيناه - يعنى عبد الملك بن عمر - فاستأذنت عليه فقعدت عنده ساعة، فأعجبت به^(٨).

٢- تحديد المنهج التعليمى: حدد عمر بن عبد العزيز المنهج التعليمى والمقررات الدراسية التى يريد لأولاده أن يتعلموها، حيث يتكون من القرآن الكريم وعلومه، وبقية العلم من العلوم الأخرى، والتدريب على الجهاد والقتال والصبر عليه، وكذلك التمرين على الرماية ودقة الإصابة، وممارسة الرياضة البدنية بالسير إلى

(١) المعازف: هى الملاهى والآلات مما يضرب. العازف: اللاعب والمغنى.

(٢) اللهج بالشىء: الولوع به والاعتماد عليه.

(٣) الغرض: هو الهدف الذى ينصب فىرمى فيه، والجمع أغراض.

(٤) الرشق: هو الرمى بالسهم والنبل، والرشق: هو الشوط من الرمى.

(٥) القائلة: هى الظهيرة أو نصف النهار، والقيلولة: الاستراحة عند نصف النهار.

(٦) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٢٩٦، ٢٩٧). (٧) تذكرة الحفاظ (١/١٤٨).

(٨) سيرة ومناقب عمر بن العزيز لابن الجوزى، ص (٣٠٢).

الأهداف حفاة ليعتادوا على ذلك، مع ما يحتويه المنهج من أوقات للراحة، أما حجم المقرر اليومي فجاء واحد من القرآن الكريم بثبت ووعي بالإضافة إلى ما يتناسب مع ذلك الجزء من علوم الدين الأخرى، وكذلك الرمي بسبعة أرشاق مع ما يتطلبه ذلك من السير إلى الأغراض والسير بينها، فكان منهجاً ذا أهداف سامية، إذ يجمع بين الدين والدنيا، ويرواح بين البدن والروح، والقول والعمل^(١) تلك أهداف ارتدت عنها خائبة، جلّ برامج التعليم والتربية الحديثة^(٢).

٣- تحديد طريقة التأديب والتعليم: لم يقف عمر بن عبد العزيز عند اختيار معلم أولاده، وتحديد مواد المنهج التعليمي، بل امتد الأمر إلى رسم الطريقة التي ينبغي لمؤدب أولاده اتباعها، وكيفية التنفيذ ودقة الأداء وإتقان العمل، ففي سياق رسالته -رحمه الله- طلب إلى سهل أن يلتزم الجِد في قوله لهم، فذلك أمعن لإقدامهم وأحرز لانتباههم، وطلب إليه كمؤدب لهم أن يترك صحبتهم، فإن عاداتها تكسب الغفلة، ولتبقى مكانته عندهم، فليس للمعلم أن يتخذ من تلاميذه أصدقاء وأصحاباً له يودعهم أسرارهم، ويشاركهم وقته وحياته، فقد لا تعجبهم مواقفه، فيكون ذلك، أدعى للاستهانة به، وعدم الاستجابة لما يطلب منهم^(٣). وربما يؤدي ذلك إلى عدم الاكتراث بالمعلم، والغفلة عما يقوله من العلم، كما طلب عمر إلى مؤدب أولاده أن يكون في أدبه لهم ما يصرفهم عن الملاهي وحضور المعازف وسماع الغناء، لما لها من الأثر السيئ في حياة المسلم، ويلاحظ أن عمر لا يصدر أمراً، أو يحدد طريقة أو أسلوباً حتى يوضح ما دفعه لذلك، وما فائدته وجدواه^(٤).

٤- تحديد أوقات وأولويات التعليم: ومما اشتمل عليه المنهج الذي حدده عمر بن عبد العزيز في رسالته لمؤدب أولاده ما يسمى بإدارة الوقت، إذ حدد برنامجاً يومياً يبدأ الأولاد ومؤدبهم في تنفيذه من الصباح الباكر؛ بجزء من القرآن الكريم، فكان البدء بالقرآن في الفترة الصباحية، لما فيها من صفاء ذهن التلميذ، بعد أخذه قسطاً من الراحة في ليلته، فجعل أولوية القرآن الكريم في وقت صفاء الذهن

(١) النموذج الإداري، ص (١١٣).

(٢) المصدر نفسه، ص (١١٧).

(٣) المصدر نفسه، ص (١١٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (١١٧).

والاستعداد الجيد للمتعلم، كما ربط الانتقال إلى المادة الأخرى من البرنامج اليومي بالتبثيث والإتقان، ثم جاء توقيت الخروج بين الأغراض وممارسة متطلبات الرماية، ويكون الخروج للرماية بعد العلم، وهم في شوق إليه، فيتحقق لهم بذلك أعلى درجات الكفاءة والإتقان، ويأتى فى ختام البرنامج اليومي فترة القيلولة، تلك الفترة الضرورية لراحة البدن والنفس والعقل^(١).

٥- مراعاة المؤثرات التعليمية: راعى عمر بن عبد العزيز كل ما له ارتباط بالعلم، وما له تأثير على الفهم وحسن التلقى، وما يزيد من إدراك العقل من قريب أو بعيد، فكان أول أمر اهتم به وتأثيره على علم أولاده وأخلاقهم وأدبهم هو: معلمهم وجدوى علمه، واقتداؤهم بأدبه وخلقه، والأمر الثانى: مراعاة ما قد يسببه اللين وعدم التزام الجد فى القول، وإكثار الضحك، والهزل واللعب أحياناً، من التباطؤ فى أداء متطلبات التعليم، من إقدام وعلو هممه، وفهم وإدراك بالكفاءة المطلوبة، والثالث: ما ينجم عن تيار المجون والملاهى والغناء، وحضور المعازف، من ضياع وقت أولى أن يكون للعلم، وتبلى الإحساس العلمى، ورابعها: مراعاة النواحي النفسية للناشئين، وما قد يصيبهم من الملل، وتأثير ذلك على المستوى المطلوب من الفهم، وضرورة الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة، وجعل وقت للراحة بين الحين والآخر، وأخيراً الاهتمام بالمردود الإيجابى للرياضة وممارسة الرماية والسير بين الأغراض على الجسم وصحته، والعقل وسلامته، والذهن وصفاته^(٢).

* من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز فى تربية أولاده.. ابنه عبد الملك:

من نتائج منهج عمر فى تربية أولاده ذلك النموذج الربانى المتمثل فى ابنه عبد الملك، ويعتبر عبد الملك نموذجاً للشباب الذى عاش فى رغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، فحياته مثال لكثير من أبناء المسلمين الذين كانوا على شاكلته، وإليك شيئاً من مواقفه:

١- عبادته وبكاؤه: عن عاصم بن أبى بكر بن عبد العزيز بن مروان وهو ابن أخى عمر بن عبد العزيز قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك، ومعنا عمر بن

(٢) المصدر نفسه، ص (١١٩).

(١) النموذج الإدارى، ص (١١٨).

عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك وهو عزب، فكننت معه فى بيت، فصلينا العشاء، وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، ثم قام يصلى، حتى ذهب بى النوم، فاستيقظت، فإذا هو فى هذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ.....﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]. فبكى، ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقته البكاء، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله والحمد لله كالمستيقظ من النوم، لأقطع ذلك عليه، فلما سمعنى سكت فلم أسمع له حساً^(١) رحمه الله.

٢- علمه وفقهه وفهمه: جمع عمر بن عبد العزيز الناس واستشارهم فى رد مظالم الحجاج، فكان كلما استشار رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، ذاك أمر كان فى غير سلطانك ولا ولايتك، فكان كلما قال له رجل ذلك أقامه، حتى خلص بابنه عبد الملك، فقال له ابنه عبد الملك: يا أبه ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجاج إن لم يردها أن يشركه فيها. فقال عمر: لولا أنك ابنى، لقلت أنك أفقه الناس، وهذا الذى قاله عبد الملك، ومدحه عليه أبوه، هو الصواب، فإن الإمام إذا قدر على رد مظالم من قبله من الولاة وجب عليه، وهو ذلك بحسب الاستطاعة^(٢).

وقد كان عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك من العلماء الذين جمعوا بين العلم بالله الذى يقتضى خشيته ومحبته والتبتل إليه، وبين العلم بالله الذى يقتضى معرفة الحلال والحرام والفتاوى والأحكام^(٣).

٣- تذكيره والده بالموت: مات ابن لعمر بن عبد العزيز، فجاء عمر فقعد عند رأسه، وكشف الثوب عن وجهه فجعل ينظر إليه ويستدمع، فجاء عبد الملك ابنه فقال: أشغلك يا أمير المؤمنين ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو فى شغل عما حل لديك، فكأن قد لحقت به وساوته تحت التراب بوجهك. فبكى عمر ثم قال: رحمك الله يا بنى، فوالله، إنك لعظيم البركة ما علمتك على أبىك نافع الموعظة

(١) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلى (٢/٤٧٩).

(٢)، (٣) المصدر نفسه (٢/٤٨١).

لمن وعظت، وإيم الله، إن كان الذى رأيت من جزعى على أخيك، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل دارى فراعنى دخوله، فكان الذى رأيت، ثم أمر بجهازه^(١).

٤- صلابته في الدين وقوته في تنفيذ الحق: قال ميمون بن مهران قال: بعث إلى عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة فقال: ما ترون في هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلماً؟ فقال مكحول يومئذ قولاً ضعيفاً، فكرهه، فقال: أرى أن تستأنف فنظر إلى عمر كالمستغيث بى، فقلت: يا أمير المؤمنين، ابعث إلى عبد الملك، فأحضره. فإنه ليس بدون من رأيت. فلما دخل عليه قال: يا عبد الملك، ما ترى في هذه الأموال التى أخذت من الناس ظلماً، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال: أرى أن تردّها، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها^(٢).

٥- مرضه وموته رحمه الله: دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه فى وجعه - من الطاعون - فقال: يا بنى، كيف تجدك؟ قال: أجدنى فى الحق. قال: يا بنى، إن تكن فى ميزانى أحب إلى من أن أكون فى ميزانك. فقال ابنه: وأنا يا أبه لئن أكون ما تحب أحب إلى من أن يكون ما أحب^(٣). وحين دفن ابنه خطب على قبره فقال: رحمك الله يا بنى، فلقد كنت برّاً بأبيك، وما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً، ولا والله ما كنت أشدّ سروراً ولا أرجى لحظى من الله فيك، منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه، فرحمك الله وغفر ذنبك، وجزاك الله بأحسن عملك وتجاوز عن سيئه، ورحم كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين. ثم انصرف^(٤).

ثم كتب إلى نائبه على الكوفة كتاباً ينهى أن يناح على ابنه، كما كانت عادة الناس حينئذ فى النياحة على الملوك وأولادهم، ذلك الكتاب كان فيه: أن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبداً من عباد الله، أحسن الله إليه فى نفسه، وأحسن إلى أبيه فيه، أعاشه الله ما أحب أن يعيشه، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه، وهو فيما علمت بالموت مرتبط، نرجو فيه من الله رجاء حسناً، فأعوذ بالله أن تكون لى محبة فى شىء من الأمور تخالف محبة الله، فإن خلاف ذلك لا يصح فى بلائه عندى وإحسانه إلى ونعمته على، ثم قال: أحبيت أن أكتب إليك بذلك

(١) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحبلى (٤٨٧/٢).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤٩٥/٢).

(٢) المصدر نفسه (٤٨٨/٢).

وأعلمكمه من قضاء الله، فلا أعلم من ينوح عليه فى شىء من قبلك، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس، ولا رخصت فيه لقريب ولا بعيد، واكفى فى ذلك بكفاية الله، ولا ألوئئك فيه - إن شاء الله - والسلام عليك^(١).

وجاء فى رواية: لما هلك عبد الملك بن عمر قال أبوه: يا بنى، لقد كنت كما قال الله عز وجل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، وإنى لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التى هى خير ثواباً وخير أملاً. والله ما يسرنى أنى دعوتك فأجبتنى^(٢).

وقد توفى عبد الملك بن عمر وكان عمره تسع عشرة سنة^(٣). وكان عمر بن عبد العزيز يشئ على ولده وقال لابنه ذات يوم: يا عبد الملك إنى أخبرك خبراً: لا والله ما رأيت فتى ماشياً قط أنسك منك نسكاً، ولا أفقه فقهاً، ولا أقرأ منك، ولا أبعد فى صبوة فى صغير ولا كبير^(٤). وقال عمر بن عبد العزيز والله لولا أن يكون بى زينة من أمر عبد الملك ما يُزين فى عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة^(٥)، وجاء فى رواية: إن عبد الملك لما توفى جعل أبوه يشئ عليه عند قبره، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، لو بقى كنت تعهد إليه؟ قال: لا، قال: لم وأنت تشئ عليه؟ قال: أخاف أن يكون زين فى عيني منه ما يُزين فى عين الوالد من ولده^(٦)، وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة فى بيت خيراً من عمر بن العزيز، وابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم^(٧).

هذا من نتائج المنهج التربوى والعلمى الذى سار عليه عمر فى تربية أولاده.

* حياته مع الناس:

١- اهتمامه بإصلاح المجتمع:

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيراً، وعمل على إزالة ما يتفشى فيه من المنكرات، وقد كتب فى ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة، وفيه يقول:

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٢/٤٩٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/٤٩٨).

(٣) المصدر نفسه (٢/٤٩٦).

(٤)، (٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه (٢/٤٩٩).

أما بعد؛ فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقَمَات ما قمع فيهم أهل الباطل، واستخفى فيهم بالمحارم، فلا يظهر من أحد منهم محرّم إلا انتقموا ممن فعله، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي والمداهين لهم، ولعل أهل الادهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم، فإنني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزل من كتابه عند مثله أهلك بها أحداً نجى أحداً من أولئك، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصِبه من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقَم، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر، وبالظالم من الظالم، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين، أو أن يجعلنا مDAHين للظالمين. وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم وأمن الفساق في مدائنكم، وجأهروا من المحارم بأمر لا يجب الله تعالى من فعله، ولا يرضى المداهنة فيه، كان لا يظهر مثله علانية قوم يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور، وليس بذلك مضى أمر سلفكم، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم، بل كانوا كما قال تعالى: ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ١٩]، ﴿أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]

ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه، وإن كانوا الآباء، وإنما سبيل الله طاعته. ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم أن يقال: فلان حسن الخلق قليل التكلف، مقبل على نفسه، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً، بل أولئك أسوأكم أخلاقاً، وما أقبل على نفسه من كان كذلك، بل أدبر عنها، ولا سلم من الكلفة لها بل وقع فيها، إذ رضى لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٠).

ففى هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى سنة الله جل وعلا التى لا تتخلف، وهى أن أىَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث أن يصيبهم الله بعذاب من عنده، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النقم والمصائب.

ويبين عمر فى هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصى المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضى الله عنهم، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصى، ويذكر أن من الجهاد فى سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكى محارم الله والإنكار عليهم بالأيدى والألسن، وإن كانوا من أقرب الأقارب، وهذا التوسع فى معنى الجهاد له أدلته الشرعية مثل قول الله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]. وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة فى معاملتهم^(١). ويصحح عمر فى هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه، حيث يبين أن هذا سئى الخلق، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجاتها فى الجنة، بل أقبل على هلكتها، حيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها، وقد تورده إلى النار، وإذا كان فى مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢). وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها فى إصلاح المجتمع كما جاء فى خبر إبراهيم ابن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قسَم أو تقدير عطاء أو خير، حتى خرج من الدنيا^(٣).

(٢) المصدر نفسه (١٥، ١٦ / ١٣٠).

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦ / ١٣٠).

(٣) طبقات ابن سعد (٥ / ٣٤٢).

٢- تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكنني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون، فوجدت المصدق به أحق، والمكذب به هالكاً ثم نزل^(١). وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكر حياة بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد العدة الكافية لذلك اليوم، يعتبر حقاً أحق، حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه^(٢)، وقد بين عمر في بعض خطبه أن الإنسان خلق للأبد ولكنه من دار إلى دار، قال عمر: إنما خلقتُم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون^(٣). وقال في إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون، وإلى غيرها ترحلون، فالله عباد الله في أنفسكم، فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتفسد قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصرُوا عنه بعد المهلة، فندموا على ما قصرُوا عند الآخرة^(٤)، وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً في خطبه ومواعظه رحمه الله.

٣- تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر في إحدى خطبه: أما بعد، أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعجب من شيء، ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإنني أعالج امرأ لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره، ثم قال: إنه لحبيب على أن أوفر أموالكم

(٢) التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/١١٨).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٢).

(٤) المصدر نفسه (٤٤٩/٢).

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٤٤٨/٢).

وأعراضكم إلا بحقها، ولا قوة إلا بالله^(١). وفى هذه الخطبة يُذكر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة، فإن من وافته منيته قامت قيامته، فلينظر إلى الموت الذى قد يفاجئه فى أية لحظة، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التى سوّد بها صحيفته، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيض به صحيفته، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته فى حياته، يوم أن كان قادراً على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح، ثم يبين أن السلامة كل السلامة فى اتباع سنة رسول الله ﷺ، وهذا بيان لأحد عنصرى قبول العمل الصالح وهما الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص وإنما ينقصه اتباع السنة، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضى الله عنهم، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التى لا تتفق مع أهوائهم. ثم بين أحد العواصم التى تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة حيث قال: ولا طاعة لمخلوق فى معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسوّّل لهم نفوسهم الأمانة بالسوء، أو مجاملة الآخرين بأن يأمرُوا الناس بمعصية الله، أو يمهّدوا السبل لذلك، فإنه لا طاعة لهم، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات وهو: ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة، فإذا تحدّثت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد فى المجتمع، وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح.

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار فى النظر الشرعى، لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التى يتخذها للإخلاص من الظلم، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم، وكون عمر يبين هذا وهو فى أعلى موقع من المسئولية - كخليفة - دليلاً على تجرده من حظ النفس، ومن العصية للقراية، وإخلاصه لله تعالى.

ثم يصف الواقع الاجتماعى الذى اختلطت فيه العادات بالدين، والبدع بالسنن، ونشأ عليه أفراد المجتمع، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين، وحينما يختلط العرف الاجتماعى فيتسرب إلى العرف الإسلامى بعض الأعراف الجاهلية، فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٣).

وتتشربه قلوبهم، لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن، لأن كل انحراف له أنصاره ومؤيدوه، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحيهم، ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسؤولية - كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز - فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول، لأن معه ما خولّه الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى إلى جانب قوة السلطان المعهودة^(١).

٤- إنكاره العصية القبلية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحّاك بن عبد الرحمن، وكان مما جاء في كتابه: إن ما هاجنى على كتابي هذا أمر ذكر لى عن رجال من أهل البادية، ورجال أمروا حديثاً، ظاهر جفاؤهم، قليل علمهم بأمر الله، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً، وغيروا فيه نعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه، وذكر لى أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مضر وإلى اليمن، يزعمون أن لهم ولاية على من سواهم، وسبحان الله ويحمده ما أبعدهم من شكر نعمة، وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصعُر، قاتلهم الله، أية منزلة نزلوا، ومن أى أمان خرجوا، أو بأى أمر لصقوا، ولكن قد عرفت أن الشقى بنيسه يشقى، وأن النار لم تخلق باطلاً. أو لم يسمعوا إلى قول الله فى كتابه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]. وقد ذكر لى مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف، لا حلف فى الإسلام قال: وما كان من حلف فى الجاهلية فلم يزد الإسلام إلا شدة، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذى فيه معصية الله ومعصية رسوله، وقد ترك الإسلام حين

(١) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١٢١).

انخلع منه، وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة، أحذرهم تحذيراً بعد تحذير، وأذكرهم تذكيراً بعد تذكير، وأشهد عليهم الذى أخذ بناصية كل دابة، والذى هو أقرب إلى كل عبد من جبل الوريد، وإنى لم ألكم بالذى كتبت به إليكم نصحاً، مع أنى لو أعلم أن أحداً من الناس يحرك شيئاً ليُخذله به أو ليدفع عنه، أحرص - والله المستعان - على مذلتة من كان: رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به، فإنه هو الرشد ليس له خفاء، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم، وإن كثيراً من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة فى ديننا وألفتنا وذات بيننا. والسلام^(١).

فى هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامى آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعى، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التى تقوم على القبائل والعشائر، فيعطى الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل، وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة فى الله متحايين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم. وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبلية، مما سبب تأخراً فى تقدم الجهاد، وجراً أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال فى بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة فى تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام التى هى نعمة كبرى على المسلمين، واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها^(٢).

٥- رفضه للقيام بين يديه:

لما ولى عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين، إن تقوموا نقم وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، ص (١٠٣ - ١٠٦).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١٢٤).

فرائض، وسن سنًا، من أخذ بها لحق ومن تركها مُحق^(١). أراد عمر أن يقضى على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة، فكان له عزم صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين، وعمر هنا يحجّم دافعين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم.. أولهما: طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس، وثانيهما: رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء على هذه المظاهر، وتشجيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوى، وكان الدافع الذى يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوى، وكان هذا الدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح فى إجماع نفسه عن هواها وإسكات أصحاب المظاهر الخادعة، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية.

وفى قوله: إن الله فرض فرائض، بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية فى الدنيا والآخرة، فمن طبقها لحق بركب المتقين فى الدنيا، وأكرم به من رفقة صالحة! وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة وأكرم به من مآل وعاقبة!^(٣).

٦- تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذى سالت على الخدّ عينه فردّت بكفّ المصطفى أحسن الردّ
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حُسنتها عينا ويا حُسناً ما ردّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن شيباً بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله وأحسن جائزته رضى الله عنه^(٣). ففى هذا الخبر موقف لأمير عمر ابن عبد العزيز رحمه الله تعالى فى إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما

(١) تاريخ دمشق نقلاً عن التاريخ الإسلامى (١١٤/١٥). (٢) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١١٥).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٩٦)، التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/٢٢).

عرف نفسه بما حدث لأبيه - رضى الله عنه - فى هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز فى المجال الأخلاقى ، وذلك بتقدير أهل الفضل ، والتقدم فى خدمة الإسلام والسلمين ، فإن ما حدث لقتادة رضى الله عنه من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله فى القتال ، وتعرضه للمهالك ، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية^(١) .

ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش ، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش ، وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فدخل عليه فنسى أن يسلم عليه بالخلافة ، ثم ذكر فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : والأولى لم تضرنى ، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض وقال : إنى أعظم أن أكون فى موضع أعلو فيه على زياد ، فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يفتح لمثله بيت المال ويسلط عليه - وهو به غير عارف - ففعل الخازن ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه ولأصحابه بضعا وثمانين درهماً أو بضعا وتسعين درهماً ، فلما رأى ذلك الخازن قال : أمير المؤمنين أعلم بمن يسلم على بيت المال^(٢) .

ففى هذا الخبر صور من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين ، فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة ، وهو أعلى لقب عند المسلمين ، والمناصب لها فتنة يقع فى حبالها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوىاء الإيمان فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب ، بل يظلون على ما هم عليه من التواضع ، وربما زادوا تواضعاً فى مقابلة احترام الناس لهم . ثم هو ثانياً نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الربانى زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، وكون ذلك العالم من الموالى لا ينزل من قدره ، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب ، وموقف كريم لهذا العالم الربانى حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد ، مع أنه قد مكن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع ، حينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع

(١) التاريخ الإسلامى (١٥ ، ١٦ / ٢٣) .

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم ، ص (٥٣) ، التاريخ الإسلامى (١٥ / ٢٤) .

الدنيا الذى يتنافس عليه الصغار، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذى يتنافس فيه الكبار^(١).

٧- المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه:

كان بين وفد المهثين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير، وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم، وهو أصغرهم، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً، فقد استجاد له الحلية^(٢)، يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان فى الأمة من هو أسن منك - أى أحق بمجلسك هذا ممن هو أكبر منك سنًا^(٣) - . فقال عمر: تحدث يا غلام، قال: نعم يا أمير المؤمنين، نحن وفود التهئة لا وفود المرزئة^(٤)، قدمنا إليك من بلدنا، نحمد الله الذى من بك علينا، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا، وأما الرهبة فقد أمتنا الله بعدلك من جورك^(٥). فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه، وسداد رأيه، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك، وزاده ثقة بنفسه وجرأة ليكون هذا الحادث موقعاً تربوياً يتعلم فيه الغلام فى حضرة خليفة المسلمين، فطلب منه الموعدة فقال: عظنا يا غلام وأوجز، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن أناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم، وحسن ثناء الناس عليهم، فلا يغرنك حلم الله عنك، وطول أملك، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك. ثم نظر عمر فى سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة، فأنشأ يقول:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن بات جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل^(٦)

(١) التاريخ الإسلامى (٢٤/١٥).

(٢) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٧٩).

(٣) الارتزاء: انتقاص الشيء، والمرزئة: الرزئة وهى المصيبة.

(٤) مروج الذهب (١٩٧/٣).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، ص (٩٨).

٨ - امرأة مصرية مسكينة تشتكى لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصراعيها لسماع أخبارهم؛ فقد كان يريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحداً من الناس - إذا خرج - كتاباً إلا حمله، فخرج يريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح كتاباً تذكر فيه أن لها حائطاً قصيراً، وأنه يُقْتَحَم عليها فيسرق دجاجها، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذى أصبح، بلغنى كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يدخل عليك فيُسرَق دجاجك، فقد كتبت كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها - أمره بأن يبنى لك ذلك، يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذى أصبح كتبت تذكر قصر حائطها، وأنه يسرق منه دجاجها، وتسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب بيده حتى أتى الجزيرة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها، وإذا هي سوداء مسكينة، فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها^(١).

٩ - اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى، معاذ الله بل أنتم الحبساء فى سبيل الله، واعلموا أننى لست أقسم شيئاً بين ريعتى إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه، وأنى قد بعثت إليكم خمسة دنانير، ولولا إنى خشيت إن زدتكم أن يحبسهم طاغية الروم عنكم لزدتكم، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادى صغيركم وكبيركم، ذكركم وأثاكم، حرکم ومملوكم بما سئل به، فأبشروا ثم أبشروا، والسلام عليكم^(٢).

وفى هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظم شعوره بالمسئولية كنموذج راق لحاكم مسلم يخاف الله فيراعيه، ويتقى الله فى حقوق ريعيته بمتهى الإخلاص والأمانة، حيث واسى أسرى المسلمين لدى الروم، حيث شبههم بالمرابطين الذين

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٦٣، ١٦٤)، التاريخ الإسلامى (٧٧/١٥).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٣، ١٦٤).

حبسوا أنفسهم فى سبيل الله تعالى، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين. وإلى جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذى أمدهم به، وأزاح الهم عنهم، وبما أخبرهم به من كفالة أسرهم فى حال غيبتهم، كما أنه وعدهم جميعاً بمفاداتهم لفك أسرهم، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره^(١).

١٠- قضاء ديون الغارمين:

كتب إلى عماله: أن اقضوا عن الغارمين فكتب إليه: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس، وله الأثاث فى بيته، فكتب عمر: لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوى رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث فى بيته، ومع ذلك فهو غارم، فاقضوا عنه ما عليه من الدين^(٢)، ففى هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين، وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة، والاهتمام بشئون الرعية، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة، حيث يغنون بها فقيرها، ويجبرون به كسيرها، ويفكون بها أسيرها، ويقضون به عن معسرها، ويسدون به خلة معوزها^(٣).

١١- خبر الأسير الأعمى عند الروم:

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسلاً، فأتاه وخرج من عنده يدور، فمر بموضع فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن، فأتاه فسلم عليه فلم يرد عليه السلام - مرتين أو ثلاثاً - ثم سلم عليه فقال له: وأنى بالسلام فى هذا البلد، فاعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم، قال له: ما شأنك؟ فقال: إنى أسرت فى موضع كذا وكذا، فأتى بى إلى صاحب الروم، فعرض على النصرانية فأبيت، وقال لى: إن لم تفعل سملت عينيك، فاخترت دينى على بصرى، فسملى عيني وضيرنى إلى هذا الموضع، يرسل إلى كل يوم بحنة أطحنها وبخبة آكلها، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل، قال: فما فرغت من الخبر

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٣، ١٦٤).

(١) التاريخ الإسلامى (٧٧/١٥).

(٣) التاريخ الإسلامى (٧٧/١٥).

حتى رأيت دموع عمر قد بليت ما بين يديه، ثم أمر فكتب إلى صاحب الروم: أما بعد، فقد بلغني خبر فلان بن فلان فوصف له صفته، وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلى لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندي. ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فذفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به. قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدرى لم فعلت هذا؟ فقلت: لا - وقد أنكرت ما رأيت - فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافى أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما فعلت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أأذن لى أن أنصرف، وأيست من بعثه الرجل معى، فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر فى حياته ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه الرجل^(١).

١٢- المرأة العراقية التى فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا، فلجى إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهى جالسة فى بيتها، وفى يدها قطن تعالجه، فسلمت فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلى، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئاً له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بثر فى ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت - وهو يكثر النظر إلى فاطمة - فقالت لها المرأة: استترى من هذا الطيان، فإنى أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين. قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له فى البيت يصلى فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هى هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شىء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لى خمس

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٨).

بنات كُسلٌ كُسد، فجئتُك أبتغي حسن نظرك لهنّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والى العراق، فقال: سمى كبراهنّ، فسمتها، ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربعة استفرها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمرى هؤلاء الأربع يفضنّ على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق، فدفعته إلى والى العراق، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاءه، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب، فقالت: أمات؟ قال: نعم، فصاحت وولولت، فقال: لا بأس عليك، ما كنت لأرد كتابه فى شيء، ففضى حاجتها وفرض لبناتها^(١).

١٣- إحياءه سنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منقوس^(٢) نفرض له^(٣). وفى رواية أخرجه ابن سعد من خبر أبى بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز، وكتب إلى: من كان غائباً قريب الغيبة فأعط أهل ديوانه، ومن كان منقطع الغيبة، فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتى نعيه، أو يوكل عندك بوكالة بيينة على حياته فادفعه إلى وكيله^(٤).

وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامى التى كانت فى عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضى الله عنهم، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم، وهذا من أبرز مواقف وإصلاحاته التجديدية^(٥).

١٤- إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة فجعل يسأله عن أهل المدينة: فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون فى مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٦٩).

(٢) طبقات ابن سعد (٣٤٦/٥).

(٣) أى مولود فى حال نفاس أمه.

(٤) التاريخ الإسلامى (١٥، ١٦/١٣٨).

(٥) المصدر نفسه (٣٤٨/٥).

منه يا أمير المؤمنين، قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله. قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط للمسافرين^(١)، فالتمس ذلك منهم بعد، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز^(٢). وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين، حيث حُرِّمَت القلة المتمكنة من الإسراف، وأصبح ما يصرف لفرد ممن هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين، فوصل المال العام إلى فئات ممن لم يكن يصل إليها قبل، فاستغنوا به عن بعض الأعمال الشاقة التي كانت تُدرُّ عليهم مبالغ زهيدة^(٣).

١٥- دفع المهور من بيت المال:

اهتمَّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرئَ كتاب عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله^(٤). وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج خصوصاً في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب^(٥).

١٦- جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حَفُّوا بالمنبر، وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أوماً إلى الناس: أن تقدموا فتقدموا حتى اختلطوا بهم^(٦). لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله

(١) الخبط: نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/١٥١).

(٣) التاريخ الإسلامي (١٣٨/١٥).

(٤) طبقات ابن سعد (٣٧٤/٥).

(٥) التاريخ الإسلامي (١٣٩/١٥).

(٦) طبقات ابن سعد (٣٨٧/٥).

عنه على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك فى الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميّزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم «الأشراف»، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى فى المساجد التى من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام، لما فى ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجل اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، فذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية، وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة، وأن يقوى معنوياتهم، ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده فى ذلك المساواة بينهم فى العطاء ولا شك أن المال له أهمية كبرى فى الرفع من شأن الناس وخفضهم، وفى هذا الخبر تبين لنا اهتمامه فى هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخواص، ويختلطوا بهم، حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التى خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم^(١).

١٧- شعوره الكبير بالمسئولية تجاه أفراد المجتمع:

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر: .. إن عمر -رحمة الله عليه- كان قد فرَّغ للمسلمين نفسه، ولأمورهم ذهنه، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليته، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه، فدعا بسراجة الذى كان من ماله، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه، تسيل دموعه على خديه، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها، وتخرج لها نفسه، حتى برق الصبح فأصبح صائماً، فدنوت منه فقلت: يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال: أجل، فعليك بشأنك وخليّنى وشأنى، قالت: فقلت إنى أرجو أن أتَّعظ، قال: إذا أخبرك، إنى نظرت فوجدتُنى قد وليت أمر هذه الأمة؛ أسودها وأحمرها، ثم ذكرت الفقير الجائع، والغريب الضائع، والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير، وأشبه ذلك فى أقاصى البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أن الله سألنى عنهم، وأن رسول الله ﷺ حجيّجى فيهم، فخفت أن لا يقبل الله

(١) التاريخ الإسلامى (١٤٠/١٥).

تعالى منى معذرة فيهم، ولا تقوم لى مع رسول الله ﷺ حجة، فرحمت والله يا فاطمة نفسى رحمة دمعت لها عيني، ووجع لها قلبي، فأنا كلما ازدادت لها ذكراً ازدادت منها خوفاً، فاتَّعْظَى إن شئت أو ذَرَى^(١).

وهذا تقدير بالغ من عمر رحمه الله للمسئولية التى تحملها، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل فى التعرف على أحوال الأمة، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشى أن يكون قد لقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته، فيكون مسئولاً عنه. وفى تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد، فأصبح ذلك دافعاً له إلى العدل والرحمة، والمبالغة فى تفقد أحوال الأمة. وفى بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات، وقوى أمام جميع التحديات، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب فهان عليه كل خطب عظيم، وصغر فى نظره كل أمر جسيم^(٢).

١٨ - فى الإنفاق على الذمى إذا كبر ولم يكن له مال:

الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف، والإسلام يهتم بكل من يعيش على أرضه ولو كان على غير دين الإسلام، وعمر بن عبد العزيز يُجسّد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين، فيقرر أن الذمى إذا كبر ولم يكن له مال ولا حميم ينفق عليه، فإن نفقته فى بيت مال المسلمين^(٣)، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا، بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدى بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين، سلام عليكم، فإننى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارق بقومهم، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه^(٤).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٧٠)، التاريخ الإسلامى (١٥/١٠٧).

(٢) التاريخ الإسلامى (١٥/١٠٨). (٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٣٥٣).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/٣٨٠).

١٩- أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهمًا في طعام المسلمين ثم يأكل معهم، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون من طعامهم فيعطيههم أكثر من ذلك ويأكل معهم، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه^(١).

٢٠- عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه فأقاموا بيباه أيامًا لا يؤذن لهم، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم رجاء بن حيوة - وكان من خطباء أهل الشام - فلما رآه جرير داخلًا على عمر أنشأ يقول:

يا أيها الرجل المرخى عمايته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئًا، ثم مرّ بهم عدى بن أرطاة، فقال له جرير:

يا أيها الرجل المرخى مطيته هذا زمانك إني قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه أنى لدى الباب كالمصفود فى قرن

لا تنس حاجتنا لقيت مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

فدخل عدى على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة، وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عدى، مالى وللشعراء، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ أسوة، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمى فأعطاه حلة قطع بها لسانه، قال: أوتروى من قوله شيئًا؟ قال: نعم، فأنشده يقول:

رأيتك يا خير البرية كلها نشرت كتابًا جاء بالحق معلما

شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلما

ونورت بالتبيان أمراً مدلساً وأطفأت بالقرآن ناراً تضرما

(١) حلية الأولياء (٣١٥/٥ - ٣١٦)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٣٥٦).

قال: ويحك يا عدى، من بالباب منهم، فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطل، وجريير، فرد الجميع إلا جريير فسمح له بالدخول، فدخل جريير وهو يقول:

إن الذى بعث النبى محمداً جعل الخلافة للإمام العادل
وسع الخلائق عدله ووفاءؤه حتى ارعوى فأقام ميل المائل
إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحب العاجل
فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جريير، اتق الله ولا تقل إلا حقاً^(١)، فأنشأ جريير يقول:

أأذكر الجهد والبلوى التى نزلت أم قد كفانى بما بُلِّغْتَ من خبرى
كم باليمامة من شعناء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والنَّظَرِ
ممن يعدُّكَ تكفى فقد والدِه كالفرخ فى العش لم ينهض ولم يطر
يدعوك دعوة ملهوف كأنَّ به خبلاً من الجنِّ أو مساً من البشر
خليفة الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا فى دار منتظر
ما زلت بعدك فى هم يُورقنى قد طال فى الحى إصعادى ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود بادينا ولا يعود لنا بادٍ على حضر
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربُّه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
الخير ما دمت حياً لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: يا جريير ما أرى لك فيما ها هنا حقاً، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صلب ماله مائة درهم... ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإنى عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

(١) المنتظم (٧/٣٧).

رأيت رُقَى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقياً^(١)

وهذا منهج جديد في عهد الدولة الأموية للتعامل مع الشعراء، فقد كان الشعراء يمدحون الملوك والأمراء طلباً لرفدهم، ويدخلون في قصائدهم المبالغات والكذب، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فقصده، فكان موقفه من الشعراء كما تبين من الخبر المذكور، فقطع تلك العادة التي تفسد بنية المجتمع وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغريب والنفاق، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته^(٢). ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين^(٣).

٢١- تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربري:

قرب عمر بن عبد العزيز من الشعراء من التزم شعر الزهد وذكر الموت والخوف من الآخرة، ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سابق البربري^(٤)، فكان يعظ عمر وينشده الشعر، فيتأثر عمر ويبكى. وذات يوم دخل سابق البربري وهو ينشد شعراً فأنتهى في شعره إلى هذه الأبيات:

فكم من صحيح بات للموت آمناً	أته المنايا بغتة بعدما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة	فراراً ولا منه بقوته امتنع
فأصبح تبكيه النساء مُقَنَّعاً	ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحدٍ فصار مقيله	وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع

قال الراوي: ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشى عليه فقمنا، فانصرفنا عنه^(٥).

وقد قال سابق البربري قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثراً بالغاً، وهي:

(١) المنتظم (٩٩/٧). (٢)، (٣) التاريخ الإسلامي (١٧٤/١٥).

(٤) شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرفائق، وهو من موالى بنى أمية، والبربري لقب له، ولم يكن من البربر. سكن الرقة، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز، الأعلام (٦٩/٣).

(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٦١٢/٢)، سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال حمزة، ص (١٨٤).

بسم الذى أنزلت من عنده السُّورُ
إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر
واصبر على القدر المجلوب وارض به
فما صفا لامرئٍ عيش يُسرُّ به
واستخبر الناس عما أنت جاهله
قد يرعوى المرء يوماً بعد هفوته
من يطلب الجور لا يظفر بحاجته
وفى الهدى عبرٌ تشفى القلوبُ بها
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها
والرُّشد نافلة تُهدى لصاحبها
وقد يوبق^(٣) المرءَ أمرٌ وهو يحقره
لا يشبع النفس شىء حين تحرزه
ولا تزال، وإن كانت لها سعة
وكل شىء له حال تغيره
والذكرُ فيه حياة للقلوب كما
والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه
لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً
والموت جسرٌ لمن يمشى على قدم
فهم يمرّون أفواجاً وتجمّعهم

والحمد لله أما بعد يا عمرُ
فكن على حذرٍ قد ينفع الحذرُ
وإن أتاكَ بما لا تشتهى القدرُ
إلا سيتبع يوماً صفوه كدرُ
إذا عميت فقد يجلو العمى الخبرُ
وتحكم الجاهل الأيام والعبرُ
وطالب الحق قد يُهدى له الظفرُ
كالغيث ينضر عن وسميه^(١) الشجرُ
ولا البصير كأعمى ماله بصرُ
والغىُّ يكره منه الوردُ والصدرُ^(٢)
والشئُ يا نفسُ ينمى وهو يُحتصرُ
ولا يزال لها فى غيره وطر
كما تُعيرُ لون اللمة الغير^(٤)
لها إلى الشئ لم تظفر به نظر
يحيى البلاد إذا ما ماتت المطر
كما يُجلّى سواد الظلمة القمرُ
وهل يلين لقول الواعظ الحجرُ؟
إلى الأمور التى تخشى وتُنظرُ
دار إليها يصير البدو والحضرُ

(١) الوسمى: المطر فى أول الربيع.

(٢) الورد: الماء الذى يورد، والقوم يردون الماء، الصدر: الرجوع عن الماء.

(٣) يوبق: يُهلك من وبق. (٤) الغير: تغير الأحداث.

من كان فى معقل للحِرْزِ^(١) أسلمه
حتى متى أنا فى الدنيا أخو كَلَفٍ
ولا أرى أثرًا للذكرِ فى جسدِ
لو كان يسهر عيني ذكر آخرتى
إذا لداويت قلبًا قد أضرب به
ما يلبثُ الشئُ أن يبلى إذا اختلفت
والمرءُ يصعد ريعان الشباب به
وكل بيت خراب بعد جدته
بينما يرى الغُصنُ لدنًا^(٥) فى أرومته
وكم من جميع أشت الدهر شملهم
وربَّ أصيد سامى الطرف معتصب
يظل مفترش الدياج محتجبًا
قد غادرته المنايا وهو مستلب
أبعد آدم ترجون البقاء وهل
لهم بيوت بمستن السيول وهل
إلى الفناء - وإن طالت سلامتهم -
إنَّ الأمور إذا استقبلتها اشتبهت^(٧)
والمرء ما عاش فى الدنيا له أملٌ

أو كان فى خمر لم ينجه خمرٌ
فى الخير منى لذاتها صعر^(٢)
والماء فى الحجر القاسى له أثرٌ
كما يؤرِّقنى للعاجل الشهرُ
طول السقام ووهن العظم ينجبرُ
يومًا على نقضه الروحات والبكر^(٣)
وكل مصعدة يومًا ستنحدر^(٤)
ومن وراء الشباب الموت والكبرُ
ريان أضحى خطامًا جوفه نخرُ
وكل شمل جميع سوف يتشرُ
بالتاج نيرانه للحرب تستعر
عليه تبنى قباب الملك والحجرُ
مُجدَّلٌ ترب الخدين منعفر^(٦)
تبقى فروع لأصل حين ينعقر
يبقى على الماء بيت أسه مدرُ
مصير كل بنى أنشى وإن كثروا
وفى تدبرها التبيان والعبرُ
إذا انقضى سفر منها أتى سفر

(٢) صعر: صعر خده: أماله كبرًا.

(١) الحِرْز: المكان المتبع يُلجأ إليه.

(٣) الروحات والبكر: روعة من الرواح، ويقابله الصباح البكر: أول النهار.

(٤) أى بعد كل صعود نزول؛ ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

(٥) لدنا: طريًا لينًا.

(٦) مُجدَّلٌ: جدَّل: صرع، وفى حديث على رضى الله عنه: يعز على أبا محمد أن أراك مجدلاً تحت النجوم.

(٧) اشتبهت: اشتبه: اختلط الأمر عليه.

لها حلاوة عيشٍ غيرُ دائمة وفي العواقب منها المرُّ والصبرُ
إذا انقضت زمر آجالها نزلت على منازلها من بعدها زمر^(١)
وليس يزجرُكم ما توعظون به والبهمُ يزجرها الراعي فتزجر^(٢)
أصبحتم جزراً للموت يقبضكم كما البهائم في الدنيا لها جزر
لا تبطروا واهجروا الدنيا فإن لها غباً وخيماء، وكفر النعمة البطر
ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غُرراً وليس من أمة إلا لها غُرر^(٣)
حتى تكونوا على منهاج أولكم وتصبروا عن هوى الدنيا كما صبروا
مالى أرى الناس والدنيا مولية وكل حبل عليها سوف ينتر^(٤)
لا يشعرون بما في دينهم نَقصوا جهلاً وإن نقصوا دنياهم شعروا^(٥)
وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بالشعر كثيراً، ومن تلك الأبيات
التي ترنم بها:

ولا خير في عيش امرئ لم يكن له من الله في دار القرار نصيب^(٦)
ومن ذلك أيضاً:
تُسَرُّ بما يبلى^(٧) وتفرح بالمتى كما اغتر باللذات في النوم حالم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم^(٨)
وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز، وهو في جنازة إلى قوم قد تلثموا من
الغبار والشمس، وانحازوا إلى الظل، فبكى وأشد:

- (١) الزمر: مفردها زمرة، وهى الفوج والجماعة.
(٢) انزجر: انقاد - أى أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها .
(٣) الغُرر: جمع غُرّة، وغرة القوم: شريفهم وسيدهم .
(٤) ينتر: انبتر: انقطع .
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، عفت وصال، ص (١٨٧)، الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٨١) .
(٦) البداية والنهاية (٧٠٧/١٢) .
(٧) يبلى: يفنى .
(٨) البداية والنهاية (٧٠٧/١٢) .

من كان حين تصيب الشمسُ جبهته أو الغبارُ يخاف الشَّينَ والشعثا
ويألف الظلَّ كى تبقى بشاشته فسوف يسكن يوماً راعماً جدثا
فى قعر مُظلمةٍ غبراء موحشة يطيل فى قعرها تحت الثرى بُثا
تجهّزى بجهاز تبلّغين به يا نفس قبل الردى لم تُخلقى عبثاً^(١)

٢٢- بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز، وهو والى المدينة، فأمر لى بخمس عشرة ناقة كرائم صعاب^(٢)، فكرهت أن أرمى بها الفجاج فتنتشر علىّ، ولم تطب نفسى ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مُضر، فسألتهم الصعبة، فقالوا: إن خرجت فى ليلتك، فقلت: إتنى لم أودّع الأمير، ولا بدّ من وداعه، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل، فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما، فودّعتهم. فقال لى: يا دكين، إن لى نفساً تواقّة، فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه، فبعين ما أرينك، فقلت: أشهد لى عليك بذلك، فقال: أشهد الله به، قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشخصين، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله، قلت: لقد استسمنت الشاهد، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير^(٣)، فخرجت بهنّ إلى بلدى، فرمى الله فى أذناهنّ بالبركة حتى اعتقدت منهنّ الإبل والغلمان، فإنى لبصحراء فلج^(٤)، إذ ناع ينعى سليمان بن عبد الملك، قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز، فتوجهت نحوه، فلقينى جرير بالطريق جائئاً من عنده، فقلت: يا أبا حذرة من أين؟ فقال: من عند من يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، ولكن عوّل عليه فى مال ابن السبيل، فانطلقت فإذا هو فى عرصة داره^(٥) قد أحاط به الناس، فلم يمكنى الرجل إليه، فناديت:

يا عمر الخيرات والمكارم وعمر الدسائع العظام^(٦)

(١) البداية والنهاية (١٢/٧٠٦).

(٢) الصعاب: جمع صعبة، وهى نقيض الذلول.

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢/٦١١).

(٤) فلج: موضع فى الصحراء.

(٥) عرصة الدار: وسطها.

(٦) الدسائع: العطايا والراغائب الواسعة.

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ قَطْنِ بْنِ دَارِمٍ أَطْلُبُ دَيْنِي مِنْ أَخٍ مَكَارِمٍ
إِذْ نَتَجَى وَاللَّهِ غَيْرَ نَائِمٍ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَلَيْلٍ عَاتِمٍ
عِنْدَ أَبِي يَحْيَى وَعِنْدَ سَالِمٍ^(١)

فَقَامَ أَبُو يَحْيَى فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِهَذَا الْبِدْوَى عِنْدِي شَهَادَةٌ عَلَيْكَ، قَالَ:
أَعْرِفُهَا: اِدْنُ مِنِّي يَا دُكَيْنَ، أَنَا كَمَا ذَكَرْتَ لَكَ، إِنَّ نَفْسِي لَمْ تَنْلِ أَمْرًا إِلَّا تَأَقَّتْ إِلَى
مَا هُوَ فَوْقَهُ، وَقَدْ نَلْتُ غَايَةَ الدُّنْيَا، فَنَفْسِي تَتَوَقَّعُ إِلَى الْآخِرَةِ، وَاللَّهِ مَا رَزَاتُ مِنْ
أَمْوَالِ النَّاسِ شَيْئًا فَأَعْطَيْكَ مِنْهُ، وَمَا عِنْدِي إِلَّا أَلْفَا دِرْهَمٍ، أَعْطَيْكَ أَحَدَهُمَا، فَأَمَرَ
لِي بِالْفِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَلْفًا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ^(٢). وَدُكَيْنُ هُوَ الْقَائِلُ:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عَرِضُهُ فَكُلُّ رِذَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يُضَرَّعْ عَنِ اللَّؤْمِ نَفْسُهُ فَلَيْسَ إِلَى حَسَنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ^(٣)

* مِنْ مَعَالِمِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي التَّغْيِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ:

وَمِنْ خِلَالِ حَيَاةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ يُمْكِنُنَا مَعْرِفَةُ مَعَالِمِ مَنْهَجِهِ فِي
التَّغْيِيرِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالتِّي مِنْ أَهْمِهَا:

١ - الْقِدْوَةُ: حَيْثُ ضَرَبَ مِنْ نَفْسِهِ مَثَالًا رَائِعًا فِي الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ وَمَحَاسِبَةِ النَّفْسِ
وَالْأَهْلِ وَالْعَشِيرَةِ وَإِقَامَةِ الشَّرْعِ عَلَى نَفْسِهِ وَمِنْ حَوْلِهِ.

٢ - التَّدْرِجُ وَالْمَرْحَلِيَّةُ: حَيْثُ أَخَذَ بِسُنَّةِ التَّدْرِجِ فِي الْإِصْلَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ، وَإِمَامَةِ
الْبِدْعِ وَإِحْيَاءِ السُّنَنِ، كَمَا مَرَّ مَعَنَا.

٣ - فَهْمُ النَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ: وَلِهَذَا كَانَ يَتَّبِعُ مَعَ النَّاسِ أَسْلُوبَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
الْحَسَنَةِ، وَيَرْغَبُ وَيَرْهَبُ، وَيُعْطِي شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَتَهَدَّئَةَ النَّفُوسَ، ثُمَّ أَخَذَهَا لِلْحَقِّ
وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ وَإِزَالَةِ الظُّلْمِ.

٤ - تَرْتِيبُ الْأَوَّلِيَّاتِ: فَقَدْ قَدَّمَ رَدَّ الْمَظَالِمِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلِهَذَا انْتَهَجَ
سِيَاسَةً وَاضِحَةً فِي رَدِّ الْمَظَالِمِ، بَدَأَ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ، وَعَزَلَ الْوَلَاةَ

(٢) الشَّعْرُ وَالشَّعْرَاءُ لِابْنِ قَتِيْبَةَ (٢/٦١٢).

(١) نَتَجَى: نَتَجَى.

(٣) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ (٢/٦١٢).

الظلمة، وعين الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم، لإقامة العدل وتطبيق الشرع... إلخ.

٥- وضوح الرؤية فى خطواته الإصلاحية: حيث جدد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة فى الاختيار، عمل على توكيل الأمناء على الولايات، نشره للعدل فى كافة الدولة، إحياءه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح ومحاربته للمعتقدات الفاسدة، اهتمامه بالعلماء وتوظيفه لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية... إلخ من الأعمال فى مجال الاقتصاد، والسياسة والاجتماع حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة، كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب.

٦- التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية: وهدى الخلفاء الراشدين فى رؤيته الإصلاحية، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة فى المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة التى قام بها عمر بن عبد العزيز، والتى من جوانبها الحياة الاجتماعية.

ثانياً: عمر بن عبد العزيز والعلماء:

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء فى مسئوليات الدولة، وقربهم من مصدر القرار السياسى وتأثيرهم فيه، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أصبحت مشاركة العلماء فى إدارة شئون الدولة قوية فعالة، وشاملة متنوعة، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء وساس الدولة كعالم وليس كملك، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء فى عهده فبدأت تؤثر فى مركز اتخاذ القرار فى العاصمة حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته، وأبعد من سواهم، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم، فساهموا فى صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة، وامتدت مشاركتهم فى المسئولية إلى بقية مرافق الدولة، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا: إن الدولة فى عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء، فهى نموذج لما ينبغى أن تكون عليه الدولة الإسلامية، اتحدت فيها السلطة

التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال^(١)، وقد اتسعت مشاركة العلماء فى عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل فى الدولة الأموية، ويرجع السبب فى ذلك إلى أمور، أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الآخر بالعلماء حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أى مبرر فى البعد عن عمر والمشاركة فى أعماله، فمن كان منهم يرى اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم وألا يذهبوا للسلطين ابتداء بل على السلطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفاً على دينه من مخالطتهم، لم يعد لهذا المحذور وجود حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا قدم العلماء على عمر ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه^(٢)، وقالوا كما ذكر ابن عساکر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله^(٣). فهذا ميمون بن مهران الذى يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت: أمره بطاعة، والذى يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه ومع هذا لا يجد لنفسه بداً من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته^(٤). وتتجلى مشاركة العلماء فى عهد عمر فى عدة مظاهر أهمها:

١- قربهم من الخليفة وشد أزره للسير فى منهجه الإصلاحى:

أسهم العلماء فى مساعدة عمر بن عبد العزيز فى السير فى منهجه الإصلاحى، حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر فى اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر عن العالم العامل عراك بن مالك^(٥)، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بنى مروان فى انتزاع ما حازوا من الفىء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف

(١) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١١٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٩٦).

(٣) مختصر تاريخ ابن عساکر نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٧).

(٤) البداية والنهاية نقلاً عن أثر العلماء، ص (١٩٧).

(٥) عراك بن مالك الغفارى المدنى، أحد العلماء العاملين.

لغضب بنى أمية فيما بعد فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد، توليه الخلافة إلى دهلك^(١). وكان عراك بن مالك الغفاري شيخاً كبيراً ومحدثاً وهو تابعي ثقة من خيار التابعين، وكان زاهداً عابداً، وقد انتفع به أهل تلك الجزيرة التي نفى إليها^(٢)، وكان هذا التابعي الجليل يسرد الصوم، وقال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك، وقد مات في منفاه رحمه الله في إمرة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٤هـ^(٣)، وكان ميمون بن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز، فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلت أطف في أمر الأمة أنا وعمر بن عبد العزيز حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التي تكتب فيها بالقلم الجليل، وهي من بيت المال، فكتب إلى الآفاق لتركه فكانت كتبه نحو شبر^(٤). وميمون بن مهران قال عنه الذهبي: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها^(٥)، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رجاجة^(٦)، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة^(٧)، وكان ميمون بن مهران من علماء السلف، ومن له مواقف وأقوال في نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، ولا تَعَلَّمُوا النجوم^(٨). وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إني شيخ كبير رقيق، كَلَفْتَنِي أَنْ أَقْضِيَ بَيْنَ النَّاسِ، وكان على الخراج والقضاء بالجزيرة، فكتب إليه: إني لم أَكَلِّفْكَ مَا يُعْنِيكَ أَجِبِ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَرَجِ، واقض بما استبان لك، فإذا بُسَ عليك شيء، ارفعه إليّ، فإن الناس لو كان إذا كُبرَ عليهم أمرٌ تركوه لم يقيم دين ولا دنيا^(٩). ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه^(١٠).

(١) جزيرة في بحر اليمن ضيقة حرجة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها، سير أعلام النبلاء (٦٤/٥).

(٢) انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص (٣٨، ٣٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦٤/٥). (٤) المصدر نفسه (١٣٣/٥).

(٥) المصدر نفسه (٧١/٥).

(٦) رجاجة: رعا الناس وجهالهم.

(٧) سير أعلام النبلاء (٧٢/٥). (٨) المصدر نفسه (٧٣/٥).

(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٧٤/٥).

وقال: ثلاثة تُؤدَّى إلى البرِّ والفاجر: الأمانة، والعهد، وصلة الرحم^(١). وقال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك، ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم^(٢)، وقال: من أساء سرًّا، فليتب سرًّا، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعير^(٣). وعن جعفر بن برقان: قال لى ميمون بن مهران: يا جعفر قل فى وجهى ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكره^(٤)، وعن أبى المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليات بيوت الرحمن، فليصلى ركعتين، وليسأل حاجته^(٥)، وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تلبون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: أمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب الله^(٦). وقال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبي ولا غيره - إلا بالصبر^(٧). وتوفى ميمون رحمه سنة سبع عشرة ومائة^(٨)، وقيل: سنة ست عشرة ومائة^(٩).

٢- تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسئولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات فى عهد بنى أمية، فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر، وما كتبوه من رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظى، وأبا حازم سلمة بن دينار، والقاسم بن مخيمرة، وحسن البصرى وغيرهم، وكانت نصائح العلماء تتضمن عددًا من التوجيهات التى لها صلة بمنهج عمر السياسى، مما يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذى نبعت منه هذه التوجيهات^(١٠)، فمما جاء فى موعظة محمد بن كعب القرظى: .. يا أمير المؤمنين افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم^(١١)،

(١) سير أعلام النبلاء (٧٤/٥).

(٢-٦) المصدر نفسه (٧٥/٥).

(٧) المصدر نفسه (٧٧/٥).

(٨) المصدر نفسه (٧٨/٥).

(٩) المصدر نفسه (٧٨/٥).

(١٠)، (١١) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (١٩٩).

وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: ... بلغنا أن من ولى على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقتهم وحاجتهم يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول؟ ثم أطرق طويلاً وبرز للناس^(١)، وجاء فى إحدى رسائل الحسن البصرى لعمر: ... أما بعد، يا أمير المؤمنين فكن للمثل أخاً ولل كبير ابناً وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار^(٢)، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك^(٣)، ومما جاء فى رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - المليئة بالتوجيهات: .. فإنه قد كان قبلك رجال عملوا، وأحيوا ما أحيوا، وأتوا ما أتوا حتى ولد فى ذلك رجال ونشؤوا فيه، وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت - ولا قوة إلا بالله - أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح باباً إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء، ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفينى عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعواناً فأناك بهم. وجاء فيها أيضاً: .. فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانه نهياً شديداً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال، المال يا عمر، والدم. الدم فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره^(٤).

وهذه التوجيهات هى عين سياسة عمر فى السعى لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم^(٥).

٣- مشاركتهم فى تولى مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصيحة له، بل تعدت ذلك إلى تولى عدد من المناصب فى مختلف الأقاليم وأهم هذه المناصب وأكثرها أثراً فى سياسة الدولة: الإمارة على الأقاليم، وبيت المال^(٦)،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزى، ص (١١٣). (٢) المصدر نفسه، ص (١٠٣).
(٣) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٩). (٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (١٠٣).
(٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٩٩). (٦) المصدر نفسه، ص (٢٠٠).

وحين نتبع ولادة عمر على الأقاليم نجد أن جلهم من العلماء فمن ذلك: الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة^(١)، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة^(٢)، والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقية^(٣)، والفقيه المحدث عدى بن عدى الكندى على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان^(٤)، والإمام القاضي عبادة بن نسي على الأردن^(٥)، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدي على اليمن^(٦)، والقاضي الفاضل سالم بن وابصة العبدى على الرقة^(٧)، وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء ومنهم: العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة^(٨)، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائي على الخراج^(٩)، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن، وأبو زناد، وتولى عمر بن ميمون البريد لعمر بن عبد العزيز^(١٠). ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة، وبيوت الأموال في مختلف الأقاليم الأثر الكبير في ضبط شئون الدولة الإدارية والمالية، وما ترتب على ذلك من آثار حسنة في الحياة السياسية في عهد عمر بن عبد العزيز^(١١).

ثالثاً: المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

تحدث في كتابي عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن المدارس العلمية، واتخاذها من عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة، فشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادراً علمية وفقهية ودعوية متميزة، ساندت المؤسسة العسكرية التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامي

-
- (١) سير أعلام النبلاء (١٤٩/٥).
(٢) المعرفة والتاريخ (٦٤٥/١).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١٣/٥).
(٤) مختصر تاريخ دمشق (٣٢/١٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٣٢٣/٥).
(٦) تهذيب التهذيب (١٨٦/٦).
(٧) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٢٠١).
(٨) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (٧٨).
(٩ - ١١) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (٢٠٢).

من أبناء المناطق المفتوحة، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقه الحاجز اللغوى، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم، لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية فى المناطق المفتوحة، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التى نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويرجع الفضل - بعد الله - فى نقل ما تلقاه الصحابة، من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسى المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار^(١). وقد استمرت مدارس التابعين فى النشاط العلمى فى عهد الدولة الأموية وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحى التجديدى الراشدى المنضبط بمنهاج النبوة، ومن أهم تلك المدارس:

١- مدرسة الشام:

تأسست فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأشهر مؤسسيها من الصحابة، معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وعباد بن الصامت رضى الله عنهم، وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ومن أشهرهم:

أ- الإمام الفقيه أبو إدريس الخولانى، عائد بن عبد الله: قاضى دمشق وعالمها، روى عن أبى الدرداء، وأبى هريرة وابن عباس وخلق غيرهم، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبى الدرداء قال: أدركت أبى الدرداء ووعيت عنه، وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس ووعيت عنهما^(٢). كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه فى الدين وعلم الحلال والحرام، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن، فعن يزيد بن عبيدة أنه رأى أبا إدريس فى زمن عبد الملك بن مروان، وحلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن، يدرسون جميعاً، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمدة، فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها، وأنصتوا له وسجد بهم جميعاً... حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقص^(٣). وعن يزيد بن أبى مالك، قال: كنا

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٥).

(١) الدور السياسى للصفوة، ص (٤٦٢، ٤٦٣).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ٢٧٤).

فجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس: أحضرت هذه الغزوة؟ فقال: لا، وقال الرجل: قد حضرتها مع رسول الله، ولأنت أحفظ لها مني^(١)، وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء، وولى أبا إدريس^(٢). ثم إن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص، وأقره على القضاء، فقال أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتى وتركتموني فى رهبتى^(٣). توفى عام ٨٠هـ^(٤).

ب - الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي: روى عن عمر بن الخطاب، وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم. كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث، قال الشعبي: كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت^(٥)، قال عنه مكحول: ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة^(٦)، وعن ابن شهاب، قال: كان قبيصة ابن ذؤيب من علماء هذه الأمة^(٧)، توفى سنة ٨٦ هـ وقيل: ٨٧ هـ، وقيل: ٨٨ هـ^(٨). وقد توسعت فى ترجمته عند حديثي عن عبد الملك.

ج - رجاء بن حيوة الفلستيني: من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعباد بن الصامت وطائفة^(٩)، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم^(١٠)، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال: من لم يؤاخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاثب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه^(١١). كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز، وأجرى الله على يديه الخيرات، ثم إنه بعد ذلك أُخِّرَ، فأقبل على شأنه^(١٢)، توفى سنة ١١٢ هـ^(١٣).

د - مكحول الشامي الدمشقي: عالم أهل الشام، عداؤه فى أواسط التابعين من أقران الزهري، سمع من وواثية بن الأسقع، وواثلة آخر من مات من الصحابة

(٤) المصدر نفسه (٢٧٦/٤).

(٣ - ١) سير أعلام النبلاء (٢٧٥/٤).

(٩) المصدر نفسه (٥٥٩/٤).

(٥ - ٨) المصدر نفسه (٢٨٣/٤).

(١١) سير أعلام النبلاء (٥٥٨/٤).

(١٠) الفتوى: نشأتها وتطورها، د. حسين الملاح، ص (٨٥).

(١٣) المصدر نفسه (٥٦١/٤).

(١٢) المصدر نفسه (٥٦٠/٤).

بدمشق^(١)، وتوفى عام ٨٥ هـ وله ثمان وتسعون سنة^(٢)، قال عنه الزهرى: العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة. والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام^(٣). وكان مكحول أفقه أهل الشام، ولم يكن فى زمنه أبصر بالفتيا منه^(٤). توفى ١١٢ هـ وقيل: ١١٣ هـ وقيل: غير ذلك^(٥).

هـ- عمر بن عبد العزيز: ومن علماء المدرسة الشامية والمدينة وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة، وكان معروفًا بالفقه بصيرًا بالسنة، يرجع إليه القضاة فى الأمور التى يختلفون فيها^(٦). وقد بدأت بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت فى عاصمة الخلافة الأموية.

و- بلال بن سعد السكونى: الإمام الربانى الواعظ أبو عمرو الدمشقى شيخ أهل دمشق كان لأبيه صحبة، كان بليغ الموعظة، حسن القصص، نافعًا للعامة، وكان لأهل الشام كالحسن البصرى بالعراق وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت^(٧) يقول الأوزاعى: لم أسمع واعظًا قط أبلغ من بلال بن سعد^(٨)، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التقي إنكم لم تُخلقوا للفناء، وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأضلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود فى جنة أو نار^(٩). ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت^(١٠). وقال الأوزاعى سمعته يقول: والله لكفى بنا ذنبًا أن الله يزهنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها^(١١). وقد توفى سنة نيف وعشرة ومائة.

٢- المدرسة المدنية:

لما انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة فى استخراج أحكام إسلامية، تصلح لما جد من شئون فى المجتمعات الإسلامية، بعد الفتوح التى كثرت، وفى عهد عمر

(٣) المصدر نفسه (١٥٨/٥).

(٥) المصدر نفسه (١٥٩/٥، ١٦٠).

(٧) سير أعلام النبلاء (٩٠/٥، ٩١).

(١١) المصدر نفسه (٩٢/٥).

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٣٨٦/٣).

(٤) المصدر نفسه (١٥٩/٥).

(٦) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (٥٤/١).

(٨-١٠) المصدر نفسه (٩١/٥).

ابن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون (١٣٠) مائة وثلاثين صحابياً، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر، وعلى، وعبد الله بن مسعود، وعائشة، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر^(١)، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وسليمان بن يسار، ونافع مولى ابن عمر^(٢)، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز.

٣- المدرسة المكية:

احتلت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين، الساكنين والثائبين إلى بلد الله الحرام، الحجاج والعمار والزوار، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنى أن يراها، ولقد كان العلم بمكة يسيراً زمن الصحابة، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين، وزمن أصحابهم، كابن أبي نجيح، وابن جريج^(٣)، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بجبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما، الذى صرف جل همه، وغاية وسعه إلى علم التفسير، وربى أصحابه على ذلك، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية في هذا العلم، وأهم هذه الأسباب والأساس فيها إمامة ابن عباس رضى الله عنهما وأستاذيته لها^(٤)، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية:

أ- مجاهد بن جبر المكي: أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة، كان فقيهاً عالماً ثقة من أوعية العلم^(٥)، وعن مجاهد قال: عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أوقفه عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت^(٦)، وقال قتادة: أعلم من بقى بالتفسير مجاهد^(٧)، وقال مجاهد: صحبت ابن عمر

(١) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٤٥/٢).

(٢) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨١، ٨٢).

(٣) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدى (٤٨/٢).

(٤) تفسير التابعين، د. محمد الخضرى (٣٧١/١).

(٥) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨٠).

(٦) المصدر نفسه (٤٥١/٤).

(٧) سير أعلام النبلاء (٤٥١/٤).

وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني^(١)، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ثم على عمر بن عبد العزيز، وشهد وفاته. وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز فى مرض وفاته: يا مجاهد ما يقول الناس فى؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتنى السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وأن أعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها فى بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد^(٢)، وقال مجاهد: ما أدرى أى النعمتين أعظم، أن هدانى للإسلام، أو عافانى من هذه الأهواء^(٣). قال الذهبى معلقاً على قول مجاهد: مثل الرقص والقدر والتجهّم^(٤). وعن عبد الوهاب بن مجاهد، قال: كنت عند أبى فجاء ولده يعقوب فقال: يا أبتاه، إن لنا أصحاباً يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد. فقال: يا بنى ما هؤلاء بأصحابى، لا يجعل الله من هو منغمس فى الخطايا كمن لا ذنب له^(٥)، ومات مجاهد سنة اثنتين ومائة وهو ساجد^(٦)، وكان عمره ثلاثاً وثمانين سنة^(٧).

ب - عكرمة مولى ابن عباس: كان مكيّاً تابعياً ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس، وعائشة، وأبى هريرة، وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلى ابن أبى طالب^(٨)، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتى بالباب وابن عباس بالدار، وعن عكرمة أن ابن عباس رضى الله عنه قال له: انطلق فأفت الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هؤلاء الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس^(٩)، وكان عكرمة كثير الأسفار ونزل على عبد الرحمن الحساس الغافقى، وصار إلى إفريقية^(١٠)، وقد اتهم عكرمة بالصفورية - فرقة من فرق الخوارج - ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال^(١١)، وقد

(٢) المصدر نفسه (٤/٤٥٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٢).

(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (٤/٤٥٥).

(٦) طبقات ابن سعد (٥/٤٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٥).

(٨) المصدر نفسه (٥/١٣).

(٧) سير أعلام النبلاء (٤/٤٥٦).

(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٥/١٥).

(١١) براءة السلف عما نسب إليهم من انحراف فى الاعتقاد، ص (٣٩).

دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر، ونقل ذلك ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة^(١). وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة^(٢)، توفي سنة ١٠٥هـ-^(٣).

ج- عطاء بن أبي رباح: مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة، روى عن ابن عباس وأبي هريرة، وأم سلمة، وعائشة، ورافع بن خديج، وزيد بن أرقم، وابن الزبير، وابن عمرو، وابن عمر، وجابر، ومعاوية، وأبي سعيد، وعدة من الصحابة^(٤). وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون عليّ وعندكم عطاء، ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بنى أمية يأمرهم في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح. توفي سنة ١١٥هـ^(٥). هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي^(٦).

٤- المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين، وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس ابن مالك رضي الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين، أمثال الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيع بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي مسيرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم^(٧). ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ- محمد بن سيرين البصري: كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم^(٨)، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند

(١) مقدمة الفتح، ص (٤٢٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٣١/٥).

(٣) المصدر نفسه (٧٩/٥).

(٤) الفتوى، د. حسين الملا، ص (٨١)، سير أعلام النبلاء (٧٨/٥).

(٥) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (٤١/١).

(٦) تفسير التابعين (٢٣٩/١)، عمر بن الخطاب للصّلّاني، ص (٢٦٠).

(٨) سير أعلام النبلاء (٦٠٦/٤).

عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختياني - وكان جالساً - والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله^(١)، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين^(٢). وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له ليُصلّ عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً^(٣).

وكان محمد بن سيرين يصوم يوماً ويفطر يوماً^(٤)، وكان قد اشتهر بتفسير الأحلام وهو أشهر من يعرف في هذا الباب، قال عنه الذهبي: قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب، وكان له في ذلك تأييد إلهي^(٥). وكان يلبس الثياب الثمينة والطيبالس والعمائم^(٦)، وكان صاحب ضحك ومزاح^(٧)، وكان باراً بأمه، قالت حفصة بنت سيرين: كانت والدته محمد حجازية وكان يعجبها الصبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد، صبغ لها ثياباً، وما رأيته رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغى إليها^(٨)، وعن ابن عون: أن محمداً كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها^(٩). وقال ابن عون: كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم. وجاءه ناس فقالوا: إنا نلنا منك فاجعلنا في حلّ، قال: لا أحلّ لكم شيئاً حرّمه الله^(١٠). توفي ابن سيرين بعد الحسن البصري بمئة يوم، سنة عشر ومئة^(١١).

ب - قتادة بن دعامة السدوسي: كان من أوعية العلم، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين، وكان ثقة حجة في الحديث^(١٢)، قال عنه أحمد بن حنبل: كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء، ثم وصفه بالفقه والحفظ وقال: قلما تجد من يتقدمه^(١٣). وقال: كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه،

(١)، (٢) سير أعلام النبلاء (٤/٦٠٨).

(٣) المصدر نفسه (٤/٦١٠).

(٤) المصدر نفسه (٤/٦١٥).

(٥) المصدر نفسه (٤/٦١٨).

(٦) المصدر نفسه (٤/٦١٩).

(٧) المصدر نفسه (٤/٦١٣).

(٨) المصدر نفسه (٤/٦١٩).

(٩)، (١٠) المصدر نفسه (٤/٦٢٠).

(١١) المصدر نفسه (٤/٦٢١).

(١٢) الفتوى، د. حسين الملاح، ص (٨٤).

(١٣) سير أعلام النبلاء (٤/٢٧٦).

قرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها^(١). قال سلام بن مطيع: كان قتادة يختتم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث^(٢). قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين^(٣)، كان رأساً في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها^(٤)، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة، وصلى معه الصبح ثلاث سنين^(٥)، توفي سنة ثمانى عشرة ومائة^(٦).

٥- المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضى الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة ووجه عبد الله بن مسعود، واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى منهم: علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي^(٧) وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ- عامر بن شرحبيل الشعبي: كان علامة عصره ومن أفقهم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وجمهرة غيره حتى قيل إنه أدرك خمسمائة من الصحابة^(٨)، لذلك كان صاحب آثار، كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة، ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول: لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم^(٩)، وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكننا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل^(١٠)، ومن نكاته اللاذعة، ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبي، فقال: ما اسم امرأة أليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته^(١١)، توفي سنة أربع ومائة، وقيل: ست ومائة، وقيل: خمس ومائة^(١٢).

(٢) المصدر نفسه (٢٧٦/٤).

(٤) المصدر نفسه (٢٧٧/٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/٤).

(٣) المصدر نفسه (٢٧٠/٤).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (٢٨٣/٤).

(٧) فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص (٢٦٤).

(٩) الفتوى، د. الملاح، ص (٨٣).

(١١) المصدر نفسه (٣١٢/٤).

(٨) سير أعلام النبلاء (٢٩٨/٤).

(١٠) سير أعلام النبلاء (٣٠٣/٤).

(١٢) المصدر نفسه (٣١٨/٤).

ب - حماد بن أبي سلمة: فقيه أهل العراق، روى عن أنس بن مالك، وتلمذ على يدى إبراهيم النخعي وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمنظرة^(١). وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء، له ثروة وحشمة وتجلُّ^(٢)، وكان أفقه أهل الكوفة على ابن مسعود، وأفقه أصحابها علقمة، وكان أفقه أصحابه إبراهيم، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد، وأفقه أصحاب حماد أبا حنيفة، وأفقه أصحابه أبا يوسف، وانتشر أصحاب أبي يوسف فى الآفاق، وأفقههم محمد، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعى^(٣) رحمهم الله تعالى. وقد توفى حماد سنة عشرين ومائة^(٤).

٦- المدرسة اليمنية:

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا فى دخول الإسلام فيها معاذ بن جبل، على بن أبى طالب، وأبو موسى الأشعرى وغيرهم، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميرى، الحديث والمحدثون فى اليمن فى عصر الصحابة، ومن أشهر علماء التابعين فى المدرسة اليمنية:

أ - طاووس بن كيسان: فقيه أهل اليمن وقدرتهم، وأعلمهم بالحلل والحرام من سادات التابعين، روى عن ثلة من الصحابة الكرام، كزيد بن ثابت وأبى هريرة، وزيد بن أرقم، وابن عباس وهو معدود من كبار أصحابه^(٥). وروى عن معاذ مرسلًا^(٦). كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له^(٧)، كان فقيهاً جليلاً، بركة لأهل اليمن^(٨). أدرك خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ^(٩). قال له عمر بن عبد العزيز فى عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لى إليه حاجة، فكأن عمر عجب من ذلك^(١٠). ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج^(١١). وقال: البخل أن يبخل الرجل بما فى يديه، والشح أن

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).

(٥)، (٦) المصدر نفسه (٥/ ٣٩).

(١) الفتوى، د. الملاح ص (٨٣).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٦).

(٧) المصدر نفسه (٥/ ٣٨).

(٨) الفتوى.. نشأتها وتطورها، أصولها وتطبيقاتها، ص (٨٥).

(١٠) المصدر نفسه (٥/ ٤١).

(٩) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣).

(١١) المصدر نفسه (٥/ ٤٢).

يحب أن يكون له ما فى أيدى الناس^(١). وقال عنه قيس بن سعد الطاووس: فىنا مثل ابن سيرين فىكم. وقال ابن المدىنى: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاووس أحداً^(٢). وكان -رحمه الله- معتزلاً بالأمراء والسلطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفى بمكة سنة ست ومائة للهجرة^(٣).

ب - وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه، من أبناء فارس كان ينزل دمار^(٤). وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة^(٥). وقال عنه الذهبى: الإمام العلامة، الإخبارى القصصى. وقال العجلى: تابعى ثقة كان على قضاء صنعاء، وذكره الشيرازى فى فقهاء التابعين باليمن^(٦). وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر فى محاربة الخوارج فى اليمن وتحذير الناس من آرائهم^(٧)، وإليك حواراه مع أبى شمر الخولانى لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبى شمر الخولانى: إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريره، فأخبرنى أنه عرض له نفر من أهل حروراء - يعنى الخوارج - فقالوا له: زكاتك التى تؤديها إلى الأمر لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها فى موضعها، فأدها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامى، فقال: يا ذا خولان أترى أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟ فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله؟ ومن شهدت عليه، فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت تشهد عليه بالضلالة، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرنى يا ذا خولان ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك، وقال لوهب: إنهم يأمرونى أن لا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ولا أستغفر إلا له، فقال: صدقت، هذه محتتهم الكاذبة، فأما قولهم فى الصدقة، فإنه قد بلغنى

(١) سير أعلام النبلاء (٤٨/٥).

(٢) الطبقات (٥٤١/٥)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٩/٥). (٤) دمار: مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء.

(٥) علماء الأمصار للبستى، ص (١٢٣). (٦) طبقات الفقهاء، ص (٦٦).

(٧) أثر العلماء فى الحياة السياسية فى الدولة الأموية، ص (٦٦٧).

أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها^(١)، أفإنسان مما يعبد الله ويوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. وأما قولهم: لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة، والله يقول: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]. وجاء ميسراً ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]، واستمر معه فى الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان: فما تأمرنى؟ قال: انظر زكاتك فأدّها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة، وجمعهم عليهم، فإن الملك من الله وحده وبيده، يؤتیه من يشاء، فإذا أدبتهأ إلى والى الأمر برئت منها، وإن كان فضل فصل به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف، فقال: أشهد إنى نزلت عن رأى الحرورية^(٢). توفى وهب -رحمه الله- سنة عشر ومائة فى خلافة هشام بن عبد الملك^(٣)، وقيل: إن يوسف ابن عمر والى اليمن ضربه حتى قتله^(٤)، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه^(٥).

٧- المدرسة المصرية:

تكونت فى مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح، ونزلوا فى موضع الفسطاط والإسكندرية، ومن هؤلاء عمرو بن العاص، عبد الله ابن عمرو بن العاص، الزبير بن العوام، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً فى مصر عقبة بن عامر رضى الله عنه^(٦)، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل فى دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم^(٧)، وجاءت طبقة التابعين، وكان منهم أئمة ودعاة، ومن هؤلاء:

(١) مسلم رقم (٢٢٤٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٥٥/٤)، الحرورية: الخوارج.

(٣) المصدر نفسه (٥٥٦/٤)، أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٧).

(٤) سير أعلام النبلاء (٥٥٦/٤). (٥) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (٦٦٧).

(٦) عمر بن الخطاب للصلاوى، ص (٢٧٠).

(٧) الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (٥٧/١).

يزيد بن أبى حبيب: الإمام الحجة، مفتى الديار المصرية، أبو رجاء الأزدي كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود^(١). قال عنه الليث ابن سعد: يزيد بن أبى حبيب سيدنا وعالمنا^(٢). توفي سنة ثمان وعشرين ومائة^(٣).

٨ - مدرسة شمال إفريقيا:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقيا وكان على رأسهم عمرو بن العاص ثم عبد الله بن سعد بن أبى السرح رضى الله عنهم، ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولى معاوية بن أبى سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار فى الناس سيرة حسنة، وكان من خيار الولاة والدعاة، الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة، ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه^(٤). وفى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل ابن أبى المهاجر والياً على إفريقية سنة مائة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيهم فى الحلال والحرام، وكان عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام، حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام^(٥)، وسيأتى الحديث عن الفقهاء العشرة فى محله بإذن الله: ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف، وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية، ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكى الأئمة للتعليم والتعلم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

رابعاً: منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم:

سلك التابعون منهجاً واضحاً فى تفسير القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

(١) سير أعلام النبلاء (٣١/٦).

(٤) البيان المغرب للمراكشى (١٩/١)، الدعوة إلى الله (٦١/١).

(٥) البيان المغرب (٤٨/١)، الدعوة إلى الله فى العصر العباسى الأول (٦٢/١).

١ - تفسير القرآن بالقرآن: تعددت طرق التابعين في تفسير القرآن بالقرآن، ومن هذه الطرق:

أ - نظائر القرآن الكريم: كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه، وإن اختلف اللفظ، وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]. قال: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] حتى فرغ منها^(١). وجاء عن عكرمة، والحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فأذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]. وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]. ف قيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) [البقرة: ٩٤].

ب - الأشباه: والمراد بالأشباه تفسير الآية بما يشبهها من الآيات، كتفسير الآية بالآيات التي تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ^(٣)، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير النفس بالغير، فإنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. قال لهم خيرًا، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. يقول: بعضكم بعضًا ﴿فَسَلِمُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. قال: يسلم بعضكم على بعض^(٤). ففسر مجاهد هنا

(١) تفسير الطبرى (٥٤٥/١)، زاد المسير (٦٩/١).

(٢) فتح القدير (١١٦/١)، تفسير التابعين (٦١٤/٢).

(٣) تفسير التابعين (٦١٥/٢).

(٤) تفسير الطبرى (٩٦/١٨)، تفسير التابعين (٦١٥/٢).

النفس بالغير، واستدل بورود ذلك فى آيات متشابهة فى القرآن تدل على هذا الجزء من المعنى^(١).

ج - الدلالة على التفسير بالسياق: وفى هذا النوع يلحظ المفسر منهم سياق الآية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها، سواء كان ذلك فى الآية نفسها، أو فى مجموعة من الآيات^(٢)، مثل تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مجاهد فى تفسيرها: هى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾^(٣) [الأنعام: ٨٢].

د - بيان الجمل: وفى هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر فى آيات القرآن التى فيها إجمال، وينظر فى الآيات الأخرى التى يمكن أن تكون بياناً لهذا الإجمال، كحمل الجمل على المبين، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه^(٤). فأشار بقوله إلى الآيات التى فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾^(٥) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ^(٦) ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

هـ - تفسير العام بالخاص: وفى هذا يعتمد المفسر، منهم إلى آية ظاهرها العموم، فيحملها على معنى آخر ذكرت فرداً من أفراد العموم^(٧)، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال الحسن البصرى: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] قال: من الكفار^(٨). وفى رواية عنه قال: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ يعنى الكفار، لا يعنى بذلك أهل الصلاة^(٩). فالآية الأولى جاء فيها العموم فى لفظة «من» ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فيبين أنها

(٢) المصدر نفسه (٦١٧/٢).

(١) تفسير التابعين (٦١٦/٢).

(٣) تفسير الطبرى (٥٠٥/١١).

(٥) تفسير التابعين (٦٢١/٢).

(٤) تفسير الطبرى (٢٦/٢٩)، الدر المنثور (٢٩١/٨).

(٧) تفسير الطبرى (٢٣٨/٩).

(٦) تفسير الطبرى (٢٣٧/٩)، زاد المسير (٢١٠/٢).

خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر فى الآية الثانية^(١). وأصرح من ذلك ما جاء عنه فى تفسير الآية نفسها أنه قال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة ﴿وَعَدَ الصِّدِّقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾^(٢) [الأحقاف: ١٦].

و - التفسير باللازم: المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيراً للآية التى هو بصدددها، بل يذكر شيئاً من لوازم ذلك، ويربطه بآية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد بن جبير فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فقد قال: لو أعطيتها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾^(٣) [يوسف: ٨٤]. إنه لم يكن يعرف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وإلا لقالها، بدلاً من تأسفه على ذهاب يوسف^(٤).

ز - توضيح المبهم: ومن طرق التفسير التى اتبعها التابعون - أيضاً - إيضاح مبهم آية بآية أخرى لإزالة الإبهام^(٥)، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع فى لفظة «الحين»، استدلت بالآية التى تبين أن المراد منه سنة، فعنه أنه قال: أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إنى حلفت أن لا أفعل كذا وكذا حيناً، فما الحين الذى تعرف به؟ قلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، ومن الحين حين يدرك، وأما الحين الذى لا يدرك فقول الله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١]. والله ما يدركى كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذى يدرك فقلوه: ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]. فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت^(٦).

ح - بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكل: وقد كثر هذا النوع فى تفسير التابعين، فصاروا يتناولون آيات القرآن بالتفسير بآيات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).

(٣) تفسير الطبرى (٣/ ٢٢٤).

(٥) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٤).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٣).

(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨١).

الألفاظ^(١)، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصري ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحي الموتى، ثم تلا الحسن: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^(٢) [الزمر: ٦٨]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقرآن بالقرآن، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين^(٣).

٢- تفسير القرآن بالسنة: لا شك أن السنة مبينة للقرآن موضحة له، قال الشاطبي: وهي راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره^(٤)، وذلك لأن النبي ﷺ هو أعلم بكلام الله، وأكثر قدرة على فهم نصوص الآيات من غيره، مع ما أوحاه الله تعالى من المعاني، فهو ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣]، وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»^(٥). يقول ابن تيمية: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن... إلى أن يقول: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]^(٦). وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب والعمل بها حتم، وتحكيمها فرض، بل جاء عن مكحول التابعي أنه قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن^(٧). وقد كثر عن التابعين النقول التي تدل على شدة

(١) تفسير الطبري (٦٢٦/٢).

(٢) تفسير الطبري (٣١/٣٠)، تفسير التابعين (٦٢٧/٢).

(٣) تفسير التابعين (٦٠٨/٢ - ٦٢٧). (٤) المصدر نفسه (٦٢٨/٢)، الموافقات (١٢/٤).

(٦) الفتاوى (٣٦٣/١٣).

(٥) سنن أبي داود رقم (٤٦٠٤).

(٧) تفسير التابعين (٦٢٩/٢)، تفسير القرطبي (٣٠/١).

متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهري: إذا سئلت عن مسألة فكيف تضع؟ قال: أحدث فيها بما جاء عن النبي ﷺ، فإن لم يكن عند النبي ﷺ فعن أصحابه، فإن لم يكن عن أصحابه اجتهدت رأيي^(١)، ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروى عنه ﷺ أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره، وفيما يلي بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ- فمن هذا ما جاء عنه ﷺ في تفسير قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦]. قال ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»^(٢). وبذلك فسرهما مجاهد^(٣)، وسعيد بن جبير^(٤) وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾ بالنصارى^(٥).

ب- ومنه أيضاً ما صح عنه ﷺ في بيان قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال ﷺ: «هو سواد الليل وبياض النهار»^(٦)، ولم يخالف في ذلك أحد من التابعين، وبه قال الحسن^(٧)، وقتادة^(٨).

ج- من ذلك ما جاء عنه ﷺ في تفسير معنى الظلم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»^(٩). وهذا هو المنقول عن التابعين، قال به: إبراهيم النخعي، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير^(١٠).

د- ومنه ما جاء عنه ﷺ في تفسير للسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. قال ﷺ لأبي سعيد بن المولى: «ألا

(١) جامع بيان العلم وفضله (٧٥/٢)، تفسير التابعين (٦٣٧/٢).

(٢) موارد الظمان في زوائد ابن حبان رقم (٢٢٤). (٣) تفسير الطبري (١٨٨/١).

(٤) الدر المنثور (٤١/١).

(٥) تفسير ابن أبي حاتم رقم (٢٢)، تفسير التابعين (٦٣٨/٢).

(٦) البخاري، ك التفسير، الفتح (١٨٢/٨). (٧)، (٨) تفسير الطبري (٥١٠/٣).

(٩) البخاري، ك التفسير، الفتح (٢٩٤/٨). (١٠) تفسير التابعين (٦٣٩/٢).

أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١). وهذا التفسير هو المروى عن سعيد بن جبير والحسن، ومجاهد، وقتادة^(٢).

هـ- ومن ذلك بيانه ﷺ لمعنى: الأمة الوسط، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ففى الحديث عن النبي ﷺ فى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عَدُولًا»،^(٣) وبهذا التفسير قال: مجاهد، وعطاء وقتادة^(٤). هذه بعض الأمثلة التى اعتمدها التابعون فى تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة: إن التابعين ما علموا كيفية التلقى من الكتاب والسنة وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيدي الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم طرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملى لذلك كله. ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ^(٥)، وكان التابعون يقدمون قول الصحابي على قولهم، يقول الشعبي: إذا اختلف الناس فى شيء فانظر كيف صنع عمر، فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، فقال أشعث -: راوى الأثر - فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره^(٦)، وكان منهج التابعين فى الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ- إذا كان تفسير الصحابي يرفعه للنبي ﷺ، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابي، وهو وارد فى سبب النزول بالصيغة الصريحة^(٧)، وكذلك فيما لا مجال للرأى فيه، فهذا يقفون

(١) البخارى، ك التفسير، الفتح (٣٨١/٨).

(٢) تفسير التابعين (٦٤١/٢).

(٣) مجمع الزوائد (٣١٦/٦)، رواه أحمد (٩/٣) صحيح.

(٤) تفسير التابعين (٦٤١/٢).

(٥) إعلام الموقعين (١٥/١)، تفسير التابعين (٦٥١/٢).

(٦) الحلية (٣٢٠/٤)، تفسير التابعين (٦٥٣/٢).

(٧) أى سبب نزول كذا هو كذا وكذا، أو حدث كذا ونزل كذا.

عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابي شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. فقد قال فيها ابن عباس رضى الله عنهما: إن لملك الموت أعواناً من الملائكة، رواه عنه إبراهيم^(١). ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاعتصار على قول ابن عباس ولم يزد عليه شيئاً، فقال: أعوان ملك الموت^(٢)، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد والربيع^(٣).

ب - وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابي من باب الاجتهاد، وكان جارياً على مقتضى اللغة، فإنهم في الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿فَمَسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض والمستودع عند الرحمن^(٤). وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر في الرحم، والمستودع في الصلب^(٥)، موافقة للرواية الثانية، وهكذا كان حال ابن جبير في تفسير الآية^(٦).

ج - إذا تعارضت الأقوال المنقولة في الصحابة، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث، أو بقول صحابي آخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. جاء عن ابن عباس في تفسيرها أن دلوها غروبها^(٧)، وجاء عنه أن دلوها: زيغها بعد نصف النهار^(٨)، وجاء عن ابن مسعود أن دلوها غروبها^(٩)، وجاء عنه أيضاً أن دلوها ميلها يعني: الزوال^(١٠). فاختار قتادة أن دلوها زوالها، ففسرها به^(١١)، مع أنه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود^(١٢)، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلو هو الميل، فيكون المراد

(٢) تفسير الطبري (١١/ ٤١٠).

(١) تفسير الطبري (١١/ ٤١٠)، زاد المسير (٣/ ٥٥).

(٣)، (٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٥٨).

(٦) تفسير الطبري (١١/ ٥٧٠).

(٥) تفسير الطبري (١١/ ٥٧٠)، زاد المسير (٣/ ٩٢).

(٨) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).

(٧) المصدر نفسه (١٥/ ١٣٤).

(١٠) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).

(٩) زاد المسير (٥/ ٧٢).

(١١)، (١٢) زاد المسير (٥/ ٧٢).

صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير، وناقش الأول^(١)، وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه^(٢)، فرجح الحسن أنها صلاة العصر^(٣)، متابعا في ذلك عدداً من الصحابة رضى الله عنهم، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذى رواه الحسن عن سمرة أن النبى ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»^(٤). وقد يكون الترجيح بقول صحابى آخر يقدم به عموم الآية على ما ورد فى خصوصها، ويجمع به بين الأقوال، فمن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من الصحابة أنه نهر فى الجنة^(٥)، وعن ابن عباس أنه الخير الكثير الذى أعطاه الله إياه^(٦)، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير، فقال أبو بشر لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه^(٧)، فهنا رجح ابن جبير العموم فى الآية مستنداً لقول ابن عباس، ولم يذهب إلى خصوص الأثر الوارد فى ذلك، أما إذا لم يكن ثمة مروي عن الصحابة فى ذلك، فعندئذ يدخل منهم من يدخل فى باب الاجتهاد^(٨). وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها فى التفسير، إلى ظهور نتائج وآثار ترتبت على ذلك منها، حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم، والالتزام بمناهجهم والإفادة منها، وتبنى أقوالهم^(٩).

٤- اللغة العربية: لقد تنوعت مشارب التابعين فى اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدراً من مصادر التفسير، وذلك لعدة أسباب منها، معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم، والإلمام بأشعار العرب، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق، والإيجاز والحذف، والتقديم والتأخير، وغير ذلك من الأسباب^(١٠).

٥- الاجتهاد: ظهرت اجتهادات التابعين فى التفسير، حتى إبان عهد الصحابة، وشملت إجهاداتهم مواطن كثيرة، غالبها مما سكت عنه الصحابة ومن أهمها:

- | | |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| (١) تفسير الطبرى (١٥/١٣٦، ١٣٧). | (٢) زاد المسير (١/٢٨٢). |
| (٣) تفسير التابعين (٢/٦٦١). | (٤) تفسير الطبرى (٥/١٩٤) رقم (٥٤٣٨). |
| (٥) زاد المسير (٩/٢٤٨). | (٦) الدر المنثور (٨/٦٤٩). |
| (٧) زاد المسير (٩/٢٤٨). | (٨) تفسير التابعين (٢/٦٦١). |
| (٩) المصدر نفسه (٢/٦٧٢ - ٦٧٧). | (١٠) المصدر نفسه (٢/٦٨٩ - ٧٠٧). |

أ- بيان المراد من النص، وذلك إذا كان النص خفى الدلالة بسبب إجمال فى اللفظ أو التركيب.

ب- استنباط بعض الأحكام من النصوص القرآنية.

ج- بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات، والمعانى، والتفسير بين النظائر.

د- العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز، كمباحث عد الآيات، والكلمات فى القرآن الكريم^(١) وغيرها، وقد كان لاجتهاد التابعين فى تفسير الآيات مميزات منها:

- تنوع عبارات الاجتهاد وتعددتها.

- الإيجاز غير المخل.

- عمق التأمل ودقة التفسير.

- قوة الاستنباط.

خامساً: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين فى خدمة السنة:

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن فى أول الأمر، مخافة اختلاط غير القرآن به، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوى بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف، فنسخ الأمر، وصار الأمر إلى الجواز^(٢). وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه^(٣). وقام الجهابذة من أهل العلم، والغيورين من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوى، وتنقيته من شوائب الوضع، وبذلوا فى ذلك مهجهم وأوقاتهم، فأسهروا ليلهم، وضربوا فى الأرض نهارهم، وأصلوا لذلك أصولاً، وقعدوا قواعد، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة، التى يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها، والفضل كل الفضل لله، ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب فى جمعها، وليس لهم مكافأة

(٢) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٤).

(١) تفسير التابعين (٢/٧١١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٧٥).

أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى^(١)، ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي، الذي قامت به جهة مسئولة في الدولة الإسلامية، كان على يدى عبد العزيز بن مروان - والد عمر - عندما كان أميراً على مصر كما مرّ معنا، بيد أن التدوين الذى أتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد تجلّى ذلك فى إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث، وأوامره للخاصة والعامة بذلك، فمن إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة^(٢)، لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتف بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابه، بل سعى - بحكمه خليفة المسلمين - إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمّله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين فى إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشى عمر على ضياعه، خاصة أنه ليس دائماً يتوافر الحفظ الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار. وثمة سبب آخر يضاهى سابقه فى الأهمية، وهو فشو الوضع ودرس الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبى ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهرى: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت فى كتابه^(٣). ورأى الزهرى هذا كان رأى كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأى السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ وجعل من مسئوليات الدولة حفظ السنة المطهرة^(٤). وإليك خطواته ومجهوداته فى هذا الشأن:

١- كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبى بكر بن حزم، يأمره بذلك، ففى صحيح البخارى: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر ابن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، إن خفت دروس العلم

(٢) المصدر نفسه، ص (٧٦) .

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٥) .

(٣) المصدر نفسه، ص (٧٧) .

(٤) أصول الحديث، محمد عجاج الخطيب، ص (١٧٦ - ١٨٦) .

وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا^(١)، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن، فاكتبه، فإنني خفت دروس العلم وذهاب أهله^(٢).

٢- كذلك وجه كتابًا بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا^(٣)، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنة في مصارف الزكاة الثمانية، فلبى الزهري أمره، وكتب له كتابًا مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل^(٤). ومن هنا قال ابن حجر: وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز، ثم كثر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثير، فله الحمد^(٥).

٣- بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث رسول الله ﷺ، يشارك في هذا كل من لديه علم، ولو كان بضعة أحاديث، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإنني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله^(٦).

٤ - ولم يقف عمر عند ذلك، بل عمم أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ، وما سمعه من أصحابه الكرام^(٧)، وروى: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه، فإنني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء^(٨).

وقد اهتم عمر رضى الله عنه باللغة العربية؛ فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلمها وإتقانها، وكان يغدق عليهم - لذلك - العطايا، كما أنه يعاقب من يلحن

(١) فتح البارى (١/ ١٩٤، ١٩٥). (٢) الطبقات، أصول الدين، ص (١٧٧ - ١٧٩).

(٣) جامع بيان العلم (١/ ٩١، ٩٢). (٤) الأموال، ص (٢٣١، ٢٣٢).

(٥) فتح البارى (١/ ٢٠٨)، أصول الحديث، ص (١٧٨ - ١٨٠).

(٦) سنن الدارمى (١/ ١٣٧). (٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٩).

(٨) فتح البارى (١/ ١٩٥)، أصول الحديث، ص (١٧٨).

بالعربية وينقص من عطائه، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة^(١).

* منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته في التدوين:

اتبع عمر في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجاً سديداً قوياً، وسلك فيه شروطاً صارمة، ووضع له أبعاداً هادفة مفيدة. ويتجلى ذلك في أربعة أمور:

١- حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر: فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم ومن أعلام عصره، قال فيه الإمام مالك: ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمّ حالاً، ولا رأيت من أوتي مثل ما أوتي؛ ولاية المدينة، والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالماً، كبير الحديث، توفي ١٢٠هـ^(٢). وأما الزهري، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، يحدث في الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدث عن القرآن والسنة، كان حديثه. وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه^(٣).

٢- أنه طلب ممن يدون له السنة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها، وتتبع أناس مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عمرة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأمر المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشئونه الخاصة داخل بيته ومع أهله^(٤)، وعمرة هذه هي: عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زُرارة، ذكرها ابن المديني فضخّم

(١) عمر بن عبد العزيز للشرقاوي، ص (١٧٨). (٢) سير أعلام النبلاء (٥/٣١٣، ٣١٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٣٢٨)، عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٠).

(٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١).

أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها^(١). وقال الزهرى: أتيتها فوجدتها بحرًا لا يُنزَف^(٢). توفيت عام ٩٨هـ، وقيل ١٠٦هـ^(٣). وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع تدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقضيته وسياسته فى الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب ذلك أيضًا من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذى سلكه عمر بن عبد العزيز فى الاقتداء بجده رضى الله عنهما^(٤). كذلك كتب إلى آل عمرو بن حزم أن ينسخوا له كتاب النبى ﷺ لهم فى الصدقات، كى يسير عليه فى خلافته وفى تسيير أمور رعيته^(٥).

٣- أنه ألزم من يدون السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم، ويتحرى الثابت من الحديث، وذلك واضح فى رواية الدارمى حيث يقول عمر لابن حزم: اكتب إلى بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر^(٦). وعند الإمام أحمد فى العلل: اكتب إلى من الحديث بما ثبت عندك من رسول الله ﷺ وحديث عمرة. وهذه نقطة عظيمة الأهمية فى تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة، ثابتة صحيحة، قوينة مستقيمة^(٧).

٤- تثبته من صحة الحديث والتحديث: فعمر من كبار العلماء، وليس بأقل شأنًا فى العلم ممن أمرهم بالتدوين، لذلك قام بمشاركة العلماء فى مناقشة بعض ما جمعه، زيادة فى الثبوت^(٨)، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشى قال: رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء، فجمعوا له أشياء من السنن، فإذا جاء الشيء الذى ليس العمل عليه قال: هذه زيادة ليس العمل عليها^(٩).

* ثمرة هذا التدوين: لقد آتت هذه الجهود الباكورة المباركة بعض أكلها، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التى جمعها الإمام الزهرى، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١) تهذيب التهذيب (٤٦٦/١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٥٠٨/٤)، نساء لها تاريخ، ص (١٥٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٠٨/٤). (٤) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨١).

(٥) سير أعلام النبلاء، ص (٨١). (٦) نقلًا عن مقدمة المسند، ص (٢٠ - ٢٣).

(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٢).

(٨) المصدر نفسه، ص (٨٢). (٩) أصول الحديث، ص (٨٢).

عدة نسخ، ثم أرسل إلى كل بلد فى دولته الكبيرة دفترًا منها، ويلاحظ أن كثيرًا من العلماء جمع لنفسه مسموعاته، ليعود إليها كلما وجد فى نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها، أما التدوين الرسمى الذى تولته الدولة، وعممت ثمرته على الأمصار، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز، ومن الثمرات الطيبة - أيضًا - ذلك المنهج السديد الذى اتبعه أمير المؤمنين عمر، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده، وهذا كله ناتج من دقة فهمه، وغزارة علمه، ونفاذ بصيرته، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له، ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القرآن، ففعل، فكان لهما الفضل الكبير على الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هى لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز - نحسب ذلك ولا نزكى على الله أحداً - تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، فى إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من مهام الدولة حماية السنة التى هى المصدر الثانى للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم لله يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيئ لهم من أمرهم رشداً^(١).

قال الشاعر الليبى أحمد رفيق المهدوى:

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح^(٢)

ويعتبر «التدوين الرسمى» بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التى تحققت فى عهد عمر بن عبد العزيز^(٣) رحمه الله.

* جهود التابعين فى خدمة السنة النبوية الشريفة:

تحمل التابعون الحديث النبوى عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة فى أعناقهم عليهم، أن يجتهدوا فى تبليغها وإيصالها إلى من

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٣).

(٢) الثمار الزكية للحركة السنوسية، ص (١٩٨).

(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٨٣).

وراءهم لاسيما وقد ظهر في عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية، وبسبب الزندقة المتمثلة في التظاهر بالإسلام مع كراهيته، دينًا، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصاص والوعظ، وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد، وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع في الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون الأمانة ويقومون بواجبهم في مواجهة الكذابين والوضاعين، وكانت لهم في ذلك جهود ضخمة مشكورة^(١).. يمكن تلخيصها في الآتي:

١- الالتزام بالإسناد ومطالبة الغيرية:

أ- قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم^(٢).

ب- جاء عن عتبة بن أبي الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري، قال: فجعل ابن أبي فروة يقول: قال رسول الله ﷺ: ... فقال له الزهري: قاتلك الله يا ابن أبي فروة، ما أجراك على الله، لا تسند حديثك، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة^(٣).

٢- عقد الحلقات العلمية: يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة، وللشعبي حلقة علمية عظيمة، والصحابة يومئذ كثير^(٤). وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر، وبعد العصر^(٥).

٣- الحرص على أداء الحديث على وجهه: يعنى روايته بلفظه، فإن لم يتيسر ذلك روهه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة^(٦). فعن ابن عون قال: كان

(١) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي للشايخي ص ٥٤، هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة.

(٢) مسلم في مقدمته، باب بيان الإسناد من الدين (١٥/١).

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم، ص (٦). (٤) تاريخ الإسلام، ص (١٢٦)، حوادث (٤٠٤هـ).

(٥) سير أعلام النبلاء (٣٣٦/٤).

(٦) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، ص (٥٨).

إبراهيم، والشعبي، والحسن، يأتون بالحديث على المعاني، وكان القاسم، وابن سيرين، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه^(١). وقال ليث بن أبي سليم: كان طاووس يعد الحديث حرفاً حرفاً^(٢)، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد، والكلام مختلف^(٣).

٤ - وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحاً وتعديلاً:

- مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها، كقول ابن شهاب الزهري: إذا حدثني عمرة ثم حدثني عروة صدق عندى حديث عمرة حديث عروة، فلما تبهرتهما إذا عروة بحر لا يتزف^(٤).

- أو مقابلة حديث الراوى بحديث نفسه، ولكن على فترات متباعدة: كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهري، فاخبره بنفسه حيث سأله أن يملأ على بعض ولده فدعا بكتاب، فأملأ عليه أربعمئة حديث، ثم إن هشاماً قال له بعد شهر أو نحوه، يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكتاب فأملأها عليه، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً^(٥).

- أو بقلب الأسانيد والمتون: كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنساً لابن أبي ليلى وبالعكس أشوشها عليه فيجئ بها على الاستواء^(٦).

- ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القرآن: عن أبي قلابة قال: إذا حدث الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال^(٧).

- ومن ضرورة حفظ القرآن قبل الاشتغال بالحديث: عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثني، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا، قال: اذهب، فاحفظ القرآن، ثم هلم أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته فاستقرأني، فقرأته، فحدثني.

(١) سير أعلام النبلاء (٥٥٩/٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع (٢١/٢).

(٣) المصدر نفسه (٤٦٥/٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤٣٦/٤).

(٥) السنة ومكانتها فى التشريع ص (٢٠٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٢٢/٥).

(٧) المصدر نفسه (٧٤٢/٤).

٥ - إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين فى خدمة السنة: إجابة المستفتين، والقضاء به بين الناس، فهذا علقمة بن قيس النخعى يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبى، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد على وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود فى هديه، وسمته وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون^(١). وعن أبى الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، وينتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار^(٢). ولا شك أن إجابة المستفتين والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرأ على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما تتطلبان جهداً ووقتاً ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء^(٣).

٦- بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج^(٤): كان من جهود التابعين فى خدمة الحديث النبوى أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج.

أ- عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور ثنى بعبدة السلمانى، ومن بدأ بعبدة ثنى بالحارث، ثم علقمة، ثم مسروق، ثم شريح^(٥).

ب- وعن قتادة قال: إذا اجتمع لى أربعة لم ألتفت إلى غيرهم، ولم أبال من خالفهم: الحسن، وابن المسيب، وإبراهيم، وعطاء.. هؤلاء أئمة الأمصار^(٦).

هذه هى أهم الجهود التى بذلوها فى خدمة الحديث النبوى ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين^(٧) للدكتور محمد عجاج الخطيب، والتابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى.

(١) المحدث الفاضل: باب أوصاف الطالب وآدابه، ص (٢٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٤٣٨).

(٣)، (٤) التابعون وجهودهم فى خدمة الحديث النبوى، ص (٦٤).

(٦) المصدر نفسه (٥/٨٣).

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/٩١).

(٧) السنة قبل التدوين، ص (١٤٤ - ١٩٩).

سادساً: منهج التزكية والسلوك عند التابعين (مدرسة الحسن البصري مثلاً):

* الحسن البصري فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:

يعتبر الحسن البصري من المعاصرين لعمر بن عبد العزيز، كما أنه كان له تأثير واضح فى الحياة الدينية والاجتماعية فى عهد الدولة الأموية، والحسن البصري هو أبو سعيد الحسن بن يسار -مولى زيد بن ثابت رضى الله عنه- من كبار التابعين، وإمام أهل البصرة، وحبر الأمة وقتها. وأمه «خيرة» مولاة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها.

ولد عام ٢١هـ فى المدينة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ويقال الحسن أَرْضَعْتَهُ أم سلمة -رضى الله عنها- حيث كانت أمه - خيرة - تخرج لشراء بعض الحاجيات، فيكى الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها، وتضعه فى حجرها، وتلقمه ثديها، فيدر الثدي لبنًا، فيرضع الحسن، وبذلك تكون أمه من الرضاعة، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة. ومن البديهي أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل من معينهن، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن، ومن جهة أخرى تتلمذ على كبار الصحابة فى مسجد رسول الله ﷺ، كأبى موسى الأشعري، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عباس، وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم أجمعين، وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى «البصرة» وإليها ينسب فيقال الحسن البصري، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله، وقصدوه من كل حذب وصوب، وكما قيل فيه كان قوله كفعله، لا يقول ما لا يفعل. سريرته كعلايته، إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به، وإذا نهى عن منكر كان أنزل الناس له، مستغنيًا عما فى أيدي الناس، زاهدًا به، والناس محتاجون إليه بما عنده^(١).

١- أسباب تأثيره فى قلوب الناس: جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثر فى قلوب الناس، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين فى

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣ - ٥٨٨)، حياة الحسن البصري د. روضة الحضري، الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه، مرزوق على إبراهيم، الحسن البصري، مصطفى سعيد الحن، الزهد للحسن البصري، د. محمد عبد الرحيم محمد.

المجتمع، فقد كان واسع العلم، غزير المادة فى التفسير والحديث، ولم يكن لأحد فى ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح، إلا إذا كان متوفراً على هذين العلمين. وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة، وأدرك روجه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامى، ومن أين انحرف، وكان واسع الاطلاع، دقيق الملاحظة للحياة، ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعللها وأدوائها، كطبيب مارس العلاج مدة^(١)، وكان مع ذلك غاية فى الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير فى مستمعى، ه يقول أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصرى، والحجاج بن يوسف، والحسن أفصح منه^(٢)، وكان آية فى اتساع المعلومات ووفور العلم، قال الربيع بن أنس: اختلفت إلى الحسن عشر سنين، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله. وقال محمد بن سعد: كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً، ثقة مأموناً، عابداً ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، جميلاً وسيماً، وقدم مكة فأجلس على سرير، واجتمع الناس إليه، وقالوا: لم نرَ مثل هذا قط، وقد وصفه ثابت بن قرة -كما نقل عنه أبو حيان التوحيدى- فقال: كان من ذرارى النجوم علماً وتقوى، وزهداً وورعاً، وعفة ورقّة، وفقهاً ومعرفة، يجمع مجلسه ضرورياً من الناس، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقفُ منه التأويل^(٣)، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يحكى به الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الوعظ، وهو فى جميع ذلك كالبحر اللّجّاج تدفقاً، وكالسّراج الوهاج تألقاً، ولا تُنسى مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، عند الأمراء وأشباه الأمراء، بالكلام الفصل واللفظ الجزل^(٤)، وفوق ذلك كله -وهو سر تأثيره فى القلوب، وسحره فى النفوس، وخضوع الناس له- وكان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتزمة، وكان من كبار المخلصين، وكان الذى يقوله يخرج من القلب فيدخل فى القلب، وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب^(٥)، قال عنه مطر

(١) رجال الفكرة والدعوة (٦٧/١).

(٢) نظرات فى التصوف الإسلامى، د. محمد القهوجى، ص (٢٢١).

(٣) التأويل: التفسير.

(٤) رجال الفكر والدعوة (٦٨/١).

(٥) المصدر نفسه (٦٨/١).

الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنما كان فى الآخرة، فهو يخبر عمّا عاين^(١). وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن^(٢). فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عاطفة ووجدان، لذلك كانت حلقاته فى البصرة أوسع الحلقات، وانجذب الناس إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس - وذلك شأن أهل القلوب والإخلاص فى كل زمان - وكان من أعظم ما امتاز به هو أن كلامه كان أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة، وقال الغزالي فى إحياء علوم الدين: ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضى الله عنهم، اتفقت الكلمة فى حقه على ذلك^(٣)، ونتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذِينَ بسحرها، خاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت ابن قرّة الحكيم الحرّاني: إن الحسن من أفراد الأمة المحمدية التى تتباهى بهم على الأمم الأخرى^(٤).

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصرى فى المجتمع، ونفوذه فى القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، والناصح الشفيق، لقد كان عصره يغصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكن المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يمسُّ قلبه وينزل فى صميم الحياة، ويعارض التيار، لأنه كان ينعى على الإخلاق إلى الحياة والانهماك فى الشهوات، وقد انتشر هذا المرض فى الحياة، فكان يذكر بالموت ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك، ويعلّلون نفوسهم بالأمانى الكذابة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يكدر عليهم الحياة، ويُعكر صفو عيشهم، فكان دائماً فى صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضع إلا لمن صارعها، ولا تعترف إلا بوجود الرجل الذى يحاربها. وكان الحسن البصرى هو ذاك الرجل، فعظم تأثيره وكثر التائبون والمقلعون عن المعاصى والحياة الجاهلية التى كانوا يعيشونها، وانطلقت موجة الإصلاح قوية مؤثرة، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يُلقيها، بل كان يُعنى بتربية من يتصل به ويجالس. فكان

(١) سيرة أعلام النبلاء (٥٧٣/٤).

(٢) المصدر نفسه (٥٧٥/٤).

(٣) رجال الفكر والدعوة (٦٨/١).

(٤) المصدر نفسه (٦٨/١).

جامعاً بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخلقية والروحية، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام^(١).

٢- ملامح التصوف السني عند الحسن البصري:

يعتبر الحسن البصري من علماء السلوك النادرين، ومن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمان والمعاني الربانية السامية، وكان رحمه الله سليم العقيدة، متقيداً بالكتاب والسنة في تعليمه وتربيته، ولا شك أن الأساس في التصوف السني هو الالتزام بالكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، وسرى ذلك من خلال سيرة الحسن، ومن الأمور التي اهتم بها الحسن رحمه الله:

أ- قسوة القلب ومواته وإحيائه:

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي! قال: أدنه من الذكر^(٢)، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأتبعوها بالتطوع^(٣)، إن قسوة القلب ذمها المولى عز وجل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فِيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقال رسول الله ﷺ: «ولا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»^(٤). وأما أسباب القسوة فكثيرة منها: كثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، ومنها كثرة الضحك، ومنها كثرة الأكل لاسيما من الحرام، ومنها كثرة الذنوب^(٥)، وغيرها، وقد ذكر الكثير منها الحسن البصري في كلامه. وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

(١) رجال الفكر والدعوة (١/٧٥).

(٢) الزهد للحسن البصري، ص (١٢٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٢٤).

(٤) سنن الترمذي رقم (٢٤١١)، حسن غريب.

(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/٢٦١، ٢٦٢).

- كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان: قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، قال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟ قال: «تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره»^(١). وكان الحسن البصري رحمه الله يقول: أيها الناس أنى أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم، وإنى لكثير الإسراف على نفسى، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب فى طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب فى طاعته وينهى عن معصيته، ولكن فى اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين، وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا - عافاكم الله - مجالس الذكر، قرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون^(٢).

وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له، ما علق همهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شىء ألد عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى مما يقول الظالمون علواً كبيراً^(٣)، وكان يقول: تفقد الحلاوة فى ثلاثة أشياء: فى الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه^(٤)، ومن أفضل الذكر العمل بالقرآن وتلاوته، وكان الحسن البصري يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القرآن، ليتبين الخسران من الرجحان^(٥)، وكان يقول رحم الله عبداً عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف استعجب ورجع من قريب^(٦)، وكان يقول: أيها الناس إن هذا القرآن شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين، فمن اهتدى به هدى، ومن صرف عنه شقى وابتلى^(٧)، وكان يقول: قراء القرآن ثلاثة نفر: قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا

(١) البيهقى فى الشعب رقم (١٤/٢)، العلل المتناهية لابن الجوزى (٨٣٢/٢) الحديث فيه ضعف .

(٢) الزهد للحسن البصري، ص (٧٩). (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٧٩).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٤٢). (٧) المصدر نفسه، ص (١٤٧).

حدوده، استدروا به أموال الولاية واستطالوا به على الناس - وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن - فلا كثر الله جمعهم، ولا أبعد غيرهم، وقوم قرءوا القرآن فتدبروا آياته وتداووا به^(١)، وأما قيام الليل فكان يقول فيه: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلك الخطايا والذنوب^(٢). وقال له رجل: يا أبا سعيد، أعياني قيام الليل فما أطيقه؟ فقال: يا ابن أخي، استغفر الله وتب إليه، فإنها علامة سوء^(٣)، وقال: إن الرجل ليزنب الذنب فيحرم به قيام الليل^(٤).

- كثرة ذكر الموت: قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا ذكرَ هاذمِ اللذاتِ»^(٥). وقال الحسن البصري: فضح الموت الدنيا، فلم يترك فيها لذي لب فرحاً^(٦). وعن صالح بن رسم قال: سمعت الحسن يقول: رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس؛ ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك، ابن آدم وأنت المعنى وإياك يراد^(٧). وقال الحسن: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل^(٨). وقيل: رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن، قال له الحسن: يا شيخ، أسألك بربك: أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة، فقال الشيخ: اللهم نعم، فقال الحسن: فما بالناس لا نكون كهذا الميت، ثم انصرف وهو يقول: أي موعظة، ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة؟ ولكن لا حياة لمن تنادى^(٩). وقال: حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الجبار مشهده أن تطول في الدنيا حسرته، وفي العمل الصالح رغبته^(١٠). وكان يقول: ما رأيت يقيناً لا شك فيه أصبح شكاً لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره^(١١). وكان يقول: عباد الله، إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وكان يقول: ابن آدم إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٤٦).

(١) الزهد للحسن البصري، ص (١٤٨).

(٥) سنن الترمذي رقم (٢٣٠٧)، سنن ابن ماجه رقم (٤٢٥٨).

(٧)، (٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (٢١).

(٦) الزهد للحسن البصري، ص (٢٠).

(١٠)، (١١) المصدر نفسه، ص (٢٢).

لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن آدم، ذنبك، ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ، وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت^(١). وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب^(٢). وكان الحسن إذا تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها^(٣). وقال: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، لا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب^(٤).

- زيارة القبور بالتفكير في حال أهلها: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكركم الموت»^(٥)، وفي رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة»^(٦)، وكان الحسن البصري كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين ابن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلى عليها الحسن البصري، فشهدا أعيان أهل البصرة مع الحسن، والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق: ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنائز اليوم خير الناس يعنونك، وشر الناس يعنونى، فقال له: يا أبا فراس، لست بخير الناس، ولست أنت بشر الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها، فأنشأ الفرزدق يقول:

أشد من القبر التهاباً وأضيقا	أخاف وراء القبر إن لم يعافنى
عنيف وسواق يسوق الفرزدقا	إذا جاءنى يوم القيامة قائد
إلى النار مغلولاً القلادة أزرقا	لقد خاب من أولاد دار من مشى
سراويل قطران لباساً مخرقا	يساق إلى نار الجحيم مسربلا
يزوبون من حرّ الصيد تمزقا	إذا شربوا فيها الصيد رأيتم

(٢) الزهد للحسن البصري، ص (٢٣).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٥).

(٥) مسلم رقم (٩٧٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٤).

(٤) المصدر رقم، ص (٢٦).

(٦) مسلم (٦٧٢/٢)، سنن الترمذى (١٨٦٩).

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إلى، وإنك اليوم من أحب الناس إلى^(١). وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر فى أحوالها، فعن عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان الخليفة - أمير المصيرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يوماً، ثم طعن فى قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحباً لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشراً إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفننا بشراً ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشى، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه^(٢). وقد ذكر العلماء أموراً أخرى تزيل قسوة القلوب كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر فى ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين^(٣).

ب - حثه على الإخلاص، وطاعة الله وإصلاح ذات البين والتفكير:

- الإخلاص: إن لإخلاص العمل تأثيراً عظيماً فى مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه بقوة، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً، يشرح صدره للحلم والعفو ومعالي الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلباً لرضاه والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وإن أحب فحبه لله وهكذا فى شأنه كله^(٤)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٦٦] لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]﴾. فكان الحسن يقول: من تزين للناس بما لا يعلمه الله منه شأنه ذلك^(٥). وكان يقول: روى عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد^(٦)، وقد وعظ يوماً، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا ابن أخى ما عساك أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها. ولقد كان الناس

(١) الحسن البصرى د. مصطفى الحن، ص (٣٤٥) نقلاً عن البداية والنهاية .

(٢) البيان والتبيين (٣/١٤٧)، الحسن البصرى د. مصطفى الحن، ص (٣٤٩).

(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/٢٦٤ - ٢٧٠).

(٤) الأخلاق بين الطبع والتطبع، ص (٢١). (٥) حياة الحسن البصرى، روضة الحصرى، ص (١٧٠).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٧٠).

يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه، ولقد قيل لبعضهم: ما أقل التفاتك في صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال: يا ابن أخي وما يدريك أين كان قلبي؟^(١)، وكان يقول: نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح، فقال: انتبه عافاك الله، لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عمله^(٢). وقال الحسن: ولقد حدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٦) فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿[مريم: ٩٦، ٩٧]. فقال: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها في الدنيا، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر، ولا يرى إلا مصلياً وذاكراً، وكلما مر على قوم قالوا: ألا ترون هذا المرائي، ما أكثر رياءه، فأقبل على نفسه وقال: ثكلتك أمك، لا أراك تذكرين إلا بشر، ولا أراك أصبت إلا بفساد نيتك وفساد معتقدك، وأنت لم تردى الله بعملك، ثم بقى على عمله لم يزد عليه شيئاً إلا إن نيته انقلبت^(٣)، فتغير الحال ووضع الله له القبول، ولا يمر بقوم إلا قالوا: يرحم الله هذا، ثم يقولون: الآن الآن.

وكان الحسن يقول: أخلصوا لله أعمالكم^(٤)، وكان يقول: ابن آدم تلبس لبسة العابدين، وتفعل أفعال الفاسقين، وتخبث إخبات المريدين، وتنظر نظر المغترين، ويحك! ما هذه خصال المخلصين، إنك تقوم يوم القيامة بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(٥)، وكان يقول: روى أن سعيد بن جبير رأى رجلاً متموّتاً في العبادة فقال: يا ابن أخي إن الإسلام حي فأحيه، ولا تمته أمانتك الله ولا أحياك، وكان يقول: من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع^(٦).

- الحث على طاعة الله:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى

(١) الزهد للحسن البصري، ص (١٥٩).

(٢) الزهد للحسن البصري، ص (١٥٩).

(٣) انقلبت: صارت على الضد مما كانت عليه أي حسنت.

(٤) (٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٦٠).

(٤) الزهد للحسن البصري، ص (١٦٠).

اللَّهُ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ [الشورى: ١٠]. وكان الحسن يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال: يعطون ما أعطوا ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾ قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخشون أن لا ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل^(١). وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فراك مداومًا في طاعة الله فبغاك وبغاك - أى طلبك مرة بعد مرة - فراك مداومًا وملك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك^(٢) وعن الحسن قال: قال هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها^(٣).

ومن القصص التي حدثت للحسن لما ولى عمر بن هبيرة العراق، أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما بيت وكانا فيه شهرًا - أو نحوه - ثم إن الخادم غدا ذات يوم، فقال: إن الأمير داخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظمًا لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتابًا أعرف أن فى انقاده الهلكة فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل، فهل تريان لى فى متابعتى إياه فرجًا؟ فتكلم الشعبي فانحط فى حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول: يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهى مقبلة أشد إقبالًا من إقبالكم عليها وهى مدبرة، يا عمر بن هبيرة إنى أخوفك مقامًا خوفك الله تعالى فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤] يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله تعالى فى طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله، وكلك الله إليه، قال: فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من

(٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٧٥).

(١) الزهد للحسن البصري، ص (٧٤).

الغد أرسل إليهما بإذنهما وجرائزهما، وكثر منه ما للحسن، وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخر الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفع، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجعلته، ولكن أردت وجه ابن هيرة، فأقصاني الله منه^(١). وقال الحسن: لا تخالفوا الله عن أمره، فإن خلافاً عن أمره عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب^(٢). وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله عز وجل^(٣). وكان يقول: رحم الله امرأ كان قوياً فأعمل قوته في طاعة الله، أو كان ضعيفاً فكف عن معاصي الله^(٤).

- الاعتبار والتفكر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فالتأمل والتفكر في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوى للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته، وما فيها: من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على علم سعة الله، وشمول حكمته، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها، وشكره واللهج بذكره، وإخلاص الدين له، وهذا هو روح الإيمان وسره^(٥)، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصري وحث الناس عليها، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر^(٦)، وقال: من عرف ربه أحبه، ومن أبصر الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل، وإذا فكر حزن^(٧). وكان يقول: رحم الله امرأ نظر ففكر، وفكر فاعتبر، واعتبر فأبصر وأبصر فصبر، لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران

(١) الزهد، الحسن البصري، ص (٧٦).

(٢) (٤) المصدر نفسه، ص (٧٧).

(٣) (٥) شجرة الإيمان للسعدى، ص (٤٩)، الوسطية في القرآن، ص (٢٣٩).

(٦) (٧) المصدر نفسه، ص (٨٣).

(٦) الزهد، الحسن البصري، ص (٨٢).

المبين^(١)، وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة^(٢)، وكان يقول: الفكرة مرآة تريك حسناتك من سيئاتك، فمن اعتمد عليها أفلح ومن أغفلها افتضح^(٣).

- العلم والعلماء: وكان يقول: الفهم وعاء العلم، والعلم دليل العمل، والعمل قائد الخير، والهوى مركب المعاصي، والمال داء المتكبرين، والدنيا سوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوى بنعم الله على معاصيه^(٤)، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه، وفي لسانه وبصره وبره^(٥).

ج - النهى عن طول الأمل وذم الكبر:

- النهى عن طول الأمل: قال الحسن: إن المؤمن في الدنيا غريب لا يجزع ذلها ولا ينافس أهلها في عزها، الناس منه في راحة، ونفسه منه في شغل، طوبى لعبد كسب طيباً، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقه، وجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله، ولا تلقوه هاهنا فيما يضركم^(٦). وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل^(٧)، ومن درر كلامه قوله: يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك^(٨).

- النهى عن الكبر: قال الحسن: يا ابن آدم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين^(٩)، وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشى مشية المتكبر فقال: انظروا إلى هذا، ليس فيه عضو إلا والله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة^(١٠).

٣ - من تلاميذ الحسن البصري الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحسن البصري من علماء أهل السنة، واهتم رحمه الله بعلم السلوك، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك^(١١)، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصري مجموعة خيرة لكوكة نيرة، ونجوم ساطعة من علماء أهل السنة، منهم:

(٣) المصدر نفسه، ص (٨٣).

(٦) المصدر نفسه، ص (٨١).

(٨) المصدر نفسه، ص (٨١).

(١١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٧٩).

(١)، (٢) الزهد للحسن البصري، ص (٨٣).

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٩٢).

(٧) المصدر نفسه، ص (٨٢).

(٩)، (١٠) المصدر نفسه، ص (٩٠).

أ- أيوب السخيتاني: هو الإمام الحافظ سيد العلماء، أبو بكر بن أبي تيمية كيسان^(١)، كان ثقة ثبتاً في الحديث، جامعاً عدلاً، ورعاً، كثير العلم^(٢)، وكان إذا سُئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم، وكان كثيراً ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد بن زيد: ما رأيت أحداً أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس، وكان يحب ستر زهده ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره^(٣)، وحج أيوب أربعين حجة، وكان عبید الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نور الله قلوبهم بالإيمان، منهم أيوب، وكان صديقاً ليزيد ابن الوليد بن عبد الملك، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكرى^(٥)، وكان شديد التبسم في وجوه الناس^(٦).

* من مواقف وكلمات أيوب:

- تعظيمه لأهل السنة: قال أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي^(٧).

- موقفه من أهل الأهواء والبدع: قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهداً إلا ازداد من الله بعداً^(٨). وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإنني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون^(٩). قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوى الألباب^(١٠).

- محبته للقاء إخوانه في الله: قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخواناً لي فيه لا ألقاهم في غيره^(١١).

- عبادته: كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها، وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس^(١٢)، وكان من سادات

(١) سير أعلام النبلاء (١٥/٦).

(٢) الطبقات (٢٤٦/٧).

(٣) تاريخ التصوف الإسلامي، د. بدوي، ص (١٨٩).

(٤) الحلية (٤/٣).

(٥) الحلية (٦/٣).

(٦) تاريخ التصوف الإسلامي، ص (١٨٩).

(٧) الحلية (٨/٣).

(٨) الإمام أيوب السخيتاني، د. سليمان العربي، ص (٤٧).

(٩) البدع والنهي عنها لابن وضاح، ص (٤٨).

(١٠) الإمام أيوب السخيتاني، ص (٤٨).

(١٢) المصدر نفسه، ص (٥٠).

أهل البصرة، وعبّاد أتباع التابعين وفقهائهم، ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك^(١)، وكان كثير الحج والعمرة -رحمه الله- لوصية رسول الله بذلك: «تابعوا بين الحج والعمرة»^(٢)، وحج أيوب أربعين^(٣)، وكان يقوم الليل يخفى ذاك، فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة^(٤).

- الزهد: قال أيوب: الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء، أحبها إلى الله وأعلاها عند الله وأعظمها عند الله تعالى، الزهد في عبادة من عبد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله، الزهد في حلال الله عز وجل^(٥).

- شهادة الحسن البصري فيه: قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان^(٦)، قال: أيوب سيد شباب أهل البصرة^(٧)، وأما شهادة أيوب في شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء^(٨). وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألتُه هبة له^(٩).

- وفاته: بعد عمر قضاه في عبادة الله تعلمًا وتعليمًا وتربية وخشية لله، وتمسكًا بالسنة وتعظيمًا بأهلها، وقمعًا لأهل البدع والأهواء وإخلاص العلم والعمل لله، توفي في مرض الطاعون بالبصرة عام ١٣١هـ^(١٠)، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا على ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة، وقال: إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر في النوم فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلي على أيوب السختياني، قال: ولم يكن علم بموته، فقلت له: قد مات أيوب البارحة^(١١).

(١) مشاهير علماء الأمصار، ص (١٥٠) رقم (١١٨٣).

(٢) مسند أحمد رقم (١٦٧) الحديث صحيح بشواهد.

(٣) حلية الأولياء (٥/٣).

(٤) المعرفة والتاريخ (٢/٢٤١)، الإمام أيوب السختياني، ص (٥٢).

(٥) حلية الأولياء (٧/٣).

(٦) طبقات ابن سعد (٧/٢٤٧)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(٧) حلية الأولياء (٣/٣)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(٨) حلية الأولياء (٣/١١)، الإمام أيوب، ص (٧٥).

(٩) الوافي بالوفيات (١٠/٥٤، ٥٥)، الإمام أيوب، ص (٩٦).

(١٠) سيرة أعلام النبلاء (٦/٢٣).

ب- مالك بن دينار: علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته^(١).

من مواقفه وأقواله:

- عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، وقال: إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً^(٢).

- حزن القلب: قال: إذا لم يكن في القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه^(٣).

- جاء يسرق فسرقناه: قيل: دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فتاداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا، فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: ترضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسئل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه^(٤).

- أطيب شيء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

- محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنساً أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ، لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكون في الفضل مثلكم، إنى لأدعو لكم في الأسحار^(٥).

- مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فیدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان آدم مالك بن دينار في كل سنة بفلسطين ملح^(٦).

- وفاته: توفي سنة ١٢٧هـ^(٧) وقيل: ١٣٠هـ. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة ولا ينظر لمن ألصق به آثاراً واهية نسبها إليه، وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير إسلامية وكتابية على وجه التخصيص^(٨). بل الثابت من

(١) سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٥).

(٢) المصدر نفسه (٣٦٢/٥).

(٣)، (٤) المصدر نفسه (٣٦٣/٥).

(٥)، (٦)، (٧) المصدر نفسه (٣٦٤/٥).

(٨) تاريخ التصوف الإسلامي، ص (٢٠٧).

سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصرى، وأنس بن مالك، والأحنف بن قيس، وسعيد بن جبير، ومحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد^(١) وغيرهم من علماء أهل السنة.

ج - محمد بن واسع: الإمام الربانى، القدوة^(٢)، ترجمت له فى حديثى عن الفتوحات فى عهد عبد الملك، وكان من ضمن جيش قتبية بن مسلم، وقد أقام مدة فى خراسان^(٣). قال عنه مالك بن دينار: القراء ثلاثة: فقارئ للرحمن، وقارئ للدينا، وقارئ للملوك، ومحمد بن واسع عندى من قراء الرحمن^(٤)، وكان الحسن البصرى يسميه زين القراء^(٥)، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفى من الدعاء مع الورع يسير العمل^(٦).

هؤلاء هم أشهر تلاميذ الحسن البصرى فى علم السلوك والذين كان لهم تأثير كبير فى حياة الناس، واليوم نحن فى أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذى أصبح نادراً، وتصدر له بعض المحسوين على العلم من أصحاب العقائد الفاسدة والتصورات السقيمة والأفكار المنحرفة، فالأمة فى حاجة ماسة لمنهج تربوى سنى تُستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله وسنة رسوله وهدى الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين، لكى تقف أمام الهجمة المادية، والطغيان الشهوانى، الذى يث فى وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والقُطرية، كما أن من عوامل نهوض الأمة كبج شهوراتها، وتطهير نفوسها من أمراضها، وإحياء القلوب بالمعانى الرفيعة والأعمال القلبية، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

٤ - براءة الحسن البصرى من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصرى قال بالقدر على مذهبهم، وإنه منهم، فيروون عن داود بن أبى هند أنه قال: سمعت الحسن يقول: كل شئ بقضاء وقدر إلا المعاصى^(٧). ويوردون رسائل أرسلها إلى عبد الملك بن مروان فيها قوله بالقدر

(١) سير أعلام النبلاء (٣٦٢/٥).

(٣) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٧)، الخلية (٣٥٣/٢).

(٤) الخلية (٣٤٥/٢)، تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٤).

(٥) تاريخ التصوف الإسلامى، ص (٢١٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٢١/٦).

(٧) المنية والأمل لابن المرتضى، ص (١٢)، القضاء والقدر، د. المحمود، ص (١٨٥).

على مذهب المعتزلة، ويقولون: إن رسائله مشهورة^(١). وقد تحمس الشيخ محمد أبو زهرة ليثبت أن الحسن البصري كان يقول بالقدر على مذهب المعتزلة^(٢)، والرد على هذه الدعاوى الخالية من الحجج والبراهين والأدلة كتالي:

أ- أن المعتزلة أنفسهم لا يقطعون بنسبة الحسن إليهم، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله في القدر قال: «فإن قلت: فقد روى أيوب، أتيت الحسن، فكلمته في القدر فكف عن ذلك، قلت: فقد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخوض فيه^(٣). وهل يخاف الحسن السلطان وهو الرجل الذي يجهر بالحق دائماً.

ب- أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه، فيقول عنها الشهرستاني: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من القرآن الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خير وشره من الله - تعالى -، فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم^(٤). وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن، والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصري وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه علي بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصي من الله عز وجل جاء يوم القيامة مسوداً وجهه وقرأ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]. وعلى بن الجعد الذي يقول: سمعت الحسن لم يسمع منه ولم يلقه^(٥)، فهذه رواية منقطعة^(٦).

ج- وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصري أنه تكلم في شيء من القدر، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبدًا الجهني كانا يأتیان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد، إن الملوك يسفكون دماء المسلمين،

(١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١٨٦).

(٢) تاريخ الجدل، ص (٣٢١، ٣٢٢).

(٣) النية والأمل، ص (١٥).

(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، ص (١٨٦).

(٥)، (٦) المصدر نفسه، ص (١٨٧).

ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله، فقال: كذب أعداء الله^(١)، قال ابن قتيبة: فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه^(٢). ويشبه هذا ما يروى عن الحسن أنه قال - وهو محق في قوله -: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَلَّاهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ تَقْوَاهُ يَفْعَلْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٨]^(٣). فهل كلام الحسن - رحمه الله - في الروايتين دل على أنه قدرى؟ إن الجواب على ذلك واضح بداهة، لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم، ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل وكلام الحسن حق^(٤). وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد، ولم يكونوا قدرية، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصي بالقدر، كما قيل للإمام أحمد: كان بن أبي ذؤيب قدرياً، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصي قالوا: هذا قدرى. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر^(٥).

د - وهناك روايات تنفى هذا الزعم، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر يتحللون على الحسن بن أبي الحسن، وكان قوله مخالفاً لهم، كان يقول: يا ابن آدم، لا ترض أحداً بسخط الله، ولا تطيعن أحداً فى معصية الله، ولا تحمدن أحداً على فضل الله، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله، إن الله خلق الخلق والخلائق، فمضوا على ما خلقهم عليه، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه فليزدد بحرصه فى عمره، أو يغير لونه، أو يزيد فى أركانه أو بنانه^(٦).

هـ - ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة، والحسن البصرى يعتبر القول بالمتزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة، ولذلك اعتزل واصل ابن عطاء حلقة الحسن لما خالفه فى هذا الأصل، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم؟^(٥).

(١)، (٢) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، ص (١٨٧).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (١٨٨).

(٥) منهاج السنة (٣٦٢/١) القضاء والقدر، ص (١٨٨).

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٧٥/٧).

و - وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصرى ، فقد ذكر عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك ، فمن ذلك ما رواه عن حميد قال : قدم الحسن مكة ، فقال فقهاء مكة - الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد - : لو كلمت الحسن فأخلاقنا يوماً . فكلمت الحسن فقلت : يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً ، قال : نعم ونعمة عين ، فواعدهم يوماً فجاءوا فاجتمعوا ، وتكلم الحسن ، وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ منه ذلك اليوم ، فسألوه عن صحيفة طريفة فلم يخطئ فيها شيئاً إلا فى مسألة ، فقال له رجل : يا أبا سعيد ، من خلق الشيطان ؟ قال : سبحان الله ، سبحان الله ، وهل من خالق غير الله ، ثم قال : إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير ، فقال رجل منهم : قاتلهم الله يكذبون على الشيخ^(١) . وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثاً رواه الحسن : لا تأخذ عن هذا فإنه يكذب على الحسن^(٢) . وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال : قيل لأيوب : إن عمراً «أى عمرو بن عبيد» روى عن الحسن أنه قال : لا يجلد السكران من النبيذ ، قال : كذب ، أنا سمعت الحسن يقول : يجلد السكران من النبيذ^(٣) .

فهذه الروايات وغيرها ، تدل على أن دعوى أن الحسن البصرى - رحمه الله - كان قدرياً ، أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة^(٤) . وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم ، وإلا فكيف عدّوه منهم^(٥) ، والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره ، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة^(٦) . وواضح إن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هى أتقى الفرق وأبرها^(٧) . ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام برآء من تهمة الاعتزال وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوة .

٥ - الإمام العادل فى نظر الحسن البصرى :

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة فجد الحسن البصرى قريباً من الخليفة الجديد ، يتعهده بالوعظ والإرشاد ، ويرسم له منهاجاً للإمام العادل ، وهذا دور

(١) السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (١٢٦/٢) . (٢) المصدر نفسه (١٣١/٢) .

(٣) المصدر السابق (١٣٢/٢) . (٤) القضاء والقدر فى ضوء الكتاب والسنة ، ص (١٩١) .

(٥) ، (٦) المصدر نفسه ، ص (١٨٩) . (٧) مذاهب الإسلاميين ، عبد الرحمن بدوى (٤٠/١) .

إيجابى من الحسن - رحمه الله - يبين العمل المطلوب من العالم الربانى الذى يسعى لمساعدة المصلحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام. وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية، فقد شارك فى الجهاد والتعليم والتربية، وكان رائداً لمدرسة الإصلاح الاجتماعى بين الناس، واهتم بأمراض القلوب، وعلاجها، وكانت له مواقف السياسية من الثورات، ومن الحكام الظالمين، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر فى قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره، والوقوف بجانبه والتنظير للعالم الإصلاح والتجديد الراشدى الذى قاده عمر بن عبد العزيز، فقد جاء فى رسالته التى كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوَّام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل مفسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة^(١) كل مظلوم، ومفرع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر^(٢).

والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر به سهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة، وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتّم بشكايته. والإمام العادل، يا أمير المؤمنين وصى اليتامى، وخازن المساكين؛ يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح؛ تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل، يا أمير المؤمنين، هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريههم، وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدل المال وشرذ العيال، فأفقر أهله، وفرق ماله. وأعلم يا أمير المؤمنين إن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر، يا أمير المؤمنين، الموت وما بعده، وقلة أشياعك

(١) النصفة: اسم من الإنصاف .

(٢) القر: البرد .

عنده، وأنصارك عليه؛ فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر، واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أجبائك، ويسلمونك فى قعره فريداً وحيداً، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما فى القبور، وحُصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فالآن، يا أمير المؤمنين، وأنت فى مهل قبل حلول الأجل، وانقطع الأمل. لا تحكم، يا أمير المؤمنين، فى عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا^(١)، ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك، وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور فى حبال الموت، وموقوف بين يدي الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحى القيوم، إني يا أمير، وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى، فلم ألك^(٢) شفقة ونصحك، فأنزل كتابي إليك كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته^(٣).

والمعاني الرئيسية فى هذه الرسالة:

- أ- أن أهم صفة فى الإمام هى العدل ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.
- ب- وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام، لأنه إن لم يتبعها، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.
- ج- وأن الإمام هو المنفذ للقصاص، فلا يحق له أن يقتل أحداً بغير حق، إن فى القصاص حياة، فكيف يقضى على الحياة من وكل إليه أمر توفير الحياة؟.
- د- أن صلاح الرعية بصلاح الإمام، وفسادها بفساده، فمستوليته عن أفعاله هى فى الوقت نفسه مسئوليته عن أفعال كل رعيته، فما أعظم مسئوليته إذن.

(٢) أى لم أقصر .

(١) آلإل: العهد .

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٥٦، العقد الفريد لابن عبد ربه (١٢/١)، تاريخ التصوف السنى،

ص (١٧٩).

هـ- وتظهر هذه المسؤولية خصوصاً في تعيين الولاية، فما يرتكبه ولاية الإمام وعُمّاله . . الإمام هو أول مسئول عنها، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين، لأن المتكبرين لا يراعون الحرمات، ولا يراقبون الله في أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحداً من هؤلاء، فقد تحمّل مع أوزاره الخاصة أوزارهم^(١).

٦ - الحسن البصري يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز واصفاً له الدنيا:

أما بعد، يا أمير المؤمنين فإن الدنيا دار ظعن وانتقال، وليست بدار إقامة على حال، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فأحذرهما، فإن الراغب فيها تارك، والغنى فيها فقير، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذلل من أعزها، وتفرق من جمعها، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه، ويرغب فيه من يجهله، وفيه والله حتفه، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمدأوى جراحه يحتّمى قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، الصبر على لأوائها، أيسر من احتمال بلائها، واللبيب من حذرهما، ولم يغتر بزيئتها، فإنها غدارة ختالة خداعة، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطابها، فهي كالعروس . . العيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، وهي -والذي بعث محمداً بالحق- لأزواجها قاتلة، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها، واحذر عثرتها، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء، واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيتها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وتاركها موفق، والتمسك بها هالك غرق، والظن اللبيب من خاف ما خوفه الله، وحذر ما حذره، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء، فعند الموت يأتيه اليقين، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة، لها يجمع من لا عقل له، وبها يغتر من لا علم عنده، والحازم اللبيب من كبان فيها كالمدأوى جراحه، يصبر على مرارة الدواء، لما يرجو من العافية، ويخاف من سوء عاقبة الدار، والدنيا، وإيم الله، يا أمير المؤمنين حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد في أضغاث أحلام، وإنى قاتل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

(١) تاريخ التصوف الإسلامي، ص (١٨٠).

فإن تنج من ذي عزيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده، وقال: يرحم الله الحسن فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة، وينبها من الغفلة، ولله دره من مشفق ما أنصحه، وواعظ ما أصدقه وأفصحه. وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها، ولقد وصفت الدنيا بصفتها، والعاقل من كان فيها على وجل، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات، والسلام عليك ورحمة الله، وبركاته. فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائل حق وقابل وعظاً، لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنّة، ورحم بسلطانه الأمانة، وجعله بركة ورحمة^(١). وكتب إليه: أما بعد فإن الهول الأعظم، والأمر المطلوب أمامك، ولا بد من مشاهدتك ذلك، إما بنجاة أو بعطب^(٢).

٧ - موقفه من الثورات التي حدثت في عهده:

كان يرى أن تغيير الفساد لا يكون بالسيف، وإنما يكون بالتوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصحاب الأمور، وقد قال: وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة^(٣)، وقد قال رسول الله ﷺ في وجوب الصبر على ما نكرهه منهم: «من رأى من أمير شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»^(٤). ويرى بعد فقعه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عقوبة من الله تعالى تحتاج لصبر، ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فوالله ما جاءوا بيوم خير قط^(٥). وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كما مر معنا، وكان يرى أن ولاية الأمور طالما أنهم يقيمون الجمعة والجماعة والفيء، والثغور^(٦) والحدود، فلا يجوز الخروج عليهم^(٧)، وقد علق

(١) الزهد للحسن البصري ص (١٦٩).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٦٩).

(٣) الطبقات الكبرى (٧/١٢٥، ١٣١).

(٤) البخارى رقم ٦٧٢٤، مسلم رقم ١٨٤٩.

(٥) شذرات الذهب (١/١٣٧)، حياة الحسن البصري د. روضة، ص (١٩١).

(٦) حياة الحسن البصري، ص (١٩٤).

(٧) المصدر نفسه، ص (١٩٤).

المودودي على منهج الحسن البصري في التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدواها^(١)، وكان ينظر إلى ثورة يزيد بن المهلب بقلق شديد خصوصاً وأن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده، ولأنه إن تولى أموال المسلمين^(٢) فسينفقها في ملذاته، ويرى الحسن أن غلبة ابن المهلب غلبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس في الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير في المجموع رجلاً من أصحابه^(٣). وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: والله لقد رأيناك والياً ومولى عليك، فما ينبغي لك ذلك. ويقف موقفاً أشد جرأة من سابقه فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون، ثم يسرح بهم إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم، فلما غضب غلبة نصب قصباً، ثم وضع عليها خرقة ثم قال: إني قد خالفتهم فخالقوهم، وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع في جبة^(٤).

وتزداد مواظب الحسن وكراهيته للثورة فيخطب الناس ويقول: أيها الناس، الزموا رجالكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله مولاكم، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة، وطمع فيها يسير، ليس لأهلها بياق، وليس عنهم فيما اكتسبوا براض، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء، والسفراء والسفهاء، وأهل التيه والخيلاء، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي، والمعروف التقى^(٥).

وعلى أثر هذه الخطبة، يهدد مروان ابن المهلب خليفة يزيد في الثورة فيقول: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي يشبط الناس، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبه لظل يعرف أنفه، والله ليكفّن عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبله^(٦)، وعلوج فرات البصرة، أو لأنحين عليه مبرداً خشناً^(٧). ووقف الناس

(١) الخلافة والملك للمودودي، ص (١٤٩).

(٢) حياة الحسن البصري، ص (١٩٦).

(٣) تاريخ الطبري (٤٩١/٧).

(٤) وفيات الأعيان (٢٨٠/٣)، حياة الحسن البصري، ص (١٩٧).

(٥) تاريخ الطبري (٤٩٨/٧).

(٦) أبلته: بضمين ومشددة: أصحابه وقبيلته.

(٧) تاريخ الطبري (٤٩٨/٧).

مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعك، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه، آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني؟^(١).

هذا هو موقف الحسن من كل فتنة، يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة بينهم^(٢). وعن سلم بن أبي الذئال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، فقال رجل من أهل الشام، ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد، نعم ولا مع أمير المؤمنين^(٣). وقد سلك الحسن منهج السلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

أ - أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى في الأمور، واضطراب الأمن وفساد الأحوال، وفوضى ساعة يرتكب فيها المظالم ما لا يرتكب في استبداد السنين.
ب - رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية ويجعل بأس المسلمين بينهم شديداً، فيكلب فيهم عدوهم، ويخرب عليهم حقوقهم.

ج - ولأنه رأى أن الدماء تراق في الخروج بدون حق يقام، ومظلمة تدفع، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم.

د - وجد أن الطريق المعبد لإصلاح هذا، إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل في الفريقين، فاعتقد أن الحكام ما لم يتغير الشعب فالملازمة ثابتة بينهما^(٤).

٨ - كيف يضل قوم هذا فيهم؟

قال خالد بن صفوان: لقيت مسلمة بن عبد الملك فقال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت: أصلحك الله، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلى جانبه، وجليسه في مجلسه وأعلم من قبلي به: أشبه الناس سريرة بعلائية، وأشبهه قولاً

(٢) حياة الحسن البصري، ص (١٩٨).

(١) المصدر نفسه (٤٩٩/٧).

(٤) تاريخ الجدل، ص (٣٢٣).

(٣) الطبقات الكبرى (١٢١/٧) حياة الحسن، ص (١٩٨).

بفعل، إن قعد على أمر قام به، وإن قام على أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه، قال: حسبك، كيف يضل قوم هذا فيهم^(١). ومن أقوال الحسن البصرى ما رواه هشام بن حسان: سمعت الحسن يحلف بالله، ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله^(٢)، وقال: بش الرفيقات، الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقاك^(٣).

٩- وفاة الحسن البصرى:

مرض الحسن البصرى مرض الموت، وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به، وهو على سريره يسترجع ويكثر من الاسترجاع، فيقول له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله: يا بنى لا أسترجع إلا على نفسى التى لم أصب بمثلها^(٤)، وعن أبان بن محبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد، زدنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عني ودعوني لما توجهت له، ما نهيتهم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان، خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون^(٥). وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمى عليه، ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتموني من جنان وعيون ومقام كريم^(٦). وفى ليلة الجمعة وفى مستهل رجب سنة عشر ومائة^(٧)، أسلم الروح إلى بارئها وعاش نحواً من ثمان وثمانين سنة. كما قال ابنه عبد الله^(٨)، وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة فى المسجد فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن^(٩). وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختياني، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقرئ^(١٠)، قال حميد

(٤) المصدر نفسه (٥٨٧/٤).

(١)، (٢)، (٣) سير أعلام النبلاء (٥٧٦/٤).

(٦) سير أعلام النبلاء (٥٨٧/٤).

(٥) حلية الأولياء (١٥٤/٢).

(٨) سير أعلام النبلاء (٥٨٧/٤).

(٧) تذكرة الحفاظ ص ٧٢، حياة الحسن البصرى، ص (٢٠٢).

(٩) وفيات الأعيان (٧٢/٢)، الطبقات الكبرى (١٢٩/٧).

(١٠) تاريخ الذهبى، نقلاً عن حياة الحسن البصرى د. روضة، ص (٢٠٢).

الطويل: توفي الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره، وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، ففتح الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر^(١).

رحم الله الحسن البصرى النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً؛ زهداً، وورعاً، وعلماً، وحكمة، وشجاعة، وأدباً^(٢)، وكان من العلماء الذين نشطوا فى دولة الفقهاء التى قادها عمر ابن عبد العزيز ولم ييخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعاً: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع فى المناطق النائية فى أطراف الدولة، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال، وأول أعماله فى هذا المضمار كان فى القوات التى عنى الخليفة سليمان بحشدتها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية، وظلت تحاصرها مدة ستين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح فى تحقيق هدفها، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية، وقد كان سليمان أغزاه إياها براً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق؛ ولجَّ سليمان فى أمرهم، فكان ذلك يغم عمر، فلما ولى رأى أنه لا يسعه فيها بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة، فذلك الذى حمله على تعجيل الكتاب^(٣)، وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالققول منها بمن معه من المسلمين، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً، وحث الناس على معاونتهم، فكان الذى وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل خمسمائة رأس^(٤). ويروى خليفة أنه فى سنة ٩٩ هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٥٨٧). (٢) حياة الحسن البصرى، ص (٥٠٣).

(٣) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلی، ص (١٤٠).

والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم، وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث إليه، وبعث معه بعضًا فأغاث الناس، وأذن لهم بالقفول^(١).

وفي الأندلس وليّ عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك الخولاني، وعهد إليه. بإخلاء الأندلس إشفافاً عليهم، إذ خشي تغلب العدو عليهم، لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين^(٢). غير أن السمع لم ير الانسحاب الكامل في الأندلس، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك، وأزال الأندلس عن عمالة إفريقية^(٣).

وفي المشرق، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذرايرهم، فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين، فحسبهم الذي فتح الله عليهم^(٤). ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمي: «لا تغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم»^(٥).

وفي جبهة بلاد السند: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشه والملوك، وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر^(٦).

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المقاتلة في الأطراف النائية للدولة وعمله على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعني أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمقاتلة كانت تمسُ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأى دولة عن مؤسسة الجيش في حفظ حدودها المخاطر التي قد

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، تاريخ الإسلام للذهبي نقلًا عن العلي، ص (١٤٠).

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص (١٢، ١٣).

(٣) فجر الأندلس لحسين مؤنس، ص (١٣٦، ١٣٧)، عمر بن عبد العزيز، صالح العلي، ص (١٤٠).

(٤) تاريخ الطبري نقلًا عن عمر بن عبد العزيز للعلي، ص (١٤١).

(٥) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، عمر بن عبد العزيز للعلي، ص (١٤١).

(٦) فتوح البلدان، ص (٤٢).

تعرض لها. لذلك كان لا بد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهى مراكز إقامة المقاتلة العرب، قائمة دون أن يلغىها، أو يبدلها، أو يدخل تعديلات فى تنظيماتها السكانية والإدارية. وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة، استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق فى عدد من الجبهات. ففى أذربيجان أغار الترك على المسلمين؛ فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّهَ إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلى، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً^(١).

وفى سنة ١٠٠ هـ أغارت الروم فى البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسبوا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها^(٢). وفى ١٠١ هـ أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطى، وعمر بن قيس الكندى من أهل حمص، الصائفة^(٣). وأمر بترحيل أهل طرندة^(٤) وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو^(٥). وأراد أن يهدم المصبصة لتعرضها لغارات الروم، ثم أمسك عن ذلك، وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفريا واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً^(٦). وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن أنطاكية من غزوات الروم المتكررة^(٧).

ورغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد حد من النشاط العسكرى مع الروم وسحب الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة فى بلد الروم، إلا أنه كان حازماً شديداً فى أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عليه قصة رجل أسير فى بلد الروم - وقد مرت معنا - أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله، لئن لم ترسله إلىَّ لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي^(٨)، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه^(٩). وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٦)، عمر بن عبد العزيز للعلی، ص (١٤٢). (٢) فتوح البلدان، ص (٢٠).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن عمر بن عبد العزيز للعلی، ص (١٤٢).

(٤) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.

(٥) فتوح البلدان، ص (٢٢٠).

(٦) المصدر نفسه، ص (١٦٣).

(٨)، (٩) المصدر نفسه، ص (١٣١).

(٧) العلاقات العربية البيزنطية ص (١١٩).

وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التى دخلت فى الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التى كانت فى أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

ثامناً الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده على البناء الداخلى للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها، ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام، ووضع مشروعاً كبيراً لتحقيق ذلك الهدف العظيم، ولم يكن عمر بالإنسان الذى تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حول مشروعه إلى برنامج عملى قابل للتطبيق، بعدما مهد الظروف، وأحاط برنامجُه بالضمانات العملية وهىأ له الأسباب مما جعله يحيله إلى واقع مشهود. وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوى التربوى العلمى أمور منها:

١- وضع قانون التفرغ للدعاة: حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كى تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التى يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة، فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب^(١)، فقارئ القرآن الذى حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه، والمحدث الذى يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوى، والفقيه الذى ينظر فى الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة، والطالب الذى يتفرغ للعلم أو البحث والدرس، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسد حاجتهم وتبدير أمور معاشهم، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة، تتكفل به الدولة، ويؤخذ من بيت المال، ونعماً فعل رضى الله عنه، فبذلك شجع كل من وجد فى نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين

(١) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، ص (١٨٤).

والأمة^(١). وكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مائة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع في أى بلد إسلامي، بغرض التفقه ونشر العلم، وتدريس القرآن وتلاوته^(٢). وعن أبي بكر بن أبي مریم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: مُر لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث^(٣). وعن أبي مریم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفق، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه، من بيت مال المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام عليك^(٤). وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه، وللقصاص والواعظين كذلك، وذكر ابن شبة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً - وهو بالمدينة - أن يقص على الناس، وجعل له دينارين كل شهر، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة^(٥). ومما جاء في كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل، ما ذكره ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرغوهم للطلب^(٦).

٢- حض العلماء على نشر العلم وإعلانه، واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوي، وإحياء السنة^(٧). قال عكرمة بن عمار - وهو من أهل اليمن -: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد، فأمر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت^(٨)، وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرقي - نسبة إلى

(١) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٢).

(٢) ملاحم الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص (١٨٤).

(٣) أصول الحديث، ص (١٧٨)، عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٢).

(٤) البداية والنهاية، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٢).

(٥) أخبار المدينة نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٣).

(٦) جامع بيان العلم (١/٢٢٨)، عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٧٣).

(٧) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٧٣).

(٨) أصول الحديث، ص (١٧٨)، عمر بن عبد العزيز، ص (٧٣).

الركة شمال شرقى سورية - قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فمرُّ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله فى مجالسهم، ومساجدهم^(١).

٣- توجيه الأمة إلى أهمية العلم: وفى ذلك يقول: إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع، فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجاً إن قبل^(٢).

٤ - إرسال العلماء الربانيين فى شمال إفريقيا:

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار بل البوادرى ليعلموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبى مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلموا الناس السنة، وأجرى عليهما الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لأخذ على علم علمنيه الله أجراً. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث^(٣). وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلّى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله - من جهة أخرى - أن يكثر من أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله^(٤). وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتى الثبت، عالم المدينة (نافعاً) مولى ابن عمر، وراويته، فعن عبد الله بن عمر: بعث عمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن^(٥)، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين إلى إفريقية، ليفقهوا أهلها ويعلموهم، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ، لينالهم من الخير مثل الذى عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق، وكانت معاقل العلم^(٦)، وتطلع إلى شمال إفريقيا، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافاً لخطته التعليمية فى ذلك الإقليم منها:

(١) جامع بيان العلم (١/١٤٩).

(٢) ابن عبد الحكم نقلاً عن عمر للزحلى، ص (٧٤).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٦٠)، ملامح الانقلاب، ص (١٨٤).

(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر، ص (١٨٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٩٧٩)، تذكرة الحفاظ (١/١٠٠).

(٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٦٩).

أ- اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

ب- وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

ج- الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب، وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

د- البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة.

هـ- تعليم الناس الحلال والحرام^(١).

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليه، وإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين، وإليك ترجمة الأمير والفقهاء:

- إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر: ولاء عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة ٩٩ - ١٠٠هـ، فكان خير أمير، قال ابن خلدون: وأسلم جميع البربر في أيامه، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين، ويبينون لهم الحلال والحرام^(٢). وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع حريصاً على نشر العلم وسار في أهل البلاد بسيرة العدل، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ، فقد روى عنه ابن عساكر إنه قال: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن، أخرج له البخاري ومسلم وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس، ناشراً للسنة، لمدة ثلاث وثلاثين سنة، حيث توفي بها سنة ١٣١هـ^(٣)، وقد جمعت شخصية إسماعيل، رحمه الله، الكفاءة، والعلم والورع، فأنتجت هذه الثمار التي ساهمت في ترسيخ الإسلام في شمال إفريقيا، وينبغي لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها في نفوس القادة والولاة.

(١) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي للصلاحي، ص (٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (١٤٨). (٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ - ٢٢).

- بكر بن سواد الجذامي، أبو ثمامة (ت: ١٢٨ هـ بإفريقية): أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة محدثاً ومفتياً، وفقياً، وقد انتفع به أهلها، ورووا عنه، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة، منهم: عقبة بن عامر، وسهل بن سعد الساعدي، وسفيان بن وهب الخولاني، كما روى عن جماعة من التابعين منهم: سعيد بن المسيب وابن شهاب الزهري، وقد قارب شيوخه الأربعين، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد، وأبو زرعة الإفريقي، وكان ثقة في حديثه، أخرج له مسلم والأربعة، والبخاري تعليقاً، وأحمد، والطبراني، وغيرهم، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها^(١).

- جعثل بن عاهان الرُّعيني القتباني، أبو سعيد (ت: حوالي ١١٥ هـ): عدّه أبو العرب وابن حجر وغيرهما في التابعين، ولم يذكره عمن روى من الصحابة، وكان محدثاً، فقيهاً مقرئاً، تولى قضاء الجند بالقيروان وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً، وروى عنه من أهل القيروان، عبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، وبكر بن سواده، وهو زميله في البعثة العلمية، وثقه أكثر النقاد، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم. توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٥ هـ^(٢).

- حبان بن جبلة القرشي: مولاهم، أرسله عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل مصر، ت: ١٢٥ هـ وقيل ١٢٢ هـ بالقيروان، أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة منهم: ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ووالده عمرو، وبقي يث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة، انتفع به أهلها، وروى عنه كثير منهم، كعبد الرحمن بن زياد، وعبيد الله بن زحر، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم، وهو عند النقاد ثقة في حديثه، أخرج له البخاري في الأدب المفرد وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرک وغيرهم^(٣).

- سعد بن مسعود التجيبي أبو مسعود (تُوفى بالقيروان): يروى عن جماعة من الصحابة، منهم: أبو الدرداء، ويروى عن النبي ﷺ مراسلاً حتى وهم بعضهم

(١)، (٢)، (٣) مدرسة الحديث بالقيروان (١٤/٢ - ٢٢) .

فعده في الصحابة، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحة له، وقد سكن القيروان، وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة، وكان شديداً على الأمراء، روى عنه من أهل القيروان: مسلم بن يسار الإفريقي، وعبيد الله بن زحر، وعبد الرحمن بن زياد، في جامع ابن وهب وغيره، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً، ولم يذكر تاريخ وفاته^(١).

- طلق ابن جعبان الفارسي، وقيل: جابان، والصواب الأول كما في الإكمال، تابعي، لقي عمر وسأله، وأكثر روايته عن التابعين، كان فقيهاً عالماً، وروى عنه من أهل القيروان: موسى بن علي، وابن أنعم، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته^(٢).

- عبد الرحمن بن رافع التنوخي، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة ١١٣ هـ): دخل القيروان في وقت مبكر، سنة ٨٠ هـ، وهو أجل قضاتها، وذلك على عهد حسان ابن النعمان، واستمر يث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها، وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة الصحابة عرفنا منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص، وحدث عنه من القرويين: عبد الرحمن بن زياد الإفريقي، وعبيد الله بن زحر الكناني، ويكر بن سواد الجذامي وغيرهم... وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة ١١٣ هـ^(٣).

- عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني: كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة، معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩ هـ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه، فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣ هـ، وكان زاهداً ورعاً عالماً، سار في أهل القيروان بالكتاب والسنة، ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن خمس وعشرين سنة، ذكره ابن حبان في الثقات، وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين^(٤).

(١) مدرسة الحديث بالقيروان (١٤/٢ - ٢٢).

(٢) (٣) عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج، ص (٤٥).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٦).

- عبد الله بن يزيد المعافري الحلبى، أبو عبد الرحمن (ت: بالقيروان ١٠٠هـ): دخل القيروان فى زمن مبكر، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦هـ، لأنه شهد فتح الأندلس، ثم عاد إلى القيروان وسكنها، وبنى بها داراً ومسجداً، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية، إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠هـ، أى بعد سنة واحدة من التكليف الرسمى، ومع ذلك فقد قال عنه المالكى: انتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً، وأدخل القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها، وزاد فى إفتاء حديث من دخلها منهم، حدث عن ابن عمر، وعقبة بن عامر، وابن عمرو، وأبى ذر، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد، وأبو كريب جميل بن كريب القاضى (ت ١٣٩هـ) وغيرهما، كان رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السنة، وكان تأثيره فى الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثى منها - بالقيروان كبيراً، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية، أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب فى جامعه وأحمد وغيرهم^(١).

- وهب بن حى المعافري: وقد ذكر ابن أبى حاتم أن هناك من قلبه إلى: حى بن موهب، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك، غزا إفريقية قديماً، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ عن آنية أهل المغرب، كما فى الرياض والمعالم، وهو من أفراد بعثة عمر، وقد سكن القيروان، وبث فيها علماً كثيراً، وبها كانت وفاته، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره، وروى عن النبى ﷺ مرسلًا، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقى، ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح^(٢).

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين، أرسلهم، عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقى ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم، فكانوا عند حسن ظنه بهم، وكانوا للناس قدوة صالحة، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً^(٣). وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة فى القرآن الكريم وتفسيره والحديث، وفى نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة،

(١) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٦). (٢) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢).

(٣) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٧).

وساعدوا ولاية أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر، فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة ابن صفوان بطنجة سنة ١٢٢هـ جمع حنظلة علماء إفريقية، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها، فكتبوا هذه الرسالة ليقترئ بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: ... فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: أمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فأمرة بالمعروف وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة. فمن يطع الأمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأندرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة فقد فاز وأفلح وأنجح، وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام^(١)، إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى أنهم أوجزوا فحوى الرسالة، ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية^(٢).

٥ - رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغتهم، فأسلم جيشة بن داهر^(٣)، والملوك تسموا له بأسماء العرب... وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك^(٤). وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم^(٥)، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر

(١) رياض النفوس للمالكي (١٠٢/١، ١٠٣). (٢) عصر الدولتين الأموية والعباسية، ص (٤٨).

(٣) فتوح البلدان، ص (٤٢٨)، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٣).

(٤) الكامل في التاريخ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٣).

يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم^(١)، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه عمر وفداً برئاسة عبد الأعلى بن أبي عمرة لدعوته إلى الإسلام^(٢).

٦ - تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتأليف قلوبهم، وذلك اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام - كان على ديوان أهل المدينة - عن عمر ابن عبد العزيز أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام^(٣). كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام^(٤).

٧ - تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه أهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح في زيادة إقبال الذميين على الدخول في الإسلام، برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال، مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية^(٥)، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا قبل إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين^(٦). وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس في الإسلام طائعين، ففي خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمي على يد واليه الجراح بن عبد الله^(٧)، أما في المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والي عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر^(٨).

(١) فتوح البلدان، ص (٤١٥).

(٢) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٣).

(٣) الطبقات (٥/٣٥٠)، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٤).

(٤) الطبقات (٥/٣٥٠).

(٥) تاريخ الطبري، نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٤).

(٦) الطبقات (٥/٣٨٦). (٧) المصدر السابق (٥/٣٨٦).

(٨) فتوح البلدان، ص (٢٣٢، ٢٣٣) للبلاذري، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ص (١٧٤).

وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر في الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جددًا دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش، وهم رعاياه، ويعيشون بين أظهر المسلمين، وبالتالي أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام. وبهذا يكون الإسلام قد انتشر على عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة، والاستمرار في أسلوب الجهاد الدعوى على أيدي علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التي نضجت في عهد الدولة الأموية، وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوى العلمى.

الفصل السادس

الإصلاحات المالية فى عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية، فهو مسئول عن دولة وكان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها، ويضع الضمانات لكل عمل يعتزم تنفيذه^(١). ولقد سار فى سياسته على أمور منها:

- العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة، والتضحية فى سبيل ذلك، وهذا ما يبدو واضحاً من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته، ومثال ذلك قوله: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنّاً؛ الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر فى أمر خالفها^(٢).

- ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم: وهذا هو أساس سياسة عمر، فجميع الأهداف والوسائل التى اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الشريعة، ومقصد رئيسى من مقاصدها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. يقول ابن القيم: فإن الشريعة مبناه وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة^(٣). ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ، ويقول فى ذلك: ما من طينة أهون على فتاً، ولا كتاب أيسر على رداً من كتاب قضيت به، ثم أبصرت أن الحق فى غيره ففتتها^(٤).

أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر:

١ - إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل:

لقد سعى عمر بن عبد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل، الذى يرضى الله تعالى، ويحقق قيم الحق والعدل، والتى وضعها عمر نصب عينيه

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٢٧).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٨).

(٣) إعلام الموقعين (٣/٣).

(٤) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١١٣).

فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته، ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية فقال له: لقد رأيتك زدت أهل الغنى، وتركت أهل الفقر بفقرهم^(١). فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعى هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

- منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلمًا، والتى استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عرفوا، أو إلى بيت المال، إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

- زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى^(٢). وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا فى سياسته فى رد المظالم، ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف إلى إيصال الناس إلى حد الكفاية؛ يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يومًا فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم^(٣). وفى خطبة أخرى: .. ما أحد منكم تبلغنى حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندى إلا وددت أنه بدئ بى وبلحمتى الذى يلوننى حتى يستوى عيشنا وعيشكم^(٤).

وقد طبق عمر هذا التصور عمليًا عندما أمر بقضاء دين الغارمين فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث فى بيته، فأجاب عمر: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث فى بيته، فهو غارم فاقضوا عنه^(٥)، فسياسة عمر

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٣٥).

(٢) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزى، ص (٣٥).

(٣) الإدارة الإسلامية فى عز العرب، محمد كرد على، ص (١٠٣).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٤٢). (٥) المصدر نفسه، ص (١٧١).

التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهى عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها^(١).

٢ - تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية:

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن، ورد الحقوق لأصحابها، وبذلك باتت الرعاية مطمئنة على حقوقها، آمنة فى أوطانها. كذلك أمر ببناء المرافق العامة، والتي تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية، ولا تقوم التنمية إلا بهذه المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط الشريعة، فانتشر الناس فى تجارتهم وثمار أموالهم، واهتم كذلك اهتماماً بالغاً بالزراعة، حيث كان القطاع الزراعى من أكبر القطاعات على المستوى الفردى، وله مردود كبير على ميزانية الدولة، وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد^(٢)، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً وذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده، فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس^(٣).

ثانياً: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل منها:

١- توفير المناخ المناسب للتنمية: وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية، وقام بالآتى:

أ- رد الحقوق لأصحابها: فتوافرت أجواء الأمن والطمأنينة، وترسخت قيم الحق والعدالة، وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم^(٤)، وقد تحدثت عن سياسته فى رد المظالم والحقوق إلى أهلها، وذكرت الكثير من المواقف فى هذا الشأن.

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٣٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (٤١).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٨).

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية، ص (٤٣).

ب- فتح باب الحرية الاقتصادية بقيود: فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة، وكتب إلى العمال: .. وإن من طاعة الله التى أنزل فى كتابه أن يُدعى الناس إلى الإسلام كافة وأن يتغى الناس بأموالهم فى البر والبحر ولا يمنعون، ولا يحبسون^(١). وقدم فى موضوع آخر: ... أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسиров عليها دون جُعْل^(٢)، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به^(٣). ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز فى الأسعار، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ما بال الأسعار غالية فى زمانك، وكانت فى زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الزمة فوق طاقتهم فلم يكونوا يجدون بُدًا من أن يبيعوا ويكسروا ما فى أيديهم، وأنا لا أكلف أحدًا إلا طاقتة، فباع الرجل كيف شاء، قال: فقلت: لو أنك سَعَرْتَ، قال: ليس إلينا من ذلك شىء، إنما السعر إلى الله^(٤)، وتشدد عمر فى أمر السلع المحرمة ومنع التعامل بها، فالخمر من الخبائث التى لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها، حيث يؤدى شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئًا بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة فى ماله ونفسه، ونجعل له نكالًا لغيره^(٥).

وقد أثمرت سياسة عمر فى رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والانتاج، وأزالت العوائق التى تحول دون ذلك، وهذا أدى إلى نمو التجارة، وبالتالي إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة، وهذا يؤدى بدوره إلى زيادة الزكاة مما يؤدى إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية، والتى ستتوجه إلى الاستهلاك، وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلعة، والخدمات، وهذا كله يؤدى إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه^(٦).

٢- اتباع سياسة زراعية جديدة: فقد اتبع خطوات ترمى إلى زيادة الإنتاج الزراعى للأمة، وإليك تفصيل هذه الخطوات:

(١) سيرة عمر لابن الحكم، ص (٩٤)، السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٤٧).

(٢) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله. (٣) الإدارة الإسلامية، محمد كرد، ص (١٠٥).

(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٤٨). (٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٠٣).

(٦) سياسة الإنفاق العام فى الإسلام، عوف الكفراوى، ص (٣٧٢).

أ- منع بيع الأرض الخراجية: سأل الناس عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان أن يأذنوا في شراء الأرض من أهل الذمة، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز، ترك هذه الأثرية على حالها، وذلك لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون، ولم يقدر على تخليصه، وكتب كتاباً قرئ على الناس سنة المائة: أن من اشترى شيئاً بعد سنة مائة، فإن بيعه مردود، وسميت سنة مائة سنة المدة، فتناهى الناس بعدها عن الشراء^(١). ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج، فأجاب عمر: إني لا أعلم شيئاً أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التي جعلها الله لهم فيئاً. قال أبو عبيدة: فكان مذهب عمر بن عبد العزيز في الأرض أنه كان يراها فيئاً، ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها^(٢). وكتب إلى ميمون بن مهران: أما بعد، فحل بين أهل الأرض وبين بيعه ما في أيديهم، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين^(٣). كذلك رفض عمر تحويل الأرض التي دخل أهلها في الإسلام من أرض خراج إلى أرض عشر^(٤)، وأبقى الخراج عليهم والعشر وقال: الخراج على الأرض والعشر على الحب^(٥). وبذلك حافظ على المورد الرئيس للإنتاج وجعله ملكاً عاماً للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة^(٦).

ب- العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم: اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر بن عبد العزيز على إرهاب المزارعين بالضرائب، فكثرت الضرائب وتنوعت، واشتد الأمر على أهل الأرض فهجروها، فخربت، فأضر ذلك بمالية الدولة، ولقد لجأوا إلى أساليب العذاب في الجبائية، فاضطر المزارعون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشديد ما عليهم^(٧)، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة، وكتب بذلك إلى العمال كتاباً: فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله،

(١) الخراج للرئيس، ص (٣٩٠)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٤٩).

(٢) الأموال لأبي عبيد ص (١٢١) رقم (٢٥٦).

(٣) المصدر نفسه رقم (٢٥٧)، ص (١٢٢).

(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٥٠).

(٥) الأموال رقم (٢٣٥) ص (١١٤) لأبي عبيد.

(٦) الخراج الرئيس، ص (٢٣٩)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٥٠).

(٧) الضرائب في السواد للدوري، ص (٥٧).

وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء . . ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة^(١)،
ليس لها آيين ولا أجور الضرايين^(٢)، ولا هدية النيروز والمهرجان^(٣)، ولا ثمن
الصحف ولا أجور الفيوج ولا أجور البيوت^(٤). وقد ألغى القباله، وكانت مألوفة في
البصرة، وألغى أسلوب الخرص^(٥). حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عال
ويقبضونه نقداً، وبذلك يرهقون الزراع، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار
الفعلية، وكتب لعامله: بلغنى أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على
أهلها بسعر فوق سعر الناس الذى يتبايعون به ثم يأخذون ذلك ورقاً على قيمتهم التى
قوموها . . وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر فى ذلك ورد الثمن
الذى أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم^(٦).

ولقد أمر عمر بالغاء ضريبة ثابتة على أهل اليمن، كالخراج مع أن أرضها أرض
عشرية، وكتب إلى عامله على اليمن: أما بعد، فإنك كتبت إلى أنك قدمت اليمن
فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها
على كل حال، أخصبوا أو أجذبوا؛ أو حيوا أو ماتوا، فسيحان الله رب العالمين،
ثم سيحان الله رب العالمين . . إذا أتاك كتابى هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما
تعرفه من الحق، ثم ائتف الحق فاعمل به بالعأبى وبك، وإن أحاط بمهج أنفسنا،
وإن لم ترفع إلى من جميع اليمن إلا حفة من كتم^(٧)، فقد علم الله إنى بها
مسرور إذا كانت موافقة للحق^(٨) والسلام.

ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها،
وقد كان لها أثر اقتصادى سيئ حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفون عن

(١) الدرهم الذى ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب.

(٢) الآيين: أصول إدارية ساسانية، وهى رسوم المسّاحين أرض الخراج، وأجور الضرايين: هى أجور
المختصين بالنقد من الصرافين .

(٣) النيروز والمهرجان: عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيهما الهدايا .

(٤) الصحف: عبارة عن أوراق تعطى براءة بالدفع . والفيوج: جمع فيج وهو رسول السلطان الذى يسعى
بالكتب، وأجور البيوت: هى أجور المخازن المحلية التى توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز .

(٥) القباله من التقبل والتقبيل: أى شخصاً كفيلاً بذلك لتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه،
الخرص: الخزر.

(٦) الضرائب فى السواد، ص (٦٥). (٧) الكتم: نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٨) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٦)، الخراج للرئيس ص (٢٢٩).

أرضهم ويتركونها، فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد وليت المال، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصرًا على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف، فهو لا يريد إيرادًا كثيرًا ظالمًا^(١)، وقد ساهمت إصلاحات عمر في إلغائه للضرائب الجائرة في انتعاش اقتصاد الدولة.

ج - الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموت: شجع عمر على إحياء الأرض الموت، وعلى إصلاح الأراضي للزراعة، وكتب بذلك إلى عامله على الكوفة: لا تحمل خرابًا على عامر، ولا عامرًا على خراب^(٢)، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض^(٣). وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له، وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي: من أحيا أرضًا ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضًا وتركوا بعضًا، فأجز للقوم إحياءهم الذى أحيوا ببنيان أو حرث^(٤)، وحرص عمر على استغلال أرض الصوافي^(٥)، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها، وأمر بإعطائها مزارعة على النصف؛ فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال^(٦). وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم ويروى فى ذلك أن جيشًا من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم^(٧)، وكان يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء فى رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإننا لا نريد لهم لعام ولا لعامين^(٨).

(١) السياسة الاقتصادية المالية لعمر، ص (٥٢). (٢) المصدر نفسه، ص (٥٣)، العامر: الأرض المزروعة.

(٣) الأموال لأبى عبيدة رقم (١٢٠)، ص (٥٧).

(٤) الأموال رقم (٧١٧)، ص (٣٦٩)، البنيان هو البناء، والحرث هو الزرع.

(٥) الصوافي: ما يستخلصه السلطان لخاصته، وقيل: الأملاك والأراضي التى جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها واحدها صافية .

(٦) الخراج، ص (٩٩)، يحيى بن آدم، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٥٤).

(٧) سيرة ومناقب عمر، ص (١١٧) لابن الجوزى.

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢٠٢).

د- عمر والحمى: منع عمر الحمى الخاص وأباح هذه الأراضي للمسلمين جميعاً، لا تختص بها طائفة على أخرى، وفى ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وكانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون فى ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها، وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى فى ترك حماها والتزهر عنها خيراً، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء^(١)، وعندما أباح الأحماء كلها استثنى النقيع^(٢) الذى حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة^(٣). فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين، ونفعها مصروف لهم، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين^(٤).

هـ- توفير مشاريع البنية التحتية: سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميراً على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين، فاهتم بالمشاريع التى تخدم التجار والمزارعين والمسافرين، وعندما كان والياً على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتاباً فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار فى المدينة، فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء^(٥). كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوارة ماء، وأجرى ماءها ووسع المسجد النبوى ورفع منارته وجوف محاربيه، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين^(٦). كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز^(٧). وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم، فأذن له عمر وحفر النهر، وسمى نهر عدى^(٨).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٨).

(٢) النقيع: موضع لبلاذ مزينة على ليلتين من المدينة، وهو نقيع الخضومات الذى حماه عمر بن الخطاب لنعم الفئ وخيل المجاهدين. انظر: السياسة الاقتصادية والمالية، ص (٥٤).

(٣) فتح البارى (٣٤/٥).

(٤) الاتجاه الجماعى فى التشريع الاقتصادى، ص (٢٤٢).

(٥) الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى نجد والحجاز فى العصر الأموى، ص (٥٦).

(٦) خامس الخلفاء الراشدين للبدرى، ص (١٧٠).

(٧) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز، ص (٥٥). (٨) المصدر نفسه، ص (٥٧).

ثالثاً: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية فى الإيرادات:

إن السياسة المالية بإيراداتها ونفقاتها تعتبر أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية^(١)، لذلك بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب، وأنفق فى رد المظالم حتى أنفد بيت مال العراق، وجلب إليه من الشام^(٢)، وأنفق على المشاريع الزراعية، ومشاريع البنى الأساسية، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب، وفى جانب الإيرادات، سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة، ورفع الجزية عن أسلم، وألغى الضرائب الإضافية التى كانت تؤخذ من المزارعين، وألغى المكوس والقيود، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة، فأعاد إليه القطاعات، والمظالم، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين، وبالع فى الاقتصاد فى الإنفاق الإدارى والحربى^(٣)، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات، فتمت الزراعة والتجارة، وجنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور، وفاضت ميزانية الدولة، فوجه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية. ونلاحظ فى التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغراء فاض ميزانها المالى، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاب، ولم تهمل مصلحة من مصالحها، وكلما اعوج أمر الدولة، وحادت عن سبيل الشريعة، اختل التوازن المالى، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ونظامها وفوضاها^(٤).

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفقراء.

١- الزكاة:

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين، والمستعبدين، ولا يجوز التهاون فيه، واهتم بتوزيعها على مستحقيها^(٥)، فأمر ولاته بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم، وفى حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين أمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعناقهم من مال

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٩).

(٤) المصدر نفسه، ص (٥٨).

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٥٧).

(٣) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر، ص (٥٨).

(٥) المصدر نفسه، ص (٦٠).

الزكاة^(١). وعزم عمر على اتباع هدى النبي ﷺ فى الزكاة، وكان الولاية قبله قد تهاونوا فيها، فأخذوها من غير حقها، وصرفوها فى غير مصارفها^(٢)، ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات، ولكتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه - وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر والغنم، والذهب، والورق، والتمر، والحب، والزبيب، وبيئت الأنصبة لكل هذه الأصناف^(٣). واتبع عمر السنة فى مصارف الزكاة، فاستشهد بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠] ثم أمر أن توضع الصدقات كما أمر الله تعالى فى كتابه^(٤)، كما اتبع عمر السنة فى جباية الزكاة، فعين عمالاً ثقة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ، وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدفعها^(٥). وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التى تجب فيها، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدَّت لأصحابها، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها^(٦). وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا^(٧)، وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردها وتوزيعها فى البلاد التى جمعت منها^(٨).

وكانت لهذه الإصلاحات الاقتصادية فى جباية الزكاة أثر فى زيادتها ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية إلى زيادة تحصيل الزكاة، فتوفره لأجواء الأمن والطمأنينة، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيدة، وإلغاؤه للضرائب الظالمة، أدت جميعاً إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة^(٩)، ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة، برز هذا من خلال فقهه فى زكاة الثروة الزراعية، وزكاة الإبل العامة، وزكاة السمك، وزكاة العسل، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٦٠). (٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (١٢٩).

(٣) الأموال لأبى عبيد، ص (٤٤٧) رقم (٩٣٤)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٦١).

(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٤). (٥) المصدر نفسه، ص (٩٩).

(٦) الأموال لأبى عبيد رقم (١٢٢٦)، ص (٥٢٩).

(٧) فتح البارى (٣/٣٢٢)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٦١).

(٨) الأموال رقم ١٩١٧ ص ٧١٢. (٩) ملامح الانقلاب، ص (١٣٥).

للزكاة، مما يؤثر في زيادة جبايتها. وأما زيادة الدعوة زمن عمر، ودخول أهل الذمة في الإسلام أفواجا، فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء، وسيدفع الأغنياء حقاً مفروضاً عليهم وهو الزكاة.

وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت في دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم وهذا واضح من تدافع الناس لأداء الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر، وهذا يؤدي إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة وزيادة آثارها الاقتصادية عند إنفاقها في مصارفها^(١). وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس في ذلك الزمن، فكان الرجل يأتي بركاته، فلا يجد من يأخذها^(٢)، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج، فكثرت عدد المؤدين للزكاة، وانخفاض عدد القابضين لها^(٣).

٢- الجزية:

والجزية في الاصطلاح: هي الوظيفة (الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام، والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع^(٤)، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة في إيراد الجزية، فقد أسقطها عن أسلم، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام^(٥)، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بني أمية في أخذ الجزية عن أسلم، فأخذها الحجاج لظنه أنهم دخلوا الإسلام هرباً من الجزية، وقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجاج وعلى الأمويين^(٦)، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين^(٧)، وتشدد في ذلك، وكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه: من شهد شهادتنا، واستقبل قبلتنا، واختنق فلا تأخذوا منه الجزية^(٨). ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول في الإسلام، فشكا عامله ذلك، لأنه أدى إلى نقصان الجزية، فأجابه عمر: أما بعد، فإن الله قد بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جايئاً^(٩). ولأن عمر اعتمد في سياسته

(١) ملامح الانقلاب، ص (١٣٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٣١/٥)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٦٩).

(٣) السياسة المالية والاقتصادية، لعمر ص (٦٩). (٤) المغني لابن قدامة (١٠/٥٥٧).

(٥) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٠). (٦) الضرائب في السواد، ص (٥٨).

(٧) الطبقات (٥/٣٤٥)، الخراج للريس، ص (٢٣٠). (٨) الأموال رقم (١٢٧)، ص (٦١).

(٩) الطبقات (٥/٣٨٤).

على ترسيخ قيم الحق والعدل، ورفع الظلم عن أهل الذمة، ورفق بمزارعيهم وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد، فجعلها على ثلاث طبقات للغنى وللمتوسط وللفقير، وجعل صاحب الأرض يعطى جزيته من أرضه، والصانع يخرجها من كسبه، والتاجر من تجارته^(١)، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم^(٢)، ورفع الجزية عن الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها، وأجرى عليهم رزقاً من بيت المال، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه^(٣)، وخفّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر، وجزيتهم بقيت كما هي، فأخذ منهم مائتي حلة بدلاً من ألفين، وأسقط جزية من مات أو أسلم^(٤). وقد كانت للإصلاحات فى جباية الجزية آثار مالية لصالح بيت المال، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدى إلى زيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم، والشعور بالعدل والإنصاف، وبالتالي أدى إلى إيقاف القلاقل والفتن التى كلفت الدولة نفقات طائلة، كما إن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية، والزكاة مقدارها أكبر هذا مع استمرار دفع الخراج على الأرض، أما انتشار أجواء الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية^(٥).

٣- الخراج:

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة، أو الأرض التى صالح أهلها عليها^(٦). لقد ارتفع إيراد الخراج فى زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مائة وأربعة وعشرين مليون درهم^(٧). وكانت هذه الزيادة فى إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية، فقد منع بيع الأرض الخراجية فحافظ على المصدر الرئيسى للإنتاج، كما اعتنى بالمزارعين، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التى كانت تعوق إنتاجهم، واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات، كما اهتم ببناء

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٩). (٢) الأموال لأبى عبيد رقم (١٠٧)، ص (٥١).

(٣) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧١). (٤) الخراج للريس، ص (٢٣٢).

(٥) الخراج، ص (٢٥٩) للريس، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٢).

(٦) معجم لغة الفقهاء، ص (١٩٤). (٧) الخراج للريس، ص (٢٣٨).

مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعي فبنى الطرق والقنوات^(١)، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقى محاصيلهم بكلفة أقل، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت في النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر، فقد بلغ خراج العراق في عهده مائة وأربعة وعشرين مليون درهم، وهذا المقدار أكبر مما جبي في العهود السابقة، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم^(٢)، وفي عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مائة مليون درهم. أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضاً عن حاجات الدولة، وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه في الأحوال العادية^(٣). وهذا الارتفاع في مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها^(٤)، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه بعكس الزكاة فهي محددة المصارف^(٥).

٤- العشور:

في الاصطلاح: ما يؤخذ على تجارة، أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية^(٦)، فتؤخذ العشور من تجارة الحربى العُشْر ومن تجارة الذمى نصف العشر، ولا تؤخذ في السنة لنفس المال إلا مرة واحدة، ونصابها عشرون ديناراً للذمى، وعشرة للحربى^(٧)، وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور فوضح مبادئها للعمال، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم، كما منع قبض العشور، والتي كانت تفرض على الناس بغير حق^(٨)، وقد نشطت التجارة في عهده، وتوافرت موارد جديدة للدولة واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام، وكانت الإجراءات التي اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتي:

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧٤).

(٢) الخراج للريس، ص (٢٣٧، ٢٣٨)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٧٥).

(٣) الخراج، ص (٢٣٧، ٢٣٨). (٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٧٦).

(٥) المصدر نفسه، ص (٧٦). (٦) معجم الفقهاء ص (٣١٢).

(٧) المغنى (١٠/٥٨٩)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٦).

(٨) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٧٧).

أ- إلغاء الضرائب الإضافية التي كانت مفروضة على القطاع الزراعي^(١)، وقد انعكس هذا إيجاباً على القطاع التجارى فى صورة انخفاض ملحوظ فى أسعار السلع الزراعية، فزاد فى الطلب عليها، وأحدث رواجاً فى تجارتها، وفى ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها -على النحو الذى واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز- أحدث رواجاً لا فى التجارة فحسب، ولكن فى بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامى^(٢).

ب- إلغاء الضرائب على القطاع التجارى^(٣)، والاقتصار على العشور، وكان لهذا تأثير إيجابى على قطاع التجارة، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة، وزاد من أرباح التجارة، فزاد معها حجم المبادلات التجارية^(٤).

ج- إلغاء أسلوب العنف فى تحصيل مستحقات الدولة المالية^(٥) على التجار وغيرهم، وهذا أيضاً من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د- عمل استراحات^(٦) على طريق التجارات مع بلاد الشرق، ومطالبة الولاة على البلاد التى توجد بها هذه الاستراحات بأن يضيّفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين^(٧) يوماً وليلة، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة، ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات، وكان منقطعاً أو سرقت تجارته أو تلفت لأى سبب، فكان يعطى من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده، ولا يخفى ما كان بهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجارى^(٨).

هـ- منع العطاء عن التجار، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد، فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها، لاسيما أن التجارة كانت فى ذلك الوقت متعبة من حيث السفر، والترحال، لعدم توافر وسائل المواصلات المريحة التى نشاهدها اليوم.

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٤١).

(٢)، (٣) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٨).

(٤)، (٥) المصدر نفسه، ص (٢١٨). (٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٤٣٩).

(٧) كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة.

(٨) التطور الاقتصادى فى العصر الأموى، ص (٢١٩).

و- قضاء ديون كل من ادان في غير سفه ولا سرف^(١)، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عشرات التجار الذين أفلسوا، ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدأوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز- الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين في شتى أنحاء الدولة، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسي للدولة.

ح- منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون في دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار، أو تأثير على الأسعار لصالحهم، وهي محاولة من عمر بن عبد العزيز بالبعد بالأسواق عن أى مؤثرات غير طبيعية تؤثر في تلقائية تحديد السعر^(٢).

ط- منع الاحتكار، ومن ذلك إعادته ذكاكين بحمص كانت في يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له، فترعها وأعادها إلى أصحابها^(٣)، وبهذا فإن وجود هذه الإجراءات الإصلاحية^(٤) ساهمت في ازدهار الحركة التجارية في عهد عمر بن عبد العزيز، وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور، وتوافرت موارد جديدة للدولة استطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

٥ - خمس الغنائم والفيء:

فالغنيمة في الاصطلاح: ما استولى عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال^(٥)، والفيء في الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا يايجاف خيل ولا ركاب^(٦)، فعندما تولى عمر الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة، لذلك لم تكثر الفتوحات في عهده، حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب، فدخل البربر في الإسلام

(١) الأموال لأبي عبيد، ص (٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، ص (٢١٩).

(٣)، (٤) المصدر نفسه، ص (٢٢٠).

(٥) الأموال لأبي عبيد، ص (٣٢٣) رقم (٦٢٦).

(٦) الأحكام السلطانية للماوردي، ص (١٩٩).

بدون قتال^(١)، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً في بيت المال منه كان مصدره الفتوحات السابقة^(٢). ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى^(٣)، وأمر بوضعه في مواضعه المذكورة في سورة الأنفال، وأثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا^(٤). وقد أمر بعشرة آلاف دينار من سهم ذوى القربى فقسمها في بنى هاشم، وسأوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع وتقول: يا أمير المؤمنين قد أخدمت من كان لا خادم له، واكتسى منهم من كان عارياً، واستنق من كان لا يجد ما يستنق^(٥) ولقد تمسك عمر في حق الخمس، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس^(٦). وأما في تصرفه في الفىء، فقد كان متبعاً للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين، فقد كتب كتاباً ذكر فيه الأموال والقرى التى أفاء الله بها رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب، واستدل بآيات سورة الحشر التى نزلت في ذلك، وبين أنه ما من أحد من المسلمين إلا له حق في الفىء، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين بعد الهجرة الأولى حتى تنقضى الدنيا^(٧). وهو بذلك كان موافقاً لاجتهاد عمر بن الخطاب في جعل الفىء موقوفاً على أجيال المسلمين^(٨). ونظر عمر في مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفىء، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب^(٩)، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين، وكتب في ذلك كتاباً: .. وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه .. ووضع مواضع شتى، فنظرنا فإذا هو على سهام الفىء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى، فإذا عمر بن الخطاب -رحمه الله- قد

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨١). (٢)، (٣) المصدر نفسه، ص (٨١).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٠)، سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧٢)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٢).

(٥) الطبقات (٥/ ٣٩٠)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٨٢).

(٦) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم (١/ ٣٢٠). (٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧).

(٨) الخراج، أبو يوسف، ص (٢٥)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٨٢).

(٩) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٣).

قضى فى الفىء قضاءً قد رضى به المسلمون، ففرض للناس أعطية وأرزاقاً جارية لهم، ورأى أنه لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين، وابن السبيل، فرأى أن يلحق الخمس بالفىء، وأن يوضع مواضعه التى سمى الله وفرض... فافتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان: آية الفىء وآية الخمس... فنرى أن يُجمعاً جميعاً فيُجعلاً فيئاً للمسلمين ولا يستأثر عليهم^(١).

لقد ساعدت إصلاحات عمر فى إيرادات الخمس والفىء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة فى القرآن مع إثارة لذوى الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة.

رابعاً: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

١- إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، وهذه مطالب شرعية جاءت فى القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر كتاباً عن مواضع السنة فى الزكاة ليعمل بها فى خلافته فذكر فيها: إن فيها نصيباً للزمنى والمقعدين (أصحاب العجز الأصلى)، ونصيباً لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عيلة وتقليباً فى الأرض (أصحاب العجز الطارئ كالعامل الذى يصاب فى عمله والمجاهد الذى يصاب فى الحرب). ونصيباً للمساكين الذين يسألون ويستطعمون الغنى حتى يأخذوا كفايتهم ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال... ونصيباً لمن فى السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد... ونصيباً لمن يحضر المساجد، الذين لا عطاء لهم ولا سهم «أى ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة» ولا يسألون الناس... ونصيباً لمن أصابه فقر وعليه دين، ولم يكن شىء منه فى معصية الله، ولا يُتهم فى دينه... ونصيباً لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوى إليهم، فيؤوى ويُطعم وتُعلم دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته^(٢).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٩٧)، الأموال رقم (٨٣٨).

(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (٨٣).

أ- الإنفاق على الفقراء والمساكين: فقد كان عمر يفكر في الفقراء والمساكين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة وسألته عن سر بكائه فقال لها: تقلدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذى العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ - فخشيت ألا تثبت حجتى عند خصومته، فرحمت نفسى فبكيت^(١).

هذه الحادثة تلخص سياسة عمر في الإنفاق على الفئات المحتاجة، والحادثة مليئة بالمعاني وتحتاج إلى وقفات، فقد شعر عمر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه حيث قال رسول الله ﷺ: «كلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»^(٢). وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين اشتدت بى الحاجة، وانتهت بى الفاقة، والله سائلك عن مقامى غداً بين يديه، وكان عمر قد اتكأ على قضيب، فبكى حتى جرت دموعه على القضيب، ثم فرض له ولعياله، ودفع له خمسمائة دينار حتى يخرج عطاؤه^(٣)، وكان رحمه الله يهتم بشأن الأرامل وبناتهن، كما حدث مع المرأة العراقية التى مرّ ذكرها. وقد قال ﷺ: «الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد فى سبيل الله أو كالذى يصوم النهار ويقوم الليل»^(٤). وقد خصص عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل^(٥)، ولم يكتف عمر بالاعتناء بالفقراء فحسب، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوى العاهات والأيتام، فقد كتب كتاباً إلى أمصار الشام: ادفعوا إلى كل أعمى فى الديوان أو مقعد، أو من به فالج، أو من به زمانة، تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم. ثم كتب: ارفعوا إلى كل يتيم، ومن لا أحد له. فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية^(٦).

ب- الإنفاق على الغارمين: من الفئات التى اهتم بها عمر الغارمون، فقد كتب ابن شهاب الزهرى لعمر عن سهم الغارمين: لمن يصاب فى سبيل الله فى ماله..

(١) سير أعلام النبلاء (١٣٢/٥)، سيرة ومناقب عمر لابن عبد الحكم، ص (٢٤٨).

(٢) البخارى رقم (٨٩٣).

(٣) حيلة الأولياء (٢٨٩/٥).

(٤) الطبقات (٣٧٨/٣).

(٥) البخارى رقم (٦٠٠٦).

(٦) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزى، ص (٢٠٢).

ولمن أصابه فقر، وعليه دين لم يكن شئ منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه^(١). ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين، فكتبوا إليه: إنا نجد الرجل له المسكن، والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فكتب عمر: لا بد للرجل من المسلمين من سكن يأوى إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه^(٢). وكتب إلى وإلى الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال فسأل عمر عنها، فأجاب: كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند، فأعط منهم من كان عليه دين في غير فساد، أو تزوج فلم يقدر على نقد والسلام^(٣). وكتب كتاباً قرئ في مسجد الكوفة: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله^(٤).

ج - الإنفاق على الأسرى: قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿[الإنسان: ٨ - ١٠]. اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين، فقد كتب كتاباً إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية^(٥)، وقد تحدثت عن الكتاب في كلامي عن الحياة الاجتماعية. واهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم، وكتب عمر إلى العمال: لا تدعن في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلى قائماً، ولا يبيت في قيد إلا رجل مطلوب بدم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وإدامهم^(٦). وأمر لأهل السجون برزق وكسوة في الصيف والشتاء^(٧).

(١) الأموال، أبو عبيدة رقم (١٨٥٠)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٢).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٧١)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٢).

(٣) المصدر نفسه لابن عبد الحكم، ص (٦٧). (٤) الطبقات (٣٧٤/٥).

(٥) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٣).

(٦) الخراج، أبو يوسف، ص (٣١٥).

(٧) الطبقات (٣٥٦/٥).

د - الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل: اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم، وكتب إلى أحد عمّاله: اعمل خانات في بلادك، فمن مرّ بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة، وتعهدوا دوابهم، فمن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّه بما يصل به إلى بلده^(١)، وأمر عمر بالاهتمام بالحجاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم^(٢).

هـ - الإنفاق لفك الرقاب: بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين، والعاجزين، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين، وقال عامل صدقات إفريقية: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً. . فاشتريت بها رقاباً وولاءهم للمسلمين^(٣).

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكي يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار، وحدّد لهم مبلغاً من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان يتفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال^(٤)، كما أنه لا بد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت في إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم في المجال التجاري والزراعي وغيرها، وساهمت في سريان روح التدين وحب الآخرة في نفوس الناس، ورغبوا في الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضاة الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثّر الإنفاق في سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل، وبناء المرافق العامة وحفر الآبار، وتشيد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين في العاصمة وأقاليمها الواسعة.

(١) تاريخ الطبري نقلاً عن السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٤).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٥). (٣) السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٤).

(٤) المصدر نفسه، ص (٩٥، ٩٦).

٢ - ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز في ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الرشد الاقتصادي، أو ما يعبر عنه بمبدأ القوامه في الإنفاق، ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير والبعد عن الشح والتقتير^(١). ومن الخطوات التي اتخذها في مجال ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

أ - قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمرء الأمويين:

أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته - كما مرّ معنا - وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئاً، فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر، لا مال له، وأنا مالي يغنيني^(٢). وعندما أحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته، وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة في بيت المال. وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره ويُرَدُّ الباقي إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لي ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضُمَّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين^(٣)، وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقاً. فمرة بعث أمير الأردن بسلتى رطب إلى عمر، وقد جيء على دواب البريد^(٤)، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد، ومرة طلب من عامله أن يشتري له عسلاً فحمل له على دواب البريد، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه في بيت المال، وقال له: أفسدت علينا عسلك^(٥).

ب - ترشيد الإنفاق الإداري: سعى عمر إلى تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين، فعندما طلب والي المدينة أن يصرف له شمعاً فأجابه عمر: لعمرى لقد عهدتكَ - يا ابن أم حزم - وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح، ولعمرى لأنت يومئذ خير منك اليوم، ولقد كان في فتائل

(١) السياسة المالية والاقتصادية ص (٩٦).

(٢) العقد الفريد (٢٢/٥)، السياسة المالية والاقتصادية، ص (٩٧).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٥)، السياسة المالية، ص (٩٧).

(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، ص (٩٨).

(٥) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص (٢١٠).

أهلك ما يغنيك والسلام^(١). وكتب إليه أيضاً وقد طلب قراطيس للكتابة: . . . إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم^(٢). يلاحظ حرص عمر على المال العام ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة، فعمر يريد من العامل أن يستغل الأوراق في الرسائل إلى أقصى درجة.

ج - ترشيد الإنفاق الحربي: خاضت الدولة الأموية حروباً خارجية وداخلية فكلّفت ميزانية الدولة الشيء الكثير، منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتاباً يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد. وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية وتوقفت الحروب والفتن، ولما بلغت سيرته الخوارج، اجتمعوا وقالوا: ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل^(٣). وقد ساهم إيقاف الحروب والفتن في إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار ساعد في النمو الاقتصادي للدولة وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله ثم سياسة عمر الرشيدة.

(١) الوالى: هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم. سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٦٤).

(٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي، ص (١٢١).

(٣) المصدر نفسه ص (٨٦)، السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص (١٠٠).

الفصل السابع

المؤسسة القضائية في عهد

عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: في الأقضية والشهادات:

١- في صفات القاضي: كان عمر بن عبد العزيز يدقق في اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاضٍ يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقد اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط لا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط وهي: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة في الحق^(١)، فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز في وفد أهل الكوفة فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة، أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليماً وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم^(٢)، وفي رواية عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا ييالي ملامة الناس^(٣)، وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب^(٤)، وعلى بن أبي طالب^(٥) رضى الله عنهما، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز في كل أو جل هذه الصفات^(٦).

٢- في حكم القاضي فيما استبان له ويرفع ما التبس عليه: قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتي أمرها يحير القاضي، فهل يحكم القاضي فيها وإن لم يظهر

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٢٨٥).

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٩).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) المصنف لعبد الرزاق (٨/ ٢٩٩)، شذرات الذهب (١/ ١٢٠).

(٥) المغنى (٣/ ٩)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٣٠٥)، روضة الطالبين (١١/ ٩٥-٩٧)، جواهر الإكليل (٢/ ٢٢١)، المغنى

(٣٩/ ٩-٤٣، ٥٠).

له الحق أم يتركها لمن هو أعلم منه؟ لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس فى القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضى إن تبين له الحق حكم به، وإن لم يظهر له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها^(١)، عن ميمون بن مهران أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية - وكان قاضى الجزيرة وعلى خراجها - قال: فكتب إليه عمر: إنى لم أكلفك ما يُعتك، اجب الطيب، واقض بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلىّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا^(٢). وهذا الأثر يبين أن الله - سبحانه وتعالى - لم يجعل الناس فى العلم ولا فى الفهم سواء، بل هم درجات فى ذلك، والذى يتولى القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولى أمرهم، وذلك بما ظهر له من الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم فى بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى أولى الأمر ليحوّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم^(٣)، وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأى فى أمور الدين والدنيا، وكان يقتطع من أوقات راحته فى الليل، لأنه أدرك ضرورة التوصل إلى الحقائق، وقد أعرب من إدراكه العميق لما يأتى من التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمّر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يفضل معهما رأى ولا يقعد معهما حزم^(٤)، وجدت ملاقة الرجال تلقيحاً لألبابها^(٥).

٣ - فى الرفق بالحمقى والنهى عن العقوبة فى الغضب: كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد. أما بعد.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليكَ أمره، وأن تبلى به فرأيت منه

(٢) الخراج لأبى يوسف، ص (٢٤٠، ٢٤١).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٧).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٨٨).

(٤) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٨٦)، عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٢٤).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامى، ص (١٨٦).

سوء رعة، وسوء سيرة فى الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت وبصره وارفق به وعلمه، فإن هو اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنباً استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه، بالغاً ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك^(١)، وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل فى أول غضبه^(٢).

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضى فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفاً من التعدى فى العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضى أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضى، ثم يحكم عليه وهو فى هدوء على قدر ذنبه^(٣).

٤- خطأ الوالى فى العفو خير من تعديه فى العقوبة: عن أبى عقبة أن عمر بن عبد العزيز قال: ادروا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة، فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو خير من أن يتعدى فى العقوبة^(٤).

٥- فى ترك العمل بالظن: ولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطى على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا. . ولم قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن أقدم فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتُم لأُميركم فى نُزله لمسيره إلى. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين، قال: ما علمتم به. قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً ملك قنسرين وأرضها، خرج يسير فى سلطانه وأرضه حتى انتهى إلى لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحداً ولا يروعه، لخلق أن يكون متواضعاً عفيفاً، قال الوليد: أجل والله

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٨، ٦٩).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى، ص (٢٣٦).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٠).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٢٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩١).

يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإنى له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار وردهما عمر على عملهما فكتب إليه الوليد - وكان مرثياً - خديعة لعمر وتزيئاً بما هو ليس عليه: إنى قدرت نفقتى لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً، ورزقى يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما أظنه عليه، ولو كنت عاجلاً أحداً على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذى سألته، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولى عهده: إن الوليد بن هشام كتب إلى كتاباً ظنى أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئاً على ظنى ما عمل لى أبداً، ولكنى آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بى حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر أنى نقصته، فلا يظفر منك بهذا أبداً، فإنما خادع بالله والله خادعه، فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصنى وظلمنى، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمة كل رزق جرى عليه فى ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يل له عملاً حتى هلك^(١).

٦ - فى الهدية لولاة الأهر: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة، وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها، وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئاً من الهدايا^(٢)، عن فرات بن مسلم قال: انتهى عمر بن عبد العزيز التفاح فبعث فلم يجد شيئاً يشترى به، فركب وركبنا معه فمر بدير فتلقيه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابى بشيء، قال: فحركت بغلتى فلحقته فقلت: يا أمير المؤمنين، انتهيت التفاح فلم يجدوه لك فأهدى لك فرددته، قال: لا حاجة لى فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية. قال: إنها لأولئك هدية وهى للعمال بعدهم رشوة^(٣).

٧ - فى نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية: كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس^(٤)، وقد وافق عمر بن عبد العزيز على

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٥).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠).

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٩ - ١٣١).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٧٧).

رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع، أو الشورى وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه ينقض الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع^(١).

٨ - فيمن ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط: كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إني فقدت من بيت مال اليمن دنائير. فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنني لست أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم، وإنما لأشحهم يمينك^(٢)، فاحلف لهم والسلام^(٣).

٩ - في أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قریش يختصمون إليه فقضى بينهم فقال المقضى عليه: أصلحك الله! إن لى بينة غائبة، فقال عمر: إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت فإن أتيتى بينة وحق هو أحق من حقهم، فأنا أول من رد قضاءه على نفسه^(٤).

١٠ - نفقة البعير الضال: عن الشعبي قال: أضل رجل بعيراً فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمه، فاخصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة، فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة^(٥).

١١ - في حرية اللقيط: جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة أن اللقيط حر^(٦).

١٢ - شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه: كتب عمر بن عبد العزيز: أن أجزّ شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلاً^(٧).

ثانياً: في الدماء والقصاص:

١ - تخيير الأوفياء في قتل العهد بين العفو والدية والقتل: كتب عمر بن عبد العزيز في امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفوا عفواً، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا، وإن أحبوا أن يأخذوا، الدية أخذوها وأعطوا، امرأته ميراثها من الدية^(٨).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٩٩).

(٢) أى، لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط، فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.

(٣) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٤، ١٠٥).

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (٦/٣١٢).

(٥) الطبقات الكبرى (٥/٣٨٦).

(٦) المصدر السابق (٦/٥٣١).

(٧) المصدر نفسه (٨/٣٤٢ - ٣٤٣).

(٨) المحلى (١٠/٣٦١)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/١١).

٢- فى التانى حتى يبلغ ولى المقتول: كتب عمر بن عبد العزيز فى رجل قُتل وله ولد صغير، فكتب أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ^(١).

٣- فى عفو بعض الأولياء يسقط القود: عن الزهرى قال: وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضاً: إذا عفا أحدهم فالدية^(٢).

٤- فى القتل بعد أخذ الدية: قال عمر بن عبد العزيز: والاعتداء الذى ذكر الله أن الرجل يأخذ العقل، أو يقتص، أو يقضى السلطان فيما بين الجراح والمجروح، أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذى يرى فيه من العقوبة، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه إلا بإذن السلطان، وعلى تلك المنزلة كل شيء من هذا النحو، فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذى أنزل الله فيه: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية^(٣).

٥- فى القتل يوجد فى السوق: كتب عدى بن أرطاة قاضى البصرة إلى عمر بن عبد العزيز إنى وجدت قتيلاً فى سوق الجزارين، قال: أما القتل فديته من بيت المال^(٤).

٦- فى القتل فى الزحام: إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله فهل يذهب دمه هدرًا؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن من مات بهذا السبب فديته فى بيت المال^(٥)، فعن عمر بن عبد العزيز أنه كتب فى رجلين ماتا فى الزحام: أن يُوديا من بيت المال فإنما قتله يد أو رجل^(٦).

ثالثًا: فى الديات:

١- مقدار الدية: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله ﷺ مائة بغير^(٧).

(٢) المصدر نفسه (٣١٨/٩).

(٤) المصدر نفسه (٤٥٩/٩).

(٦) المحلى (٤١٨/١٠).

(١) مصنف عبد الرزاق (١١/١٠).

(٣) المصدر نفسه (١٧، ١٦/١٠).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٣٦/٢).

(٧) مصنف ابن أبى شيبة (١٢٨/٩).

٢- فى دية اللسان: عن سليمان بن موسى قال: فى كتاب عمر بن عبد العزيز فى الأجناد: ما قطع فى اللسان فبلغ أن يمنع الكلام كله، ففيه الدية كاملة وما نقص دون ذلك فبحسابه^(١).

٣- فى دية الصوت والحنجرة: حيث إن الصوت مصدره الحنجرة وأن إتلافها قد يذهب بالصوت، ومن ثم فلا كلام، فقد رأى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة^(٢)، وعنه أنه قال: فى الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة^(٣).

٤- فى دية الذكر: وأما الذكر فلاهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته وذهب نسله، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فبحسابه، فعن عبد العزيز عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: فى الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه^(٤).

٥- فى دية إفضاء المرأة: إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها، فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه عدم حبس الحاجتين والولد، ونظراً لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفى رواية عنه أنه جعل فيه ثلث الدية^(٥)، ويمكن الجمع بين الروایتين بأن عمر بن عبد العزيز يجعل فى إفضاء المرأة الدية كاملة إذا لم يحبس الحاجتين والولد، وثلث الدية إذا حبس الحاجتين والولد^(٦).

٦- فى دية الأنف: نظراً للمصالح المترتبة على وجود الأنف فى التنفس عن طريقه ومعرفة الروائح والتمييز بينها، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف، والتشويه الحاصل بقطعه، كما أن العرب ترى فى جدد الأنف إهانة لا يعدلها إهانة، لذلك فقد جعل عمر بن عبد العزيز فى الدية كاملة إذا جدد من أصله، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه^(٧).

(١) المصنف لعبد الرزاق (٣٥٧/٩)، فقه عمر (٦٦/٢).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٦٩/٢).

(٣) مصنف ابن أبى شيبة (١٧٠/٩)، فقه عمر (٦٩/٢).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٧١/٢).

(٥) مصنف عبد الرزاق (٣٧٢/٩).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٧٦/٢).

(٧) مصنف عبد الرزاق (٣٧٧/٩).

٧- فى دية الأذن: حيث إن الأذن تؤدى نصف منفعة السمع ولأنه يكون فى الإنسان منها اثنتان فإن عمر بن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية، حيث إن قوله فى الأذن نصف الدية يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها^(١).

٨- فى دية الرجل: لما كان الإنسان لا يستطيع المشى إلا بالرجلين وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيداً، ولأن الرجل مما يكون فى الإنسان منه اثنتان، فقد جعل عمر ابن عبد العزيز فى الرجل نصف الدية^(٢).

٩- فى دية ما بين الحاجبين: هناك بعض الجزئيات فى الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز، وهاهو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها العظام^(٣)، فقد قال: .. فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها العظام فربيع الدية^(٤).

١٠- فى دية الجبهة إذا هشمت: قال عمر بن عبد العزيز: فى الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مائة وخمسون ديناراً^(٥).

١١- فى دية الذقن: وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية، فقد قال: فى الذقن ثلث الدية^(٦)، هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السيد أموراً لم يسبق إليها، منها دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظراً لأهميتها، حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم. ويبدو أن هذا القول تفرد به^(٧).

١٢- فى دية الأصابع: نظراً لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد، فقد رأى عمر ابن عبد العزيز أن فى كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية، وفى كل

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (٢٠٩/٩).

(٤) مصنف عبد الرزاق (٣٢٠/٩).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٨٠/٢).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٨٨/٢).

(٥) المصدر نفسه (٢٩١/٩).

(٦) مصنف عبد الرزاق (٣٦١/٩)، مصنف ابن أبى شيبة (١٧٩/٩).

(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٩٦/٢).

قصة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبان ففي كل قصة منه نصف دية الأصبع، فعن عمر بن عبد العزيز: في كل أصبع عشر من الإبل أو عدل ذلك من ذهب أو ورق^(١).

١٣- في دية الظفر: حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير، فعن عمر بن عبد العزيز أنه اجتمع له في الظفر إذا نزع فعر^(٢)، أو سقط أو اسود، العشر في دية الأصبع، عشرة دنانير^(٣).

رابعاً: في الحدود:

١- أهمية إقامة الحدود: حيث إن إقامة الحدود سبب في حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم واستتباب الأمن في بلادهم، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة الصلاة والزكاة^(٤)، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندى كإقامة الصلاة والزكاة^(٥).

٢- في منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضي، فإنها تكون قد بلغت حداً لا يمكن الرجوع فيه بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود^(٦).

٣- في اجتماع أكثر من حد على رجل واحد: قد يأتي الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد، مثل أن يزني ويسرق ويقتل، فهل قتله كاف عن الحدود الأخرى فيأتي عليها؟ أم أنها تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر بن عبد العزيز تدل على أنه يقيم الحدود أولاً ثم يقتله^(٧).

٤- في عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة: رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة في قضايا القتل والصلب، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك^(٨).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٠٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٠٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٠٣).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١١١).

(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٨).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١٣).

(٧) المصدر نفسه (٢/ ١١٧).

(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٩٦).

(٨) المصدر نفسه (٢/ ١٢٠)، سيرة عمر لابن الحكم، ص (١١٤، ١١٥).

٥ - يشترط في المذدوف لحدّه أن يكون مسلماً: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد في قذف كافر، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنا المذدوف به، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر^(١)، فعن طارق بن عبد الرحمن ومطرف بن طريف قالوا: كنا عند الشعبي فرفع إليه رجلان، مسلم ونصراني، قذف كل واحد منهما صاحبه فضرب النصراني للمسلم ثمانين، وقال للنصراني: لما فيك أعظم من قذف هذا فتركه، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبي، فكتب عمر يحسن ما صنع الشعبي^(٢)، هكذا يرى عمر بن عبد العزيز أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب، ولأن الكافر فيه الكفر وهو أكبر مما قذف به، إذ لو وجد فيه الزنا فهو أقل من الكفر، إذن فلا حد على من قذف الكافر^(٣).

٦ - عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه: إذا قذف الرجل ابنه، فهل يقام عليه الحد أم لا يقام؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذفه بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد، إلا إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه حد^(٤)، فعن ابن جريح قال: أخبرني رزيق - صاحب أيلة - أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز في رجل افترى على ابنه، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه^(٥).

٧ - عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم: إذا كانت النصرانية تحت مسلم، ونظراً لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم، فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد^(٦)، فعن أبي إسحاق الشيباني عن عمر بن عبد العزيز في رجل قذف نصرانية لها ولد مسلم، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطاً^(٧)، وقد وافق عمر ابن عبد العزيز في رأيه هذا الزهري، وقال قتادة: يجلد الحد^(٨)، وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد، وأما المالكية فقالوا: ينكل من أجل أولادها المسلمين^(٩).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٢) المصنف لعبد الرزاق (٦/ ٦٤ - ٦٥) (٧/ ١٣٠ - ١٣١). (٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).

(٤) المصنف لنفسه (٢/ ١٣٣).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٥٠٤).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٦).

(٧) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٣٠).

(٨) المغني (٨/ ٢١٦)، فقه عمر (٢/ ١٣٧).

(٩) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٢٩ - ١٣٠).

٨ - قذف المرأة للرجل بنفسها: عن عمر بن عبد العزيز أنه أته امرأة فقالت: إن فلاناً استكرهنى على نفسى، فقال: هل سمعتك أحد أو رآك؟ قالت: لا، فجلبدها بالرجل^(١)، هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنا، وإنما هى خاصة بالقذف، فالمرأة التى تدعى على الرجل أنه استكرهها على الزنا، هى بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها، وعليها حد القذف إلا أن تأتى ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف أو أن يكون أحد رآها، وقد وافق عمر بن عبد العزيز فى جلبدها - إن لم يكن لها بينة - الزهرى وقتادة وربيعة ويحيى بن سعيد الأنصارى^(٢).

٩ - قطع السارق بعد خروجه بسرقة: ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقة، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت^(٣).

١٠ - النباش سارق يستحق القطع: إن من الناس من يأتى أموراً تشتمز منها النفوس، حتى الميت فى قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كمن سرق من الأحياء^(٤)، فعن معمر قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشاً^(٥).

١١ - عقوبة شرب الخمر للمرة الثانية: عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حداً فى خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين، رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع، ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس، حتى تحدث خيراً. قال: يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود فى هذا أبداً، فتركه عمر^(٦).

(٢) المحلى (١١/ ٢٩١ - ٢٩٢).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٠).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).

(٥) مصنف بن أبى شيبة (١٠/ ٣٤).

(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)، فقه عمر (٢/ ١٥٧).

١٢- عقوبة ساقى الخمر: إن من يوفر الخمر أو يقدمها لمن يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها، لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ساقى الشراب مع الذين يشربون^(١)، فعن ابن التميمي أن عمر بن عبد العزيز وجد قومًا على شراب، ووجد معهم ساقياً، فضربه معهم^(٢).

١٣- إتلاف أواني الخمر مع الخمر: عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخنصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق، وبالقوارير أن تكسر^(٣).

١٤- إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين: إذا كان الكفار يعتقدون حل الخمر ويشربونها في بلادهم، فإذا جاءوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمر، فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتوفيرها لهم ليشربوها في بلاد المسلمين؟ إن على الكفار في بلاد المسلمين أن يصبروا عن الخمر ما داموا يرغبون العيش في بلاد المسلمين، وإذا كان لكل دولة نظامها والداخل إليها يجب أن يراعيها، فإن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضاً نظام رب العالمين، فهو أحق بالرعاية والالتزام، ومن هذا المنطلق نجد عمر بن عبد العزيز يمنع أهل الذمة من إدخال الخمر معهم إلى بلاد المسلمين فقد كتب عمر في خلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين فكانوا لا يدخلونها^(٤).

١٥- في عقوبة الساحر: عن همام عن يحيى أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز في ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها^(٥)، وهذا مذهب الأئمة الثلاثة أبي حنيفة ومالك وأحمد^(٦)، وقد كتب عمر بن الخطاب في خلافته إلى الولاة أن يقتلوا كل ساحر وساحرة^(٧).

(١) (٢) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٢٣٠).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٦٤).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٥٩).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ١٣٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (١/ ٣١)، المغنى (٨/ ١٥٣)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٧٦).

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ١٣٦).

١٦- استتابة المرتد: المسلمون لا يكرهون أحداً على الإسلام، ولكنهم أيضاً لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً، أو ولد في الإسلام ثم كفر بعد إيمانه، فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن يستتاب ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الإسلام قبل منه فإن أبي ضربت عنقه^(١).

١٧- طريقة استتابة المرتد: عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز فكتبت إليه: أن رجلاً كان يهودياً فأسلم ثم تهود فرجع عن الإسلام، فكتب إلى عمر: أن ادعه إلى الإسلام، فإن أسلم فخلّ سبيله، وإن أبي فادع بالخشبة فأضجعه عليها، ثم ادعه، فإن أبي فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخلّ سبيله وإن أبي فاقتله. قال: ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلّ سبيله^(٢)، قال الدكتور محمد شقير: لم أرقولاً لغير عمر بن عبد العزيز بهذا التفصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام^(٣).

١٨- عقوبة المرتدة: رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تشرق وتباع على غير أهل دينها^(٤)، وهذا رأى قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة^(٥)، وروى عن الحسن قال: لا تقتلوا النساء إذا هن ارتددن عن الإسلام، ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سيين فيجعلن إماء المسلمين ولا يقتلن^(٦).

خامساً: في التعزيرات:

١- في الحد الأقصى للضرب تعزيراً: العقوبة بالجلد تنقسم إلى قسمين: حد وتعزير، فالحد قد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعزيراً فهو عقوبة لإتيان أمر لا حد فيه، أو أي جنائية لا حد فيها، فهو متروك للحاكم ليحدد مقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبد العزيز جعل لذلك حداً أقصى لا تجوز الزيادة عليه على قولين^(٧)،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٥١/٥)، مصنف عبد الرزاق (١٧١/١٠).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٧٤/١٢).

(٣) روضة الطالبين (٧٥/١٠)، حاشية ابن عابدين (٢٨٩/٣).

(٤) مصنف عبد الرزاق (١٧٦/١٠).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١٨١/٢).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (١٤٠/١٠).

(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (١٨٨/٢).

الأول: لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة، فعن محمد بن قيس أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً إلا في حد من حدود الله^(١)، وفي القول الثاني: لا يبلغ بالجلد تعزيراً أقل الحدود، فعلى هذه الرواية لا يزداد للحر عن تسع وثلاثين جلدة ولا يزداد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هي أقل الحدود^(٢). وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطاً واحداً وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله^(٣).

٢- النهى عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن أو الضرب على التهمة، فهو يقرر بهذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفاً من أن يظلم برئ، فقد فضل عمر بن عبد العزيز أن يلقوا الله بخيانتهم على أن يلقى الله بدمائهم^(٤)، عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: حدثني أبي عن جدي، قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقةً ونقبةً^(٥)، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد، وأسأله أخذ الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة، أو أخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس، فكتب إلى أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقله سرقةً ونقبةً^(٦). وكتب عدى بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد- أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قبلى أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله - عز وجل - مالاً عظيماً، لست أرجو إستخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشئ من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - أن يأذن لى فى ذلك أفعل. قال: فأجابه: أما بعد: فالعجب كل العجب من استئذائك إياى فى عذاب بشر، كأنى لك جنة

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٦٥). (٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/١٨٩).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٧).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢١٢). (٥) النقب: النقب فى أى شئ كان.

(٦) حلية الأولياء (٥/٢٧١)، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١١٧، ١١٨).

من عذاب الله، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذ به بما قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشئ فخذ بما أقر به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخلّ سبيله، وإيم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخياتهم أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم^(١)، وهكذا يقرر عمر بن عبد العزيز الأخذ بالتحقيق العادل لا بالتحقيق الحازم. وقد قال بعدم الأخذ بالملظة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعطاء^(٢).

٣- النهى عن المثلة: حلق الرأس جعله الله نسكاً وسنة - فى الحج والعمرة - كما أن رسول الله ﷺ نهى عن حلق اللحية، ولكن بعض الناس خالفوا ذلك كله وجعلوا حلق الرأس واللحية عقوبة، وهذا عمر بن عبد العزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة^(٣)، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له: إياك والمثلة، جز الرأس واللحية^(٤). ومذهب الأئمة الأربعة أن لا يجوز التعزير بحلق اللحية وعند مالك وأبى حنيفة: ولا يحلق الرأس^(٥).

سادساً: فى أحكام السجناء:

١- تعجيل النظر فى أمر المتهمين: أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر فى أمور المتهمين، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه، ومن لم يثبت عليه قضية يخلى سبيله، ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلّة السجناء لأنه يكون زاجراً لأهل الفسق والزعارة^(٦)، فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: ... فلو أمرت بإقامة الحدود لقلّ أهل الحبس، وخاف أهل الفسق والدعارة، ولتناهوا عما هم عليه، إنما يكثر أهل الحبس لقلّة النظر فى أمورهم، إنما هو حبس وليس نظراً، فمر ولاتك جميعاً بالنظر فى أمر أهل الحبوس فى كل الأيام، فمن كان عليه أدبٌ أدّب وأطلق، ومن لم تكن له قضية خلى عنه^(٧).

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥).

(٢) مصنف عبدالرزاق (١٠/٢١٧-٢١٩) فقه عمر (٢-٢١٣).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢١٥).

(٤) الطبقات الكبرى (٥/٣٨٠).

(٥) مغنى المحتاج (٤/١٩٢)، جواهر الإكليل (٢/٢٢٥). (٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢٢٥).

(٧) الخراج لأبى يوسف ص (٣٠١)، فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢٢٥).

٢- فى الاهتمام بأمر المسجونين: قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق، وحقق العدل على كل صعيد، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك^(١)، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: ... وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم ... فمرّ بالتقدير لهم ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاية السجن والقوام والجلاوزة^(٢)، وولّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ... وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة ... ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت المال، ويصلى عليه ويدفن^(٣)، وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من فى السجن ممن قام عليه الحق ... ولا تعد فى العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال ... وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به، ومن لا يرتشى، فإن من ارتشى صنع ما أمر به^(٤).

٣- سجن خاص بالنساء: يمضى عمر بن عبد العزيز قدماً فى تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدتهم، فيأمر بأن يجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء^(٥)، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من فى السجن ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيم عليه، ومن أشكل أمره فارفع إلى فيه، واستوثق من أهل الزعارات فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد فى العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قوماً فى دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات فى بيت واحد ولا حبس واحد واجعل للنساء حبساً على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشى، فإن من

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢٦).

(٢) الخراج لأبى يوسف، ص (٣٠٠، ٣٠١).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٢٢٨).

(٤) الجلاوزة: جمع جلاوز وهو الشرطى.

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥ - ٣٥٦).

ارتشى صنع ما أمر به^(١)، ومما سبق نلاحظ اهتمام عمر بن عبد العزيز بالسجناء وحرصه على إقامة العدل فيهم وإصلاح ما أفسده من قبله في التعامل معهم.

سابعاً: فى أحكام الجهاد:

١- سن من يشرع له الاشتراك فى القتال: كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتسابقون ويتنافسون على الاشتراك فى القتال، وإذا لم يسمح لأحدهم بالاشتراك فى القتال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولى الأمر بأنه يستطيع القتال. وقد حدد عمر ابن عبد العزيز سن من يسمح له بالقتال، والفرض له مع المقاتلة حدده بخمس عشرة سنة، ومن كان دون ذلك فيكون فرضه فى الذرية ولا يسمح له بالاشتراك فى القتال^(٢).

٢- كيفية بداية قتال غير المسلمين: عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر ابن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصناً من حصون الروم، ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام، فإن قبلوا فاكفف عنهم وإن أبوا فالجزية، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء^(٣).

٣- فى مدة الرباط: الرباط فى سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله تعالى، ويترتب عليه الأجر الوفير من الله سبحانه وتعالى، وقد ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يوماً، فقد قال: تمام الرباط أربعون يوماً^(٤).

٤- فى حكم تصرف المقاتل فى ماله: قال عمر بن عبد العزيز: إذا كان الرجل فى الحرب على ظهر فرسه يقاتل فما صنع فى ماله فهو جائز^(٥).

٥- فى بيع الخيل للعدو: بيع السلاح ونقله أو الخيل أو ما يقوى الأعداء ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين، جريمة فى حق من يفعله، وينبغى حجز هذه الأشياء وما فى حكمها حتى لا تصل إلى العدو. ومن هذا المنطلق منع عمر

(١) الطبقات الكبرى (٣٥٦/٥)، فقه عمر (٢/٢٢٨).

(٢) فقه عمر (٢/٤١٥). (٣) الطبقات الكبرى (٥/٣٥٥).

(٤) المصدر نفسه (٥/٣٥٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٤).

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/٣٥٢).

ابن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلدًا من بلدان المشركين في زمن عمر بن عبد العزيز، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك^(١).

٦- اقتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن: أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين في رسائله إلى عماله بأن يغادوا مهما بلغ ذلك من المال، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أن فاد بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم^(٢)، وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم^(٣)، وفي رواية: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم^(٤).

٧- اقتداء الرجل والمرأة والعبد والذمي: عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معي وبعث بمال إلى ساحل عدن أن أفتدى الرجل والمرأة والعبد والذمي^(٥). مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جليًا حيث أمر باقتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبدًا أو ذميًا، لأن الذمي له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدى لو وقع في الأسر، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بدمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد^(٦).

٨- كراهة قتل الأسرى: عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز: ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيرًا قط، إلا واحدًا من الترك قال: جئ بأسرى من الترك، قال: فأمر بهم أن يسترقوا، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا - لأحدهم - وهو يقتل في المسلمين لكثير بكاؤك عليهم. قال: فدونك فأقتله، قال: فقام إليه فقتله^(٧).

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى، ومنع ذلك إلا واحدًا قتل كثيرًا من المسلمين، ولكنه أذن في أن يسترقوا^(٨).

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٧).

(٢) حلية الأولياء (٥/٣١١-٣١٢).

(٣) الطبقات الكبرى لابی سعد (٥/٣٥٤).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (١٢٠).

(٥) الطبقات الكبرى (٥/٣٥٣).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٣٦).

(٧) مصنف عبد الرزاق (٥/٢٠٥، ٢٠٦).

(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/٤٣٨).

ثامناً: فى النكاح والطلاق:

١- زواج المرأة بغير ولى: عن سفيان عن رجل من أهل الجزيرة عن عمر بن عبد العزيز أن رجلاً تزوج امرأة ولها ولى هو أدنى منه بدروب الروم، فرد عمر النكاح وقال: الولى وإلا فالسلطان^(١).

٢- تزويج الوليين للمرأة على رجلين: عن ثابت بن قيس الغفارى قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز فى جارية من جهينة زوجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها آخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز أن أدخل عليها شهوداً عدولاً وخيرها فأيهما اختارت فهو زوجها.

٣- زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها: إذا زنى رجل بامرأة ثم بدا له أن يتزوجها، فهل يحل له ذلك؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيراً، وهذا رأى رشيد لأنه يسد كثيراً من أبواب الشر، لأنه لا فرق بين من فجر بها ومن لم يفجر بها، فلو قلنا: لا يجوز ذلك فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفى هذا شرور ومفاسد عظيمة^(٢)، عن يحيى بن سعيد قال: بلغنى أن عمر بن عبد العزيز سئل عن امرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيراً، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغنى، أى إنها له^(٣).

٤- نكاح امرأة الأسير: عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبداً مادام أسيراً^(٤)، فالأسير المسلم إنما وقع فى الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه فى قتال الإعداء رفعاً لراية الإسلام، أو دفاعاً عن بلاد المسلمين، وتقديراً لهذا الموقف النبيل، حيث ضحى بنفسه فى سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك وأن تصبر حتى يفك الله أسره، ثم يعود إليها خاصة أن بقاءه فى الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل فى كل وقت ولذلك كله كان من العدل والإنصاف أن لا تتزوج امرأة الأسير مادام أسيراً^(٥).

(١) مصنف بن أبى شيبة (١٣٢/٤)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٠٥).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤١٢).

(٣) مصنف بن أبى شيبة (٤/٢٥٠)، فقه عمر (١/٤١٢).

(٤) الطبقات الكبرى لا بن سعد (٥/٣٥١).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤١٧).

٥- نكاح امرأة المفقود:

إذا فقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يدرى أحي هو أم ميت فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها تتزوج^(١)، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين^(٢)، والظاهر أن عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضي السنين الأربع، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشرة^(٣).

٦- صداق المطلقة قبل الدخول بها في مرض زوجها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر، فلا تأثير لتطليق زوجها في حال المرض^(٤)، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لها نصف الصداق، ولا ميراث لها ولا عدة عليها^(٥).

٧- اشتراط الرجل لنفسه شيئاً عند زواج ابنته: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهر للمرأة وإن اشترط والدها شيئاً لنفسه فهو للمرأة دون الأب^(٦)، وعن الأوزاعي أن رجلاً زوج ابنته على ألف دينار وشرط لنفسه ألف دينار، فقضى عمر ابن عبد العزيز للمرأة بألفي دينار دون الأب^(٧).

٨- اللعب بالطلاق جد: يرى عمر بن عبد العزيز، أن الرجل يحاسب على الطلاق سواء كان جاداً أو هازلاً، فعن سليمان بن حبيب المحاربى قال: كتب إلى عمر بن عبد العزيز: مهما أقلت السفهاء عن شيء فلا تقلوهم الطلاق والعقاق^(٨).

٩- في طلاق المكره: قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستحلف بالطلاق على أن يفعل كذا أو يترك كذا، وقد يكره ويهدد إذا لم يطلق امرأته، فهل هذا النوع من الطلاق على الصفة يقع؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع^(٩)، فعنه أنه قال: لا طلاق ولاعتاق على مكره^(١٠).

١٠- في تطليق الرجل نصف تطليقة: قيل لعمر بن عبد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة؟! قال: هو تطليقة^(١١).

(٢) المحلى (١٣٨/١٠).

(١) فقه عمر (٤١٨/١).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٢٣/١).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٤١٨/١).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٢٥/١).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٣٣٢-٣٣١/٤).

(٨) المصدر نفسه (١٠٦/٥).

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠١/٤).

(١٠) مصنف ابن أبي شيبة (٤٩/٥).

(٩) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٣٤/١).

(١١) مصنف ابن أبي شيبة (٥٣/٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (٤٤١/١).

١١ - تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع، وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثاً يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد كتب عمر بن عبد العزيز في رجل من بنى تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء، وإن طلقت نفسها فهي واحدة وهو أحق بها^(١).

١٢ - إسلام المرأة تحت الكافر: إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالوا في النصرانية تسلم تحت زوجها، قالوا: الإسلام أخرجها منه^(٢)، فمتى أسلمت المرأة وبقي الرجل على الكفر فلا بد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول في شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز أنه يرى إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه ويفرق بينهما^(٣)، وهذا التفريق لا يأتي إلا بعد عرض الإسلام عليه، فإن أسلم فهي امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة^(٤)، وأما إذا أسلم ولا زالت امرأته في العدة فهو أحق بها^(٥).

١٣ - مدة انتظار الغائب: ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حداً أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقتل إليها^(٦).

هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التي مارسها عمر ابن عبد العزيز والتي تدل على تبحره في المسائل الشرعية، وقدرته على الاجتهاد وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله ومن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز، في مجلدين، فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التي نال بها صاحبها درجة الدكتوراة من المعهد العالي للقضاء بالرياض في المملكة العربية السعودية.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٥٧/٥).

(٢) المصدر نفسه (٩٠/٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٥٠).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٤٥٠).

(٤) المصدر نفسه (١/٤٥١).

(٥) المصدر نفسه (١/٤٥٥).

(٦) المصدر نفسه (١/٤٥٢).

الفصل الثامن

الفقه الإداري عند عمر بن عبد العزيز

وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاية عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وإعمال الحق بين الناس الولاية الثقات الخيرين الأبرار، ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة، والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح، وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء والحكمة. وقد قال ابن كثير في ولاية عمر بن عبد العزيز: وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة^(١). ومن هؤلاء:

١- الحجاج بن عبد الله الحكمي (ولى خراسان وسجستان):

قال عنه الذهبي: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبوعقبة الجراح بن عبد الله الحكمي، ولى البصرة من جهة الحجاج، ثم ولى خراسان وسجستان لعمر بن عبدالعزيز، وكان بطلاً شجاعاً مهيباً، عابداً، قارئاً، كبير القدر^(٢). قال الجراح الحكمي: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورع^(٣). كان على خراسان كلها حربها وصلاتها ومالها^(٤). قتل عام ١١٢ هـ في خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لي: يا أبا يحيى، هل تدري ما كنا فيه؟ قلت: لا، وجدتك في رغبة فرفعت يدي معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة حتى استشهد^(٥). قال خليفة: زحف الجراح من بردعة^(٦) سنة اثنتي عشرة إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فقتل الجراح في رمضان وغلبت الخرز على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل^(٧)، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيماً، بكوا عليه في كل جند^(٨).

(١) البداية والنهاية نقلاً عن عمر بن عبد العزيز عبد الستار، ص (٢٧٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨٩/٥).

(٣)، (٤)، (٥) المصدر نفسه (١٩٠/٥).

(٦) بردعة: قصبة أذربيجان.

(٧) سير أعلام النبلاء (١٩٠/٥).

(٨) المصدر نفسه (١٩٠/٥).

٢- عدى بن أرطاة الفزارى (والى البصرة):

كان أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز، حدث عن عمرو بن عبسة وأبى أمامة، قال عباد بن منصور: خطبنا عدى على منبر المدائن حتى بكى وأبكائنا^(١)، وكان عمر بن عبد العزيز يتفقدّه بالنصائح والمواعظ، قال معمر: كتب عمر إلى عدى بن أرطاة: إنك غررتنى بعمامتك السوداء، ومجالستك القراء، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون، أما تمشون بين القبور؟^(٢). قدم عدى على البصرة، فقيد يزيد بن المهلب، وأنفذه إلى عمر بن عبد العزيز. فلما مات عمر، انفلت، ودعا إلى نفسه وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداً، وقال: أدعو إلى سيرة عمر بن الخطاب، فحاربه مسلمة بن عبد الملك، وقتله، ثم وثب ولده معاوية فقتل عدياً، وجماعة صبراً، سنة اثنتين ومائة^(٣). قال الدارقطني: يحتج بحديثه.

٣- عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب (والى الكوفة):

الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوى الخطابي المدني، ولى إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز، كان قليل الرواية، كبير القدر، توفي سنة ١١٥هـ^(٤).

٤- عمر بن هبيرة (والى الجزيرة):

كان من الدهاة الشجعان، وكان رجل أهل الشام، ولاه عمر الجزيرة (١٠٠هـ) فتوجه إليها وغزا الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك، فولاه إمارة العراق وخراسان، ثم عزله هشام بخالد القسرى فقيده وألبسه عباءة وسجنه، فتحايل غلمانته ونقبوا سرباً وأخرجوه منه فهرب واستجار بالأمر مسلمة بن عبد الملك، فأجاره ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومائة تقريباً^(٥).

٥- أبوبكر محمد بن عمرو بن حزم (والى المدينة):

وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات، أمير المدينة ثم قاضى المدينة، قيل: كان أعلم أهل زمانه بالقضاء، روى عن أبيه وعباد بن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمن وطائفة وعداده فى صغار التابعين^(٦)، روى عطايف بن خالد عن

(٢)، (٣) المصدر نفسه (٥٣/٥).

(٥) المصدر نفسه (٥٦٢/٤).

(١) سير أعلام النبلاء (٥٣/٥).

(٤) المصدر نفسه (١٤٩/٥).

(٦) المصدر نفسه (٣١٤/٥).

أمه عن زوجة ابن حزم: أنه ما اضطجع على فراشه منذ أربعين سنة^(١)، وقيل: كان رزقه في الشهر ثلاثة مائة دينار^(٢).

٦- عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموى (والى مكة):

أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموى والى سليمان بن عبد الملك، وثقه النسائي وابن حبان، توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك^(٣).

٧- عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى (والى مصر):

ذكر ابن تغرى بردى خبراً انفرد به وهو: أن عمر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمى المصرى، الذى كان حسن السيرة، عفيفاً عن الأموال ثقة فاضلاً عادلاً بين الرعية. روى عنه الليث بن سعد وغيره، ثم عزله فى شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله^(٤)، وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح^(٥).

٨- إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر المخزومى (والى المغرب):

كان صالحاً فاضلاً زاهداً قدم إفريقية سنة (٩٩هـ) ويقال سنة (١٠٠هـ)، كان حسن السيرة، سار فيهم بالحق، فأسلم على يديه عامة البربر، وكان حريصاً على إسلامهم. وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول فى الإسلام، فيقرأها عليهم. توفى إسماعيل بن عبيد الله سنة (١٣٢هـ)^(٦).

٩- السمع بن مالك (بالأندلس):

الأمير الشهير، استعمله عمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها ويخرج منها ما كان فتحه عنوة فيأخذ منه الخمس وأن يكتب إليه بصفة الأندلس، فقدمها سنة (١٠٠هـ) وفعل ما أمره به عمر، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة^(٧).

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولايات والذين كانوا عند حسن الظن.

(١) سير أعلام النبلاء (٣١٤/٥).

(٢) تاريخ خليفة، ص (٣٢٣)، عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٧٣).

(٣) عمر وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٨٩). (٤) المصدر نفسه، ص (٢٨٩).

(٥) المصدر نفسه، ص (٢٩٣). (٦) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، ص (٢٧١).

ثانياً: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح:

إن عمال الخليفة وأمراء البلدان بخاصة هم نواب الخليفة في أقاليمهم، والواسطة بينه ورعيته، ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية في تصريف أمور السياسة فهو لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة، لذا عني عمر ابن عبد العزيز - رحمه الله - عناية فائقة باختياره عماله وولاته، وحين نتبع أخباره في هذا الصدد نجد أن له شروطاً لا بد من تحققها فيمن يختار العمل عنده، ومن أهم هذه الشروط: التقوى، الأمانة، وحسن التدبير، فلما عزل خالد بن الريان - الذي كان رئيساً للحرس في عهد الوليد بن سليمان - نظر عمر في وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصاري فقال: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلى في موضع تظن أنه لا يراك أحد فرأيتك تحسن الصلاة، فخذ هذا السيف قد وليتك حرسى^(١)، وكان يكتب إلى عماله: إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن، فإنه لم يكن عند أهل القرآن خير فغيرهم أخرى بأن لا يكون عندهم خير^(٢). وإذا شك في أمر من ينوى توليته لم يقدم على توليته حتى يتبين له حاله، فحين ولي الخلافة وفد عليه بلال بن أبي بردة فهناه وقال: من كانت الخلافة - يا أمير المؤمنين - شرفته فقد شرفتها، ومن كانت زانته فقد زنتها، واستشهد بأبيات من الشعر في مدح عمر فجزاه عمر خيراً، ولزم بلال المسجد يصلى، ويقرأ ليله ونهاره، فهم عمر أن يوليه العراق، ثم قال: هذا رجل له فضل، فدس إليه ثقة له فقال له: إن عملت لك في ولاية العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً، فأخبر بذلك عمر، فنفاه وأخرجه^(٣).

وكان يكره أن يولى أحداً ممن غمس نفسه في الظلم، أو عمل مع الظلمة لاسيما الحجاج^(٤)، وإذا كان من قبل عمر يجعل للعصية والقرابة من البيت الأموى وزناً في تولية العمل، فإنه لم يكن شيء من ذلك في ميزان عمر، فحدث الأوزاعي أن عمر بن عبد العزيز جلس في بيته وعنده أشراف بنى أمية، فقال:

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣١).

(٢) المصدر نفسه، ص (٨)، سراج الملوك للطرطوشي، ص (٢٥٥).

(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٨٢).

(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية، ص (١٨٢).

أتحبون أن أولى كل رجل منكم جنداً من هذه الأجناد؟ فقال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إنى لأعلم أنه يصير إلى بلى، وإنى أكره أن تدنسوا علىّ بأرجلكم، فكيف أوليكم ديني؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمون فيهم؟ هيهات هيهات^(١).

وقد كان لهذا النهج الذى تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز فى اختيار الولاة والعمال أثر فى الاستقرار السياسى فى الأقاليم، حيث رضى الناس سير عماله وحمدوا فعالهم، إذ لم يكن فى عماله من هو على شاكلة الحجاج يتعامل مع الناس بالشدة ويأخذهم بالتهمة، كما لم يكن منهم صاحب عصبية يرفع أناساً ويضع آخرين فيجدون عليه فى أنفسهم^(٢).

ثالثاً: الإشراف المباشر على إدارة شئون الدولة:

أشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على ما يتم فى دولته من أعمال صغرت أو كبرت، وكان يتابع عماله فى أقاليمهم، وساعده على ذلك أجهزة الدولة التى طورها عبد الملك بن مروان، كالبريد، وجهاز الاستخبارات الكبير الممتد فى أطراف الدولة، والذى كان الخلفاء يستخدمونه فى جمع المعلومات، وعلى الرغم من عناية عمر بن عبد العزيز فى إختيار الولاة، إلا أن هذا لم يمنعه من العمل على متابعة أمر الرعية وتصريف شئون الدولة. وقد اشتهر عنه الدأب والجد فى العمل حتى أصبح شعاره: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد، فقد قيل له: يا أمير المؤمنين لو ركبت فتروحت، قال: فمن يجرى عنى عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزيه من الغد قال: فدحنى عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع علىّ عمل يومين^(٣). وقال ميمون بن مهران: كنت ليلة فى سمر عمر بن عبد العزيز فقلت: يا أمير المؤمنين ما بقاؤك على ما أرى؟ أنت بالنهار فى حوائج الناس وأمورهم، وأنت معنا الآن، ثم الله أعلم ما تخلو عليه^(٤)، فقد كان - رحمه الله - يضى الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التى شملت مختلف الحياة السياسية والاقتصادية

(١) سير أعلام النبلاء (١٣٢/٥).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٣).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥).

(٤) الطبقات (٣٧١/٥).

والإدارية، وغيرها.. حتى خلف رحمه الله كمًّا هائلاً من تلك السياسات التي تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحى الشامل، وقد بعث بهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها فى مختلف الأقاليم، وكثيراً ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم، ويخوفهم بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون^(١).

وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر فى نفوس عماله أشد من وقع السياط، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء، فكتب مرة إلى أحدهم: يا أخى، أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبى بكتابك، لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى^(٢). ولم يكتف عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك، فقال زياد بن أبى زياد المدنى حين قدم على عمر من المدينة: سألتى عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم... وسألتى عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته^(٣). وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً فركب هو ومزاحم، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى، فلقىهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه، فقال لهما: إن شئتما جمعت لكما خبرى وإن شئتما بعضته تبعضاً، فقالا: بل اجمعه، فقال: إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغنى موفور، والعائل مجبور، فسر عمر بذلك، وقال: والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس^(٤). وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده طلب من عمر أن يحمله على البريد، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته: هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك؟ فقال الرجل: نعم. فقال عمر: لا تأت على عامل لنا إلا نظرت فى سيرته، فإن كانت حسنة لم تكتب بها، وإن كانت قبيحة كتبت بها. قال مزاحم: فما زال كتاب منه يجيئنا فى عامل فنغزله حتى قدم خراسان^(٥).

(١) المصدر نفسه، ص (١٨٧).

(٢) أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٦).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١١٥).

(٤) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء فى الحياة السياسية، ص (١٨٨).

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأموال الرعية والولاية تحتاج لجمع معلومات صحيحة، يبنى عليها التوجيهات والأوامر والنواهي النافعة للأمة والدولة. لقد آتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها في استقرار أحوال الأقاليم، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاية في حالة تحفز دائمة للعمل، حيث كانت تلك التوجيهات تقع في نفوسهم بمكان، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله وبالنهار لاستحثاث عمر إياه^(١).

وكان رحمه الله يرسل المفتشين في الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث على خراسان ثلاثة مفتشين، يبحثون في ظلمات الناس من نظام خراجها، الذي قرره عدى بن أرطاة على الأهالي، وأرسل مفتشاً إلى العراق، ليأتيه بأخبار الولاية والناس فيها^(٢). ولقد أعلن عمر في إطار متابعته لشئون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة، إذ كتب لأهل الموسم في يوم الحج الأكبر: ... إنى برئ من ظلم من ظلمكم ... ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معوّل كل مظلوم .. ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم .. ألا وأيما وارد فى أمر يصلح الله به ، خاصة أو عامة ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار، على قدر ما نوى من الحسبة^(٣). لقد أعلن فى أكبر تجمع إسلامى ، بل شجع مادياً ومعنوياً على مراقبته ، ومراقبة عماله ، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة ، وبطبيعة الحال ، فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة ، إذ الالتزام بها هدف منشود^(٤).

رابعاً: التخطيط فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

يعرف التخطيط فى معناه العام بأنه: العملية التى تتخذ لتلبية احتياجات المستقبل ، وتحديد وسائل تحقيقها^(٥)، كما عرف التخطيط بأنه: الجسر بين الحاضر

(١) الطبقات (٣٤٧/٥)، أثر العملاء، ص (١٨٨). (٢) عمر بن عبد العزيز للزحلى، ص (١٨٢).

(٣) عمر لابن الجوزى، ص (٩٠).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٤١٣).

(٥) الإدارة، المنيف، ص (١٤٧).

والمستقبل، ومن هذا التعريف العام يمكن أن نقول: أن التخطيط في الإسلام هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان في عمله، أو حياته في المستقبل^(١). وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قراراً دوغماً تخطيط، وتوخى لعواقب الأمور، وأخذها بعين الاعتبار، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهمية التخطيط والتفكير في الأمور قوله لرجاء: يا رجاء، إنى لى عقلاً أخاف أن يعذبني الله عليه^(٢)، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها، واستشراف المستقبل، وتحقيق الأهداف المطلوبة، ففي ذلك يقول عمر: من عمل على غير علم كان يفسد أكثر مما يصلح^(٣)، وقد كان عمر ابن عبد العزيز في تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات، ويحدد الإجراءات، ويبلور العمل في خطه، ففي إطار بلورة الأهداف كان هناك هدف رئيسي يسعى عمر لتحقيقه ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحى من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم، وإعادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما في إطار الفهم الشمولى للإسلام.

وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط، فإنه قد تجلّى ذلك في تطبيقات عمر للتخطيط الإدارى، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة^(٤)، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أى جدل فى مسائل الشرع، والدين، على أساس أنه حاكم منفذ، وأن الشرع سيُطبق من جانبه على نفسه وعلى رعيته، كما ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم^(٥). هذا فى إطار تحديد واختيار السياسة العامة، أما تحديد الإجراءات كأحد مقومات التخطيط أيضاً، فإن ذلك يتضح من خلال الإجراءات التى حددها لتنفيذ هذه السياسة من اللقاء الأول مع الأمة عندما وضع شروطاً لصحبته، والتى قد بينتها فيما مضى. وأما بلورة طريقة العمل، فإنه قد وضع بأنه منفذ وليس مبتدعاً - أى منفذاً لتعاليم الدين وأن الطاعة لمن أطاع الله^(٦) - وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح

(١) الإدارة فى الإسلام للضحيات، ص (٧١). (٢) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٦٦).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، (٢٥٠). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٥).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٣٩٧).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٣٥، ٣٦).

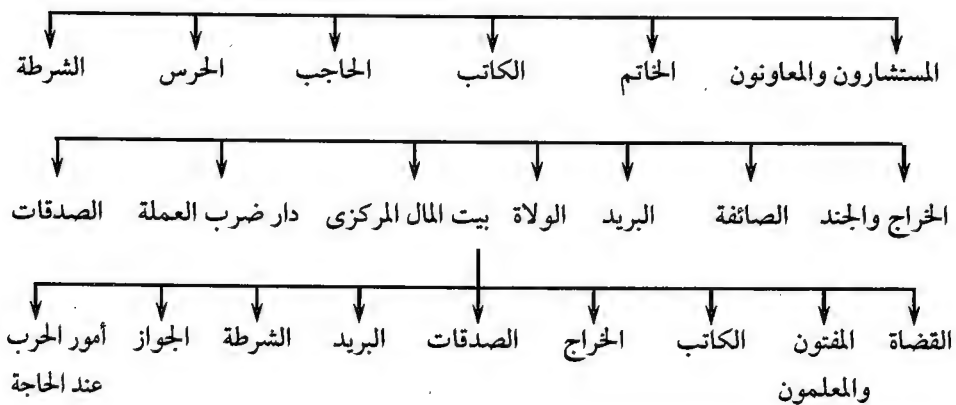
والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان^(١). وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول، وشمل تخطيطه شتى المجالات، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابيه، في أمور السياسة والحكم، والقضاء والاقتصاد والتربية والتعليم والنواحي الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل منفصل مثل خراسان والعراق، واهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال وولاية الخراج وغير ذلك^(٢).

خامساً: التنظيم في إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتي مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر بن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإداري، ورسخ مفهوم التنظيم في سلوكه الإداري.

فمن حيث التنظيم الهيكلي للعمل، نجده قد جزأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتي تحت مسؤولية أربعة أركان هم: الوالي والقاضي وصاحب بيت المال والخليفة^(٣)، بالإضافة إلى تنظيمات أخرى مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك. وفيما يلي اللائحة التنظيمية لمسؤوليات العمل في عهد عمر بن عبد العزيز^(٤).

رئيس الدولة الخليفة عمر بن عبد العزيز



(١) سيرة عمر، ص (١٠٢) .

(٢) النموذج الإداري المستخلص من عمر بن عبد العزيز، ص (٤٠٠).

(٣) المصدر نفسه، ص (٤٠١). (٤) المصدر نفسه، ص (٤٠١) .

وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ، فإنه يمكننا القول إن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض، وإيضاح هذا الجانب التنظيمي من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال، أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن.

ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ما كانت عليه في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك أمره بإرجاع مزرعته في خير إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وتم الشيء نفسه بشأن (فدك) (١) إذ كتب إلى أبي بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إنني نظرت في أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردّها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فاقبضها وولّها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك (٢).

كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة في الأموال والممتلكات وتنظيم العمال التجارية، ومن ليس له الحق في ممارسة التجارة (٣) وغير ذلك، كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسى للفصل بين الناس في منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاض يقضى بما في الكتاب والسنة، وكان قضاته في كل مصر أجل وأفقه وأصلح علماء ذلك المصّر (٤)، كعامر بن شرحبيل الشعبي (٥) بالكوفة، والحارث بن يمجّد الأشعري (٦) بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربي بدمشق (٧) وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه (٨)، وكان الاعتبار الأساسى في التنظيم القضائى في نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى الحق خير من التماهى في الباطل (٩)، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم، عين لهم

(١) فدك: هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله لما نزل خبير وهي خالصة لرسول الله، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فؤارة ونخل كثير.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٣١).

(٣) سيرة عمر لا بن عبد الحكم، ص (٧٨-٨٣). (٤) النموذج الإدارى المستخلص، ص (٤٠٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم، ص (٢٧٧).

(٦) المصدر نفسه، ص (٢٨٤).

(٧) المصدر نفسه، ص (٢٨٥).

(٨) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٤٠٣). (٩) المصدر نفسه ص (٤٠٣).

قاضى ليحكم فى هذه القضية، وقد مرت معنا، وفى هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه، ذلك بأنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم يبت هو فيها، مع أنه كان يسعه ذلك، وهو خليفة المسلمين، ولم يعهد بذلك إلى عامله على سمرقند سليمان بن أبى السرى، مخافة أن يجمع به الهوى، أو أن تأخذ العزة بالإثم، ولأنه عامل باسم الخليفة الذى أبى هو نفسه أن يبت بالخلاف، ولم يفوض ذلك إلى القائد العسكرى، بل أمر بأن يجلس لهم القاضى لأن القاضى لا يتأثر بالاعتبارات العسكرية أو السياسية، ولا يأبه إلا لحكم الله، يطبق أوامر الشريعة كما وردت، وهكذا تحقق ظن عمر بن عبد العزيز، وحكم القاضى بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم، أى أنه أمرهم بالجلاء، لأن الفتح وقع بصورة غير مشروعة^(١).

كما شملت تطبيقات عمر للتنظيم بيت الخلافة، فقد أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرتة فى أنه واحد من عامة المسلمين، وأنه ليس فى حاجة إلى أبهة الملك، فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التى سادت قبله، وألغى بعض الوظائف، كصاحب الشرطة الذى يسير بين يدى الخليفة بالحرية، كعاداته مع الخلفاء السابقين له، وقال له عمر: تنح عنى مالى ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار وسار معه الناس^(٢).

سادساً: الوقاية من الفساد الإدارى فى عهد عمر بن عبد العزيز:

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإدارى، بالحرص على سبل الوقاية منه، وسد المنافذ على السموم الإدارية مثل الخيانة، والكذب، والرشوة والهدايا للمسؤولين والأمرء، والإسراف، وممارسة الولاة والأمرء للتجارة واحتجاب الولاة والأمرء عن الناس ومعرفة أحوالهم، والظلم للناس والجور عليهم، وغير ذلك وإليك شيئاً من التفصيل:

١- التوسعة على العمال فى الأرزاق: كان أول إجراء إدارى رأى فيه عمر الوقاية من الخيانة أن وسع على العمال فى العطاء، رغم تقتيره على نفسه وأهله، وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة^(٣)، فقد كان يوسع على عماله فى النفقة، يعطى

(١) نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى (٤٠٧/١).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص (٦٥) لابن الجوزى.

(٣) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٤).

الرجل منهم فى الشهر مائة دينار، ومائتى دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا فى كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقليل له: لو أنفقت على عيالك، كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا فى جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً قبل ذلك^(١)، وبهذا الإجراء ألا وهو التوسيع على عماله يحقق عمر أمرين مهمين:

أ- سد منفذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب- ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم^(٢).

٢- حرصه على الوقاية من الكذب: قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ما له يا أمير المؤمنين؟ قال: أبلغنى أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه لم يكن بفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ - مستكراً ما قال ميمون - إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتنا سوء^(٣). والمقصود أن الكذب أحد منازل السوء، وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإدارى بالتحذير من الوقاية عما يجبر إليه الكذب والتحايل فى اتخاذ القرارات^(٤).

٣- الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات: رد على من قال له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة^(٥)، كما أبطل عمر أخذ الهدايا التى كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهى هدايا تعطى فى مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتاباً، يقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ الهدايا، التى كانت تؤخذ منهم فى النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور^(٦)، كما أندر ولاته وعماله من أن يتخذ

(١) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣١٥).

(٢) النموذج الإدارى، ص (٣١٥). (٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٤١٣).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣١٦).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (١٨٩).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٣٦).

أحداً منهم تلبية طلبات الخليفة أو أحد أهله شيئاً مسلماً به، ومن ذلك ما حدث عندما أرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى ابن معدى كرب^(١)، تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليها، فقال له: وأيم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لى عملاً أبداً، ولا أنظر إلى وجهك^(٢).

٤- النهى عن الإسراف والتبذير: فقد اتخذ قرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمين، فكان أول إجراء له بعد توليه الخلافة هو انصرافه عن مظاهر الخلافة، إذ قربت إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلى، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم - يعنى مولاه - ضم هذه إلى بيت مال المسلمين، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلى، قال: يا مزاحم، ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته، وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله، حتى يفضى إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم، ضم هذه لأموال المسلمين^(٣).

وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف فى الدولة، فحين قال له ميمون بن مهران -وهما ينظران فى أمور الناس-: ما بال هذه الطوامير^(٤) التى تكتب فيها بالقلم الجليل، وتمد فيها، وهى من بيت مال المسلمين؟ فكتب إلى العمال أن لا يكتبوا فى طومار ولا يمد فيه، قال: فكانت كتبه شبراً أو نحو ذلك^(٥). وقد مر معنا كتابه لأبى بكر بن محمد بن حزم الأنصارى والى المدينة فى قصة الشموع، وتوجيه عمر له فى ذلك، وكيف يكتب له عندما قال: إذا جاءك كتابى هذا فأرق القلم، واجمع الخط واجمع الحوائج الكثيرة فى الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول أضر بيت مالهم، والسلام عليك^(٦).

ذلك هو شأن عمر فى كل أمر يخص مال المسلمين، صغر أو كبر، ومع جميع الولاة، فإنه من المسلم به أن عمر لن يكون كذلك مع والى المدينة فحسب

(١) لم تمدنا المصادر ما إذا كان عامل لبنان، وسينين (سيناء).

(٢) المعرفة والتاريخ للقسوى (١/ ٥٨٠)، النموذج الإدارى، ص (٣١٧).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٣٣).

(٤) طوامير: جمع طومار وهو الصحيفة، لسان العرب (١/ ٥٠٣).

(٥) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٨). (٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٥٥).

بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد في الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبدخ^(١).

٥- منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة: قال في كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام، ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت، وإن حرص أن لا يفعل^(٢)، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة، لا تخلو من أحد أمرين، إن لم يكن الاثنان معاً: فإما أن ينشغل في تجارته ومتابعاتها عن أمور واحتياجات المسلمين، وإما أن تحدث محاباة له في التجارة لموقعه، ويصيب أموراً ليست له من الحق في شيء، وبهذا القرار سد عمر منفذاً خطيراً قد يؤدي إلى فساد إداري قل ما تتواری عواقبه^(٣). وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة، ما يصدق عمر بن عبد العزيز في نظريته الصادقة، وحكمته البالغة قال: إن التجارة من السلطان مضرة بالراعايا، معصرة للجباية^(٤).

٦- فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية: كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر ابن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصول إلى الخليفة، وقد بنى الحاشية سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم. أما عمر بن عبد العزيز، فقد أعلن الجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال، أو يشير عليه بشيء فيه مصلحة المسلمين ومصلحة لدولتهم، وكتب إلى أهل المواسم: أما بعد فأيما رجل قدم إلينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر، لعل الله يجيء به حقاً أو يميت باطلاً، أو يفتح به من ورائه خيراً^(٥).

كما أمر العمال والولاة بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم

(١) النموذج الإداري المستخلص، ص (٣١٩).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٨٣).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٠).

(٤) مقدمة ابن خلدون نقلاً عن رجال الفكر والدعوة للندوي (٤٦/١).

(٥) رجال الفكر والدعوة (٤٧/١).

والتعدى على حقوق الآخرين ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة^(١).

٧- محاسبته لولاية من قبله عن أموال بيت المال: لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والى خراسان يزيد بن المهلب، ولما مثل بين يديه، سأله عمر عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك. فقال: كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى بشيء سمعه، ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد فى أمرك إلا حبسك، فاتق الله وأدّ ما قبلك، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها، فردّه إلى محبسه، وبقي فيه حتى بلغه مرض عمر^(٢). وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم، فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك وقل شاكروك، فإما عدلت، وإما اعتزلت^(٣) والسلام).

سابعاً: المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعاً لمعايير محددة، فإننا نورد بعض المواقف والإجراءات التى توضح ذلك، فقد كان من الأوامر التى تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة، إذ قال: ... فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله، ولا تعجل دونى بقطع ولا صلب حتى تراجعنى فيه^(٤). وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة فى تطبيق المركزية فى هذه المسألة البالغة الأهمية، فقد يسبق السيف العزل، فلا مصلحة للأمة فى التعجيل فى أمور القتل والصلب، وكل سيلقى جزاءه طال الوقت أم قصر، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم^(٥)، فما بالك به فى أمر أهم، وهو إزهاق الأرواح^(٦)، وهناك أمور أخرى أعم وأشمل، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لا بد من الرجوع

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٠).

(٢) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٦٠ - ٤٦٢).

(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص (٢٧٥).

(٤) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٢٢).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٣).

(٥) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٣).

إليه فيها متخذاً أسلوب المركزية فيها، وهى كل ما تبثلى به الأمة، وليس لها سابقة فى قرآن أو سنة، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته، فقال: . . . وأما ما حدث من الأمور التى تبثلى الأمة بها، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبى ﷺ، فإن والى أمر المسلمين وإمام عامتهم، لا يقدم فيها بين يديه، ولا يقضى فيها دونه، وعلى من دونه رفع ذلك إليه، والتسليم لما قضى^(١)، وفى مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية، حيث جعل للعراق أكثر من وال، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة، كما عين والياً على الأندلس من قبله رغبة منه فى الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالى إفريقية^(٢). هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

- وأما ما يدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روى أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد، فإننى أكتب إليك أمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعنى ولا تعرف بُعد مسافة ما بينى وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت أردھا عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى^(٣). ويبدو فى هذا القرار دقة متناهية فى تحديد الشيء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية، وما حداه هنا إلى تبنى اللامركزية من مصلحة للأمة^(٤)، وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر فى اتباع اللامركزية فقد كتب إلى عدى بن أرطاة يقول: أما بعد، فإنك لن تزال تعنى إلى رجلاً - أى يتعبه بإرساله إليه - من المسلمين فى الحر والبرد، تسألنى عن السنة، كأنك إنما تعظمنى بذلك، وإيم الله لحسبك بالحسن، يعنى - الحسن البصرى - فإذا أتاك كتابى هذا فسل الحسن لى ولك وللمسلمين^(٥). فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته فى المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل الحسن البصرى رحمه الله، فالحسن أهل لأن يسأل لعمر، ولعدى الوالى وللمسلمين كافة^(٦)، وفى هذا

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٦٣).

(٢) الإدارة فى العصر الأموى، نجدة الخماش، ص (١٠٧).

(٤) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٤).

(٥) المصدر نفسه ص ٣٢٤، حلية الأولياء (٣٠٧/٥).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٤).

الموقف لفترة عمرية في تقدير وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصري وإنزاله مقامه اللائق به، فالأهم تنهض عندما تحترم علماءها الربانيين وتنزلهم المنازل التي يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية، وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أى شىء منها يمكن تلخيصها فيما يلي:

- ١- ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.
- ٢- أهمية الأمر الذى سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية، فالإجراء الذى يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حراً أن تكون المركزية فيه أصلح.
- ٣- مستجدات الأمور مما لم يرد فى القرآن أو السنة، فهى من الأهمية بمكان.
- ٤- مراعاة البعد الجغرافى بين الخليفة والولاية.
- ٥- مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت.
- ٦- وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به.
- ٧- التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز فى العمل.
- ٨- مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال^(١).

فى ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز فى ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية، بالموازنة بينهما، وتحديد الدرجة الملائمة فى ممارسته لكل منهما، وبذلك يتوافق عمر مع منظرى وعلماء الإدارة فى إدراك أبعاد هذا المبدأ^(٢).

ثامناً: مبدأ المرونة فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة فى التفاهم والحوار والفكر، وتنفيذ الأوامر والتقييد بها، ومن تلك الشواهد، ما روى ميمون بن مهران: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال: يا أبت ما يمنعك أن تمضى لما تريد من العدل؟ فوالله ما كنت أبالى لو غلت بى وبك القدور فى ذلك. قال: يا بنى إنما أروض الناس رياضة الصعب، وإنى لا أريد أن أحىي الأمور من العدل، فأؤخر ذلك حتى أخرج

(١) النموذج الإدارى المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٢٦). (٢) المصدر نفسه، ص (٣٢٦).

معه طمعاً من طمع الدنيا، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه^(١). وقال عمر: ما طأوعنى الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً^(٢). فقد أبدى بهذا الإعلان منذ توليه الخلافة، أن تحقيق الأهداف يتطلب شيئاً من المرونة والتغاضى، فليس الأمر كما يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلى بهم القدور فى سبيل تحقيق العدل، بصرف النظر عن أى اعتبار آخر^(٣).

وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك، وإليك ما دار بينهم من حوار:

الإبن: ما يؤمنك أن تؤتى فى منامك، وقد رفعت إليك مظالم لم تقض حق الله فيها ؟

الأب: يا بنى إن نفسى مطيتى، إن لم أرفق بها لم تبلغنى، إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا، وإنى لأحتسب فى نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب فى يقظتى، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى أسكن الإيمان فى قلوبهم. يا بنى.. مما أنا فيه من أمر هو أهم إلى من أهل بيتك (الأمويين) وهم أهل القدرة والعدد وقبلهم ما قبلهم، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره على ولكنى أنصف من الرجل والاثنين، فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له^(٤).

فى الآثار السابقة، يقدم لنا عمر فقهه الحاذق فى إدارة الحركات الإصلاحية التجديدية، وتسيير البرامج التى تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة^(٥)، ففى قوله: إنى لو أتعبت نفسى وأعوانى لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا. فبين رحمه الله أن طاقة الإنسان محدودة، وأن القابلية على تحمل الجهد الصارم لها حدودها هى الأخرى، والإنسان فى تقبله لالتزاماته فى حاجة ضرورية إلى وقت كاف لتمثل هذه الالتزامات من الداخل وتحويلها إلى مبادئ وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه، ومتشعبة فى بنيته وخلاياه، وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنية، وستظل هناك مكدسة على أعتاب الحس الخارجى، وطالما ظل هذا التكدر يزداد ثقلًا يوماً بعد يوم، فسوف

(٢) المصدر نفسه، ص (٨٨).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٦).

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٨٨).

(٣) انموذج الإدارى المستخلص، ص (٣٢٨).

(٥) ملامح الانقلاب، ص (١٧٣).

يأتى يوم لا محالة يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل^(١) . . وما يلفت النظر عبارته: . . ولكنى أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له. إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره فى تحقيق الإصلاح والتجديد. فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية وانقلاب يجتث الجذور العفنة، ويبدأ الزرع من جديد، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادئهم لأنهم طرحوا أقوالاً . . . أما عمر هذا المصلح الكبير والفقير الحاذق، فإنه يريد أن يطرح أفعالاً، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسرى الإصلاح فى نفوس الأمة، أنى كانت، سريان الضياء فى الظلام.

ثم إن عمر هذا الذكى المرن لم يشأ أن يخرج شيئاً إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب^(٢)، ولا يمكن لأحد إن يقول إن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئى يقوم على الترقيع . . . لأننا ما عرفنا عمر منذ حمل مسئولية أمته، يسعى إلى التنازل، ولو شبراً واحداً، عن الأهداف التى طرحها القرآن الكريم والسنة، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوى الذى تنأتى به تلك الأهداف كاملة . . . إن الضغط المستمر يولد الانفجار، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبه فإنه لا بد أن يحرق ويدمر، وإذا كان بإمكان القادة والمسؤولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق الالتزام أسلوب حيوى ينسجم وبنية الإنسان النفسية، فلماذا لا يسلكونه؟^(٣) فعندما قال له ابنه عبد الملك يا أمير المؤمنين: انفذ لأمر الله وإن جاشت بى وبك القدور، فماذا كان جواب الخليفة المرن؟ يا بنى: إن بادته الناس بما تقول احوجونى إلى السيف ولا خير فى خير لا يحيا إلا بالسيف^(٤).

إن خليفة بهذا المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يوماً^(٥). وما مضى يتضح أدلة مرونة عمر فى إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام، وبناء دولة العقيدة^(٦)، وإليك هذه الشواهد فى تنفيذ مبدأ المرونة:

(١) ملامح الانقلاب، ص (١٧٣). (٢) المصدر نفسه، ص (١٧٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٧٤). (٤) الكامل فى التاريخ نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (١٧٥).

(٥) ملامح الانقلاب، ص (١٧٥). (٦) النموذج الإدارى، ص (٣٢٩).

١- فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عين ميقاتها: خرج عمر على حرسه يوماً، فقال: أيكم يعرف هذا الرجل الذي بعثناه إلى مصر؟ قالوا: كلنا نرفه - وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد - قال: فليذهب إليه أحدثكم سناً فليدعه - قال: وذلك فى يوم الجمعة، فذهب إليه الرجل فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلنى حتى أشد على ثيابى، فشد عليه ثيابه، فأتى عمر، فقال: لا روع عليك، إن اليوم يوم الجمعة، فلا تبرح حتى تصلى الجمعة، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها^(١)، فأبدى عمر فى هذا الموقف مرونة فى التنفيذ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل^(٢).

٢- هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج: لستدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذاً لأمره وعندما وصل إلى مقر الخلافة فى دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب والإجهاد على وجهه، سأله: متى خرجت؟ فقال: فى شهر رمضان، فقال له عمر: قد صدق سن وصفك بالجفاء!! هلا أقمت حتى تفطر، ثم تخرج^(٣).

٣- لا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم: ذكر ابن سعد أن ميمون بن مهران - وكان على ديوان دمشق - قال: ففرضوا لرجل زمن^(٤)، فقلت: الزمن ينبغى أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا. فشكونى إلى عمر ابن عبد العزيز، فقالوا له: إنه يتعنتنا، ويشق علينا، ويعسرنا. قال: فكتب إلى: إذا أتاك هذا، فلا تعنت الناس ولا تعسرهم، ولا تشق عليهم فإنى لا أحب ذلك^(٥)، فكتب إليه عمر انطلاقاً من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور.

٤- المرونة فى الحوار والتفاهم: فقد كان الحوار الهادئ ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه فى حوارهِ ومناظراتهِ - كما مر معنا مع الخوارج - فقد حدث أنه دخل على عمر أناس من الحرورية، فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم،

(٢) النموذج الإدارى، ص (٣٣٠).

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (١٠٦).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٣٠).

(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٠).

(٤) الزمن: هو المبتلى بالعامة، لسان العرب (١٣/ ١١٩).

ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم مابقي، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركة رجل يليه من أصحابه، فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك، دون الكى فلا تكونه أبداً^(١)، وأبدى مرونة فى شتى أساليب التعامل معهم^(٢).

٥- المرونة الفكرية: كان عمر يتحلى بالمرونة الفكرية، متجنباً الجمود والتشدد، فقد حدث - كما مر معنا - أن أرسل عمر يزيد بن أبى مالك، والحارث بن محمد، ليعلموا الناس السنة، وأجرى عليهم الأرزاق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث وقال: ما كنت لأخذ على علم علمنيه الله أجرًا، فذكر ذلك لعمر، فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا، وأكثر الله فينا مثل الحارث^(٣). فلم يتخذ موقفًا محددًا تجاه العالمين، رغم اختلاف موقفهما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس، فأيد أخذ الأجر على التعليم، وأنه لا بأس فيه، ثم دعا الله أن يكثر من أمثال الحارث، فاتضحت مرونته فى تأييد الموقفين فى آن واحد، رغم اختلافهما ويأتى ذلك فى إطار ما عبر عنه عن قناعته التامة، أن مبدأ المرونة مطلوب وضرورى حتى قال: ما يسرنى لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا، لأنهم لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة^(٤). وقال: ما يسرنى باختلاف أصحاب النبى ﷺ، حمر النعم^(٥). فهذه أدلة على تطبيق عمر لمبدأ المرونة فى إدارته، ولم تكن المرونة عائقًا لتنفيذ القرارات، وتحقيق الأهداف المرسومة، والوصول إلى المرامى والتطلعات^(٦).

تاسعاً: أهمية الوقت فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز يقضى جل وقته، إن لم يكن كله فى تسيير أمور الدولة، أو فى عمل فيه مصلحة الأمة، أو فى أداء حق الله من العبادة، فكان يقضى ليلته فى الصلاة والمناجاة، وكان لا يكلم أحداً بعد أن يوتر^(٧). وفى إطار اغتنام الوقت نسب إلى عمر قوله: إن الليل والنهار يعملان فيك - أى فى

(١) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٧٦، ٧٨). (٢) النموذج الإدارى، ص (٣٣١).

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (١٣٧).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢٧٥).

(٥) الطبقات (٣٨١/٥). (٦) النموذج الإدارى، ص (٣٣٢).

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٢١٠، ٢١١).

الإنسان- فاعمل فيهما^(١)، وكان يغتنم الوقت في الأعمال الصالحة وفي سرعة التوجيه والبت السريع في الأمور، واتخاذ القرارات الإدارية، وتلافى كل ما من شأنه تأخير عمل أو مصلحة، وأهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراء لإصدار ثلاثة قرارات، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلًا: فلما دفن سليمان - وكان دفنه عقب صلاة المغرب - دعا عمر بدواة وقرطاس، فكتب ثلاثة كتب، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها، فأمضاها من فوره، فأخذ الناس عند كتابته إياها هنالك في همزه يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟ هذا حب السلطان، هذا الذي يكره ما دخل فيه، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه، ولكنه حاسب نفسه ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه، وكان الكتاب الأول عن أمر لا يمسه هو شخصيًا في شيء، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين في القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضعف، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلى شيئًا من أمور المسلمين، ثم يؤخر قفلهم ساعة، فذلك الذي حملة على تعجيل الكتاب^(٢). حقًا إن الحال الذي كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل التأخير في قرار عودتهم على الإطلاق، فكان الإجراء المناسب في الوقت المناسب^(٣).

وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي وكان على خراج مصر فعزله لظلمه وغشمه وتسلمه، كما كتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية لظلمه^(٤)، وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعى الوقت الأكثر ملاءمة سواء من حيث كثرة المجتمعين أم من حيث قدسية المكان وحرمته، وبالتالي زيادة الاهتمام بما يكون فيه، ألا وهو الموسم السنوي، موسم الحج ليخطب في المسلمين أو يكتب إلى المسلمين في يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمران،

(١) الإدارة في التراث الإسلامي (١/٢٧٩).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص (٣٢).

(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، ص (٣٣٧). (٤) المصدر نفسه، ص (٣٣٧، ٣٣٨).

أحدهما: نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء فى أكبر عدد من المسلمين، فى كل بلد من بلدانهم، والثانى سرعة الانتشار التى يحققها إعلان القرار أو التوجيه فى هذا الجمع فى ذلك الوقت^(١).

ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذى جاء فيه: أما بعد، فإننى أشهد الله وأبرأ إليه فى الشهر الحرام والبلد الحرام، ويوم الحج الأكبر إننى برئ من ظلم من ظلمكم، وعدوان من اعتدى عليكم، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهماً منى، أو أمراً خفى على لم أتعده، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عنى مغفوراً لى، إذ علم منى الحرص والاجتهاد، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دونى، وأنا معول كل مظلوم، ألا وأى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم، ولا أثرة على فقرائكم فى شئ من فيئكم، ألا وأيما وارد ورد فى أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله مائتين دينار إلى ثلاث مائة دينار على قدر ما نوى من الحسبة، وتجشم من المشقة، رحم الله امرأ لم يتعاضمه سفر يجئ الله به حقاً لمن وراءه، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحيها الله لكم، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلنى إلى نفسى كنت كغيرى والسلام^(٢).

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فى محاربة الظلم وإقرار العدل، فهو قد سعى جاهداً فى رد المظالم التى عرف عنها، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه، فكتب هذا الكتاب، وأعلنه فى موسم الحج الذى يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه، وأعلن فى هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شئ من الظلم، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده، يسعى فى تثبيته إذا استقام، وفى تقويمه إذا انحرف... ومن أروع ما جاء فى هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى فى إصلاح أمور الأمة، وفى ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك، حتى لا يقف به التفكير فى تأمين

(١) النموذج الإدارى، ص (٣٣٩).

(٢) حلية الأولياء (٥/٢٩٢، ٢٩٣).

تلك النفقة، ثم يختم كتابه بشكر الله جل وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذى تحقق على يديه، وهذا مثل من الإخلاص القوى لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعاونته^(١). فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحرى ومراعاة أهمية الوقت، حيث لم يقتصر عمر فى إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيات اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه فى الأوقات المناسبة، والعمل على تلافى التأخير وأسبابه ودوافعه^(٢).

عاشراً: مبدأ تقسيم العمل فى إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار صراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسئولية للدولة، فقد كتب فى كتابه إلى عقبة بن زرعة الطائي، بعد أن ولاء خراج خراسان: ... إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها، فالوالى ركن، والقاضى ركن، وصاحب بيت المال ركن، والركن الرابع أنا - يعنى الخليفة -^(٣). هذا من حيث التقسيم الرئيسى العام، فبالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته وهى: الولاية ويشملها الوالى للإقليم، والقضاء ويمثله القاضى، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو صاحب بيت المال والرابع السلطة العليا، للدولة رجل الدولة أو الخليفة، ويمثلها أمير المؤمنين، إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة منها ما يتعلق بإمارة الجهاد، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب^(٤)، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام، وعمرو بن قيس السكونى^(٥). وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلى، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبي على الشرطة^(٦)، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبى مسلم الأنصارى، وحاجبه حبيش مولاه، وأنشأ نقاط العبور وولى عليها، مثل جواز مصر، وكان عليها عمر بن رزيق الأيلي، وهى ما تعرف الآن بنقاط الجمارك^(٧)، وقسم ثالث يختص بالكتابة (الكتاب)، ومنهم ليث

(٢) النموذج الإدارى، ص (٣٤٠).

(١) التاريخ الإسلامى (١٦/١٥١).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٢). (٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (٧١).

(٦) المصدر نفسه، ص (٣٢٤).

(٥) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤).

(٧) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٣٤٤).

ابن أبى رقية مولى أم الحكم بنى أبى سفيان^(١) والخاتم وعليه نعيم بن أبى سلامة^(٢)، وقسم يتولى متابعة الشؤون المالية، وله تفريعات منها الخراج، ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائي^(٣)، والصدقات إذ وليها لعمر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة القرشي^(٤)، وهى تمثل مؤسسة النقد فى الوقت الراهن ووليها لعمر بن أبى حملة القرشي^(٥)، وكذلك الخراج المركزى وكان عليه صالح بن جبير الغداني^(٦).

وأما فى مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة فى المساجد، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل فى البداية، كما كلف أناساً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام دور الإفتاء إذ جعل الفتيا فى مصر إلى ثلاثة فقهاء^(٧). بالإضافة إلى ما سبق فقد كانت هناك ولايات أخرى، مثل ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره، والبريد وغير ذلك مما لم يسعنا المقام بالإحاطة والتفصيل له. وهكذا كان عمر بن عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل فى دولته^(٨)، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز فى كثير من الأحيان يعطى الولاية الحق فى تعيين وزرائهم، وتشكيل مجالس شورايم، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية، والحفاظ على الأمن الداخلى فى الولاية، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الإشراف والمتابعة... إلخ، هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز فى إدارته للدولة.

- من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحى:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت فى نجاح مشروعه الإصلاحى منها:

١- صفاته الشخصية من العلم، والورع والخشية، والزهد والتواضع، والحلم والصفح، والعفو، والحزم والعدل مع قدرات إدارية كبيرة فى فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

(١) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤).

(٢) المصدر نفسه، ص (٣٢٥).

(٣) تاريخ الطبرى نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٤).

(٤) أمراء دمشق فى الإسلام، ص (٤٨).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته فى رد المظالم، ص (٢٩٥).

(٦) تاريخ خليفة، ص (٣٢٤).

(٧) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإدارى، ص (٣٤٤).

(٨) النموذج الإدارى، ص (٣٤٥).

٢- امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

٣- التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

٤- وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده، كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة، فلما جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم، وأتاح لهم المجال أبدعوا وأثبتوا جدارتهم فيما أسند لهم من مهام كبرى. وهذا درس مهم في أهمية تكامل العلم الشرعي، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية في شخصية العلماء الربانيين، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامي الكبير.

٥- الحرص على تحكيم الشرع في كل صغيرة وكبيرة، على مستوى الدولة والأمة، فيأتي بذلك التوفيق الرباني، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ٩٦].

* أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطى العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه، كتاب الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ...﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ، فقد كان يقتنص الفرع والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»^(١) وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير. قال

(١) البخاري، ك الجهاد ولسير رقم (٢٨٧٢).

تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (١٣٧)﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿[آل عمران: ١٣٧ ، ١٣٨] وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر، قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿[يونس: ١٠١ ، ١٠٢] .

* من خصائص السنن الإلهية:

١- أنها قدر سابق: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أى أن حكم الله تعالى وأمره الذى يقدره كائن لا محالة، وواقع لا محيد عنه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

٢- أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال تعالى: ﴿لَنْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (٦٠)﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿[الأحزاب: ٦٠ - ٦٢] .

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢)﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿[الفتح: ٢٢ ، ٢٣] .

٣- أنها ماضية لا تتوقف: قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨] .

٤- أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها: قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآتَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿[غافر: ٨٢ - ٨٥] .

٥- لا يتنفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون: قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿آل عمران: ١٣٧ ، ١٣٨﴾.

٦- أنها تسرى على البر والفاجر: فالمؤمنون - والأنبياء أعلاهم قدراً - تسرى عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امثل شرع الله أو أعرض عنه^(١).

الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة عمر بن عبد العزيز بسبب الحكم بما أنزل الله:

١- الاستخلاف والتمكين: حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - مكن الله له في الأرض تمكيناً عظيماً، بسبب حرصه على إقامة شرع الله تعالى في نفسه وأهله ومن حوله وقومه، وأمته وأخلص لله في مشروعه الإصلاحى الراشدى، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخذ بشروط التمكين وعمل بها، فتحقق له وعد الله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

٢- الأمن والاستقرار: كانت الثورات في العهد الأموى على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصاً من الخوارج إلا أن عمر بن عبد العزيز استطاع بالحوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم، ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله في الحكم ورفع للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة جميع شئون الحياة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٣- النصر والفتح: إن عمر بن عبد العزيز حرص على نصرة دين الله بكل ما يملك، وتحققت فيه سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٦٧ - ٦٦٩).

على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فقد وعد الله من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم^(١)، كما نرى في حياتنا المعاصرة.

٤ - العز والشرف: إن الشرف الكبير والعز العظيم اللذين سطرا في كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠] قال ابن عباس - رضى الله عنه - في تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم^(٢). فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمسكها بأحكام الإسلام.

٥ - بركة العيش ورغد الحياة في عهده: قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الرباني الكبير. والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع الخيال^(٣). ولقد لامس الناس وشاهد هذه البركات في عهد عمر بن عبد

(١) صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامى للصلايى (٢/ ٣٠٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠). (٣) فى ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٩).

العزیز سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العیش ورغد الحیاة قد عمّا جمیع الناس، ومالية الدولة قویت، واطمأن الناس فی کل رقعة من رقعة خلافة الدولة الأموية الواسعة، حتی عز وجود من یتحق الزكاة ویقبلها، وأصبحت هذه مشكلة للأغنیاء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعا، قال یحیی بن سعید: بعثنی عمر بن عبد العزیز علی صدقات إفريقية فاقضیتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقیراً، ولم نجد من يأخذها منی، قد أغنی عمر بن عبد العزیز الناس، فاشتریت بها رقاباً، فأعتقتهم وولاءهم للمسلمین^(١). وقال رجل من ولد زید بن الخطاب: «إنما ولی عمر بن عبد العزیز ستین ونصفاً، فذلك ثلاثون شهراً، فما مات حتی جعل الرجل یأتینا بالمال العظیم فیقولوا: اجعلوا هذا حیث ترون فی الفقراء، فما یرح بماله یتذكر من یضعه فیهم فما یجده، فیرجع بماله، قد أغنی عمر بن عبد العزیز الناس^(٢). فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التي تطبق شرع الله تعالی.

٦- انتشار الفضائل وانزواء الرذائل: بین الشریعة و بین الخلق أوثق الرباط وأتمن العری، کیف لا، والرسالة من غاياتها العظمی: ترکیة الأخلاق وتربية الفضائل. قال تعالی: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمعنی يزکیهم: أى يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنکر لتزكو نفوسهم، وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم^(٣). ولقد اهتم عمر بن عبد العزیز بنشر الفضائل وحارب الرذائل، وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية، والتي كان من روادها الحسن البصری، وأیوب السخيتانی، ومالك بن دينار وغيرهم. وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة فی نشر الفضائل وانزواء الرذائل، وقد حدث فی عهد عمر بن عبد العزیز تجديد كبير فی توجه الأمة والمجتمع الإسلامی والتطور فی الأذواق والأخلاق والمیول والرغبات فی هذه المدة القصيرة. فقد حدث الطبری فی تاریخه:

(١)، (٢) رجال الفكر والدعوة (٥٨/١).

(٣) تفسیر ابن کثیر (٤٠١/١)، الحكم والتحاكم (٦٩١/٢).

كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولى سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجوارى، فلما ولى عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختتم؟ ومتى ختمت، وما تصوم من الشهر؟^(١).

٧- الهداية والتثبيت: جاء عن عمر بن عبد العزيز في خطابه الذي أرسل ليقرا على الحجاج في موسم الحج: ... ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أمورا من الحق أحيها الله لكم، وأمورا من الباطل أماتها الله عنكم، وكان الله هو المتوحد بذلك فلا تحمدوا غيره، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري، والسلام عليكم^(٢). ولاشك أن عمر بن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله في دولته وبذلك منحه الله نعمة عظيمة ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨] والأمر الذي وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والإنقياد للرسول ﷺ، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق، فلا يضطربون في دينهم، ولأتاهم الهداية التي لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم^(٣).

إن الهداية والثبات على الأمر، هبة يهبها الله لمن تمحض قلبه لأمره وانقادت جوارحه لحكمه^(٤).

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد البيغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة

(١) تاريخ الطبرى نقلًا عن رجال الفكرة والدعوة (٥٩/١).

(٢) حلية الأولياء (٢٩٢/٥، ٢٩٣).

(٣) فتح القدير (٤٨٥/١).

(٤) الحكم والتحاكم (٦٩٠/٢).

عرضة للمشاكل والأزمات، وعرضة للإنهيار فى كل ساعة، وأنها ليست إلا حلمًا من الأحلام، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم^(١): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومما أدهشنى فى دراستى التاريخية تواصل الأجيال الإسلامية فيما بينها، عبر حلقات متماسكة تؤثر بعضها فى بعض، فالسلطان نور الدين زنكى المتوفى (٥٦٨هـ) كتب له الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمد بن خضر الأربلى سيرة عمر بن عبد العزيز؛ لكى يسير نور الدين على منهاجها، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدى فى عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها فى الدولة الزنكية عندما وجدت العالم الكبير الذى رسم ملامح المشروع الإصلاحى وهو الشيخ أبو حفص معين الدين، واقتنع القائد العسكرى والزعيم السياسى بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكى، فقد قال أبو حفص فى مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين: .. علمًا منه أن الاقتداء بمن سلف من الفضلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبقى الذكر، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بمن سلف من الأنبياء، فقال عز من قائل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. فلذلك اشتد حرصه - أدام الله سعادته - على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة، فحينئذ رأيت حقًا على بذل الوسع فى مساعدته واستنفاد القوة فى معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتى إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه -، والتجأت إلى الله الكريم - جل اسمه - أن يحسن معونتى ويُسِّرَ ما صرفت إليه عزيمتى، فحين شرح الله صدرى لذلك ولاحت أمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزائنه المعمورة معاونة على البر والتقوى^(٢). لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجًا علميًا لنور الدين زنكى من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة، وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل

(٢) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/١).

(١) رجال الفكر والدعوة (٥٩/١).

على إحياء السنة وقمع البدعة، وعمق هوية الأمة وفجر روح الجهاد فيها، ونشر العلم وساهم فى تحقيق الازدهار والرخاء، وكان نسيجَ وحده فى زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه، ومن أراد التوسع فليراجع الجهاد والتجديد فى القرن السادس الهجرى، عهد نور الدين وصلاح الدين لمحمد حامد الناصر.

إن آثار تحكيم شرع الله فى الشعوب التى نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التى أصابت دولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكى، ودولة يوسف بن تاشفين، ودولة محمد الفاتح لهى سنن من سنن الله الجارية والماضية، والتى لا تبدل ولا تتغير، فأى قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخصصة لله فى قصدها، مستوعبة لسنن الله فى الأرض فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها. إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان فى جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه، ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة فى تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدى من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار.

* الأيام الأخيرة فى حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله:

١ - آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز: كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة، فقال فيها: أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم، والفصل بينكم، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شىء، وحرم الجنة التى عرضها السماوات والأرض، ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه، وباع نافداً بياق، وقليلاً بكثير، وخوفاً بأمان، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وسيخلفها بعدكم الباكون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين؟، وفى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله؛ قد قضى نحبه وانقضى أجله، فتعييونه فى صدع من الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأجابة، وخلع الأسباب، فسكن التراب وواجه

الحساب، فهو مرتتهن بعمله، فقير إلى ما قدم، غنى عما ترك، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواعقه، وإيم الله إنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندى، فأستغفر الله وأتوب إليه، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداى ولحمتى، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء، وإيم الله أن لو أردت غير هذا من الغضارة والعيش، لكان اللسان منى به ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، يدل فيها على طاعته، وينهى عن معصيته، ثم رفع طرف رداءه فبكى حتى شقق، وأبكى الناس حوله، ثم نزل، فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله^(١).

٢ - سقيه السم: اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز، فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى، والاهتمام بأمر الناس، كما روى عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد فى الطبقات عن ابن لهيعة^(٢)، إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته، وهو أنه سقى السم، وذلك أن بنى أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر بن عبد العزيز التى قامت على العدل، وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بمميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بنى أمية مثل أقصى الناس فى أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التى كانت فى أيديهم وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بنى أمية بوضع السم فى شرابه^(٣). وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعتمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه، وليكن ذلك عن طريق خادمه الذى يقدم له الطعام والشراب، فقد روى أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر فشربه ثم حس به منذ أن وقع فى بطنه^(٤). وعن مجاهد قال: قال لى عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس فى؟

(١) تاريخ الطبرى (٧/ ٤٧٥).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٣/ ١)، الحلية (٥/ ٣٤٢).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٣/ ١).

(٤) سيرة عمر لابن الجوزى، ص (٣١٦، ٣١٧).

قلت: يقولون إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هات الألف فجاء بها، فألقاها عمر في بيت المال. وقال: أذهب حيث لا يراك أحد^(١). فالسبب المباشر لمرضه وموته -كما ذكرت الروايات- كان بسبب سقيه السم^(٢). ففي عفوهِ عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة -وفي عدم استفهامه من الغلام عن أمره بوضع السم- وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك ثم يأمر بالقصاص منهم جميعاً مثل عجب في العفو، وسبب ذلك لأنه كان يوقن أن ما عند الله خير، وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوهِ، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يَأْثَم ولكنه لا يحصل على أجر العفو ونظراً إلى أن أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع رصيده من الحسنات فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس^(٣).

٣- شراء عمر موضع قبره: بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع في حجرة عائشة، والتي فيها قبر النبي ﷺ وأبى بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم، قال: والله لأن يعذبني الله عذاباً -إلا النار فإنني لا صبر بي عليها- أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أنني أراني لذلك أهلاً^(٤). ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز -رحمه الله تعالى- إلا أن يشتري موضع قبره من ماله الخاص، وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات أنه قال لمن حوله -وهو في مرض موته -: اشتروا من الراهب موضع قبري، فقال له النصراني: والله يا أمير المؤمنين إنني لأتبرك بقربك وجوارك وإنه لخير أن يكون قبرك في أرضي، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتموني موضع قبري وإلا تحولت عنكم، ثم دعا بالثمن الذي اختلفت الروايات في مقداره فقبل: دينارين، وقيل: ستة، وقيل: ثلاثين، دعا بالثمن فوضعه في يد النصراني، فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنا ما قبلنا الثمن^(٥).

(١) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٠).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤).

(٣) التاريخ الإسلامي (١٦/ ٢٢٩).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣٢١ - ٣٢٤)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥).

(٥) المصدر نفسه، ص (٣٢٢، ٣٢٣).

٤ - وصيته لولى عهده يزيد بن عبد الملك: كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك - وهو فى مرض الموت - قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر - أمير المؤمنين - إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف^(١) من وجعى وقد علمت إنى مسئول عما وليت، يحاسبنى عليه ملك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفى عليه من عملى شيئاً، يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَنْهُمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا عَنْهُمْ غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فإن يرض عنى الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط علىّ فيا ويح نفسى إلى ما أصير، أسأل الله الذى لا إله إلا هو، أن يجيرنى من النار برحمته، وأن يمن علىّ برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدى إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير^(٢).

وجاء فى رواية: ... فإن سليمان بن عبد الملك، كان عبداً من عباد الله، قبضه الله، واستخلفنى وباع لى من قبله، وليزيد بن عبد الملك إن كان من بعدى، ولو كان الذى أنا فيه لاتخاذ أزواج، أو اعتقاد أموال، كان الله قد بلغ بى أحسن ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنى أخاف حساباً شديداً، ومسألة لطيفة، إلا ما أعان الله عليه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

لقد نصح عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - لولى عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح، وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر، مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين فقد نصح وبلغ أتم البلاغ^(٣).

٥ - وصيته لأولاده عند الموت: لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال، فلو أوصيت بهم إلى وإلى نظرائى من قومك فكفوك مؤونتهم، فلما سمع مقالته: قال: أجلسونى، فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إنى قد أفغرت أفواه ولدى من هذا المال، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم،

(١) دنف: اشتد به المرض حتى أشفى على الموت.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص (٣١٨، ٣١٩)، فقه عمر بن عبد العزيز (٤٧/١).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٤٧/١).

ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم، وأما ما قلت في الوصية فإن وصيتي فيهم: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله، ادع لى بنى، فأتوه، فلما رأهم ترققت عيناه، وقال: بنفسى فتية تركتهم عالة لا شيء لهم وبكى ثم قال: يا بنى إني قد تركت لكم خيراً كثيراً، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً، يا بنى إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار، أو تفتقروا إلى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحب إلى، قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله^(١).

وجاء فى رواية: أن عمر أوصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلى غسله وتكفينه، وأن يمشى معه إلى قبره، وأن يكون مما يلى إدخاله فى لحده، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأى منزل تركتني، وعلى أى حال أسلمتني إليه الدنيا، فقال له مسلمة: هذه مائة ألف دينار، فأوص فيها بما أحببت، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين والله، لقد ألت قلباً قاسية، وجعلت لنا ذكراً فى الصالحين^(٢).

وفى الأثرين الماضيين دروس وعبر، ففى الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى حتى فى وصيته لأولاده بعد موته، حيث لم يرض لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئاً لا يدرى على أى وضع يكون تنفيذه، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل، فيلحقه بذلك شيء من الإثم، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه. لقد تصور فى معاملة أولاده وقوعه بين أمرين: أن يغنيهم فى الحياة الدنيا، وذلك بمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين، فيتعرض بذلك للفحات النار، أو أن يكتفى بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالى من الشبهات، فيتعرض بذلك لفحات الجنة، فاختر الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١١٥، ١١٦)، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٠).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص (١٢٢، ١٢٣)، التاريخ الإسلامى (١٦/ ٢٢٢).

وأهل الذمة، وأكرم بذلك من تركه، إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة، والعقول المبصرة، وفي قوله: إنما ولد عمر بين رجلين: إما رجل صالح فسيغنيه الله، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله.. لفئة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذًا من قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتوا من بعده، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عونًا لهم على معصية الله تعالى^(١). وأما في الأثر الثاني فيوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحرى في اكتساب المال، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً، بل لا بد من التحرى في كسبه، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقه، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه^(٢).

٦- وصيته إلى من يغسله ويكفنه: عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء: إذا أنا مت وغسلتموني وكفتموني وصليتم عليّ وأدخلتموني لحدي، فاجذب اللبنة من عند رأسي، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه، وإن رأيت قد زويت عنها، فاخرج إلى المسلمين ماداموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي، قال: فلما وضع في لحده وقبل باللبن على وجهه، جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة فحمدنا الله وأثنينا عليه^(٣).

٧- كراهته تهوين الموت عليه: قال عمر بن عبد العزيز: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر^(٤). وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن^(٥).

٨- حاله لما احتضر: لما احتضر عمر بن عبد العزيز، قال: اخرجوا عني فلا يبقين عندي أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا، وقعد مسلمة

(٢) المصدر نفسه (١٦/٢٢٢).

(١) التاريخ الإسلامي (١٦/٢٢٢).

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٦٤٤، ٦٤٥).

(٤)، (٥) المصدر نفسه (٢/٦٤٨).

وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان^(١)، وجاء فى رواية: ... قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول فى أيام مرضه: اللهم أخف عنهم موتى ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجت من عنده، وجلست فى بيت بينى وبينه باب، فسمعتة يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ، فجعلت لا أسمع له صوتاً ولا حساً ولا كلاماً. فقلت لوصيف كان يخدمه: لو دخلت على أمير المؤمنين فدخل وصاح، فقلت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة، وأغمض عينيه بإحدى يديه، وأغمض فمه بالآخرى، ومات رحمه الله^(٢). وجاء فى رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذى هلك فيه قال لهم: أجلسونى، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحد النظر، فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال: إني لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن ثم قبض^(٣). وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

٩- تاريخ وفاته: توفى الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (١٠١هـ) على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يوماً، وتوفى بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت ستين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفى وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات: كان عمره لما توفى أربعين سنة^(٤).

١٠- الأموال التى تركها عمر بن عبد العزيز: اختلفت الروايات على مقدار تركه عمر بن عبد العزيز حين توفى، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها^(٥)، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطى قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - قال: قلت: كم ترك لكم من

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٦٥٢).

(٢) المصدر نفسه (٢/٦٥٣).

(٣) المصدر نفسه (٢/٦٥٤).

(٤) تاريخ القضاء، ص (٣٦٣).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٠)، تذكرة الحفاظ (١/١١٨).

المال؟ فتبسم وقال: حدثني مولى لنا كان يتولى نفقته، قال: قال لى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - حين احتضر: كم عندك من المال؟ قلت: أربعة عشر ديناراً، فقال: تحتملون بها من منزل إلى منزل، فقلت: كم ترك من النحلة؟ قال: ترك لنا نحلة ستمائة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك، وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة، فقسمنها على خمس عشرة^(١). والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكراً، لوفاة ابنه عبد الملك قبله^(٢). وقال ابن الجوزي: أبلغنى أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه: عظمى. قال: مات عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وخلف أحد عشر ابناً، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير، وثمان موضع قبره ديناران، وقسم الباقي على بنيه، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل فى يوم واحد على مائة فرس فى سبيل الله عز وجل، ورأيت رجلاً من ولد هشام يُتصدق عليه^(٣). ومما مضى يظهر لنا جلياً - أن المال الذى ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه - وهو مال كثير - أخذ فى التناقص حتى توفى - رحمه الله ورضى الله عنه-^(٤).

١١ - ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ- مسلمة بن عبد الملك: حين توفى عمر ورآه مسجى قال يرحمك الله، لقد لينت لنا قلوباً قاسية وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً^(٥).

ب- فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما توفى جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها، فقالوا لها: جئناك لتعزيك بعمر، فقد عمت مصيبة الأمة، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر، كيف كانت حاله فى بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً، ولكنى والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً لله من عمر، والله إن

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٥).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٦).

(١) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (٣٣٧).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزي، ص (٣٣٨).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص (٣٢٩).

كان ليكون من المكان الذى ينتهى إليه سرور الرجل بأهله، بينى وبينه لحاف، فيخطر على قلبه الشئ من أمر الله، فينتفض كما ينتفض طائر وقع فى الماء، ثم يشجب، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه، فأطرح اللحاف عنى وعنه، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها^(١).

ج- الحسن البصرى: لما أتى الحسن موت عمر بن عبد العزيز قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، يا صاحب كل خير^(٢).

د- مكحول: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ- يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن البصرى وعمر بن عبد العزيز^(٣)، كأن النار لم تخلق إلا لهما^(٤).

و- بكاء الرهبان عليه: عن الأوزاعى قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل، قال: فقلت له: نعم، فأرخى عينيه فبكى سجاماً، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكى عليه، ولكن أبكى على نور كان فى الأرض فطفئ^(٥).

ز- ملك الروم وبطارقته: بعث عمر بن عبد العزيز وفدًا إلى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين، وحق يدعوهم إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه، والتاج على رأسه، والبطارقة على يمينه وشماله، والناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب، وانصرفوا عنه فى ذلك اليوم، فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه، وقد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا، قال: إن صاحب مصلحتى التى تلى العرب جاء فى كتابه فى هذا الوقت: أن

(١) البداية والنهاية نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (٥٦). (٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٣).

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى نقلاً عن ملامح الانقلاب، ص (٥٥). (٤) صفة الصفوة (٣/١٥٦).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى، ص (٣٣١).

ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا، فقال: ألكم تبكون، أو لدينكم أو له؟ قالوا: نبكى لأنفسنا ولديننا وله، قال: لا تبكوا له، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم، فإنه خرج إلى خير مما خلف، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته، لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى، ولقد كانت تأتيني أخباره باطنًا وظاهرًا، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدًا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه، ولم أعجب لهذا الراهب الذى ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته، ولكنى عجبت من هذا الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهدها فيها، حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً^(١).

١٢- ما نسب إليه من كرامات عند موته: يحكى عن حسين القصار^(٢) قال: كنت أجلب الغنم فى خلافة عمر بن عبد العزيز، فمررت يوماً برع وفى غنمه نحو من ثلاثين ذئباً حسبته كلاباً، فقلت له: يا راعى ما ترجوه بهذه الكلاب كلها؟ فقال: يا بنى، إنها ليست كلاباً إنما هى ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب فى غنم لا يضرها، فقال: يا بنى، إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس^(٣). ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات وإلا لكانت فى عهد النبوة وقيام الدولة فى المدينة وعهد الخلافة، ولم نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع الغنم. وقد رثيت له منامات صالحة وتأسف عليه الخاصة والعامة، لاسيما العلماء والزهاد والعباد^(٤).

١٣- ما قيل فيه من رثاء:

أ - كثير عزّة قال فيه:

عمّت صنائعه فعم هلاكه فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مآثمهم عليه واحد فى كل دار رنة وزفير

(١) مروج الذهب (٣/١٩٥)، فقه عمر بن عبد العزيز (١/٥٤).

(٢) لعله جسر القصاب: اختلف فيه، والأكثر على تضعيفه.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٦٧٠). (٤) البداية والنهاية (١٢/٧١٨).

يشنى عليك لسانك من لم توله
ردت صنائعه عليه حياته
ب- وقال جرير:

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به
الشمس كاسفة^(٢) ليست بطالعة
ج- وقال محارب بن دثار:

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم
يا لهف نفسى ولهف الواجدين معى
وأنت تتبعهم لم تأل مجتهداً
لو كنت أملك والأقدار غالبية
لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كادت تموت وأخرى منك تنتظر
على العدول التى تغتالها الحفر
سقياً لها سنن بالحق تفتقر
تأتى رواحاً وتبياناً وتبتكر^(٤)

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وأعلى ذكره فى المصلحين، فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التى سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة ولم تهملها الليالى، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون، فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا، وما ذلك على الله بعزيز فى جيلنا أو فى غيره.

(١) البداية والنهاية (١٢/٧١٨) .

(٢)، (٣)، (٤) المصدر نفسه (١٢/٧١٩) .

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣

المقدمة

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

الفصل الأول

من الميلاد إلى خلافته

- أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته..... ١١
- ثانياً: العوامل التي أثرت في تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز..... ١٦
- ١- الواقع الأسرى..... ١٦
- ٢- إقباله المبكر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم..... ١٧
- ٣- الواقع الاجتماعي..... ١٩
- ٤- تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها..... ١٩
- ثالثاً: مكانته العلمية..... ٢٢
- رابعاً: عمر في عهد الوليد بن عبد الملك..... ٢٣
- ١- ولايته على المدينة..... ٢٤
- ٢- مجلس شورى عمر بن عبد العزيز..... ٢٥
- ٣- الحادث المؤسف في ولاية عمر..... ٢٧
- ٤- عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له..... ٢٨
- ٥- بين عمر بن عبد العزيز والحجاج في خلافة الوليد..... ٢٨
- ٦- عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق..... ٢٩
- ٧- نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل..... ٣٠
- ٨- رأى عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج..... ٣١
- ٩- نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه..... ٣٢
- خامساً: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك..... ٣٢
- ١- أسباب تقريب سليمان لعمر..... ٣٢

- ٢- تأثير عمر على سليمان فى إصدار قرارات إصلاحية ٣٣
- ٣- إنكاره على سليمان بن عبد الملك فى تحكيمه كتاب أبيه ٣٣
- ٤- إنكاره على سليمان بن عبد الملك فى الإنفاق ٣٤
- ٥- حث عمر سليمان على رد المظالم ٣٤
- ٦- أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً ٣٤
- ٧- هم خصماؤك يوم القيامة ٣٥
- ٨- زيد بن الحسن بن على مع سليمان ٣٥
- سادساً: خلافة عمر بن عبد العزيز ٣٦
- ١- منهج عمر فى إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى ٣٩
- ٢- الحرص على العمل بالكتاب والسنة ٤١
- ٣- الشورى فى دولة عمر بن عبد العزيز ٤٢
- ٤- العدل فى دولة عمر بن عبد العزيز ٤٤
- أ - سياسته فى رد المظالم ٤٥
- أمير المؤمنين يبدأ بنفسه ٤٥
- رد مظالم بنى أمية ٤٩
- بنو أمية يلجأون إلى أسلوب الحوار الهادئ ٥٢
- بنو أمية يرسلون عمه عمر بن عبد العزيز ٥٢
- تلاشى المعارضة الجماعية لبنى أمية ٥٣
- أ- رد الحقوق لأصحابها ٥٤
- ب- عزله جميع الولاة والحكام الظالمين ٥٤
- ج- رفع المظالم عن الموالى ٥٦
- د- رفع المظالم عن أهل الذمة ٥٨
- هـ- إقامة العدل لأهل سمرقند ٦٠
- و- الاكتفاء باليسير من البيئات فى رد المظالم ٦١
- ز- وضع المكس ٦٢
- ح- رد المظالم وإخراج زكاتها ٦٢

- ٦٤ النهى عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال
- ٦٤ فى تحديد حمولة البعير بستمائة رطل
- ٦٥ ٥- المساواة
- ٦٧ ٦- الخريات فى دولة عمر بن عبد العزيز
- ٦٨ أ- الحرية الفكرية والعقدية
- ٦٨ ب- الحرية السياسية
- ٦٩ ج- الحرية الشخصية
- ٦٩ د- حرية التجارة والكسب

الفصل الثانى

أهم صفاته ومعالـم تجديده

- ٧٣ أولاً: أهم صفاته
- ٧٣ ١- شدة خوفه من الله تعالى
- ٧٥ ٢- زهده
- ٧٨ ٣- تواضعه
- ٨٠ ٤- ورعه
- ٨٢ ٥- حلمه وصفحه وعفوه
- ٨٣ ٦- صبره
- ٨٤ ٧- الحزم
- ٨٥ ٨- العدل
- ٨٦ ٩- تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه
- ٨٧ ثانياً: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز
- ٨٨ ١- من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية
- ٨٨ أ- الشورى
- ٨٩ ب- الأمانة فى الحكم وتوكيل الأمناء
- ٩٠ ج- مبدأ العدل
- ٩١ د- أحياءه مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

- ٢- من شروط المجدد وصفاته ٩٢
- أ- أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج ٩٢
- ب- أن يكون عالماً مجتهداً ٩٢
- ج- أن يشمل تجديده ميدانى الفكر والسلوك فى المجتمع ٩٣
- د- أن يعم نفعه أهل زمانه ٩٤
- ٣- قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ٩٤

الفصل الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

- أولاً: توحيد الألوهية ٩٩
- ١- الدعاء ١٠٠
- ٢- الشكر ١٠١
- ٣- التوكل ١٠٢
- ٤- فى الخوف والرجاء ١٠٢
- ثانياً: معتقد عمر بن عبد العزيز فى أسماء الله الحسنى ١٠٤
- ثالثاً: معتقد عمر بن عبد العزيز فى صفات الله تعالى ١٠٧
- رابعاً: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد ١٠٩
- خامساً: مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز ١١٠
- سادساً: الإيمان باليوم الآخر ١١١
- ١- عذاب القبر ونعيمه ١١٢
- ٢- الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء ١١٢
- ٣- الميزان ١١٤
- ٤- الحوض ١١٤
- ٥- الصراط ١١٥
- ٦- الجنة والنار ١١٦
- ٧- رؤية المؤمنين ربهم فى الجنة ١١٧

١١٨	سابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين
١١٨	١- اتباع الكتاب والسنة
١١٩	٢- الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين
١٢٠	٣- التمسك بما تدل عليه الفطرة
١٢١	ثامناً: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم
١٢٢	تاسعاً: موقفه من أهل البيت

الفصل الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية، والمرجئة والجهمية

١٢٧	أولاً: الخوارج
١٢٨	١- موقفه من خروج الخوارج عليه
١٢٩	٢- مناظرته للخوارج
١٣٤	٣- السبب المفضي لقتال الخوارج
١٣٤	٤- رد متاع الخوارج إلى أهليهم
١٣٥	٥- حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيراً
١٣٥	ثانياً: الشيعة
١٣٦	ثالثاً: القدرية في عهد عمر بن عبد العزيز
١٣٦	١- تعريف القدرية في الاصطلاح
١٣٧	٢- نشأة القول بالقدر في الإسلام
١٣٩	٣- موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقي
١٤١	٤- بيان مراتب القدر
١٤٤	٥- الفرق بين القضاء والقدر في الاصطلاح
١٤٥	٦- الرضا بالقضاء والقدر
١٤٥	رابعاً: المرجئة
١٤٨	خامساً: الجهمية
١٥٢	سادساً: المعتزلة

- ١- نشأة المعتزلة وسبب التسمية ١٥٢
- ٢- فرق المعتزلة ١٥٣
- ٣- دور المعتزلة فى إحياء عقائد الفرق التى سبقتها ١٥٣
- ٤- أصول المعتزلة الخمسة ١٥٦

الفصل الخامس

حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

- أولاً: الحياة الاجتماعية ١٥٧
- اهتمامه بأولاده وأسرته ١٥٧
- ١- ربطهم بالقرآن الكريم ١٥٧
- ٢- تعهدهم بالنصيحة ١٥٧
- ٣- الحث على التسامح وحسن الظن ١٥٨
- ٤- الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة ١٥٨
- ٥- حرصه على العدل بينهم ١٥٨
- ٦- تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم ١٥٩
- ٧- تربية أولاده على الزهد والاقتصاد فى المعيشة ١٥٩
- اهتمامه بتعليم أولاده ١٦١
- ١- اختيار المعلم والمؤدب الصالح ١٦٢
- ٢- تحديد المنهج التعليمى ١٦٢
- ٣- تحديد طريقة التأديب والتعليم ١٦٣
- ٤- تحديد أوقات وأولويات التعليم ١٦٣
- ٥- مراعاة المؤثرات التعليمية ١٦٤
- من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز فى تربية أولاده: ابنه عبد الملك ١٦٤
- ١- عبادته وبكاؤه ١٦٤
- ٢- علمه وفقهه وفهمه ١٦٥
- ٣- تذكيره والده بالموت ١٦٥
- ٤- صلابته فى دين الله وقوته فى تنفيذ الحق ١٦٦

- ١٦٦ ٥- مرضه وموته رحمه الله.
- ١٦٧ - حياته مع الناس.
- ١٦٧ ١- اهتمامه بإصلاح المجتمع.
- ١٧٠ ٢- تذكيره الناس بالآخرة.
- ١٧٠ ٣- تصحيح المفاهيم الخاطئة.
- ١٧٢ ٤- إنكاره العصبية القبلية.
- ١٧٣ ٥- رفضه للقيام بين يديه.
- ١٧٤ ٦- تقديره أهل الفضل.
- ١٧٦ ٧- المرء بأصغريه: قلبه ولسانه.
- ١٧٧ ٨- امرأة مصرية مسكينة تشتكى لعمر.
- ١٧٧ ٩- اهتمامه بفداء الأسرى.
- ١٧٨ ١٠- قضاء ديون الغارمين.
- ١٧٨ ١١- خبر الأسير الأعمى عند الروم.
- ١٧٩ ١٢- المرأة العراقية التى فرض لبناتها من بيت المال.
- ١٨٠ ١٣- إحيائه سنة العطاء.
- ١٨٠ ١٤- إغناؤه المحتاجين عن المسألة.
- ١٨١ ١٥- دفع المهور من بيت المال.
- ١٨١ ١٦- جهوده فى التقريب بين طبقات المجتمع.
- ١٨٢ ١٧- شعوره الكبير بالمسئولية تجاه أفراد المجتمع.
- ١٨٣ ١٨- فى الإنفاق على الذمى إذا كبر ولم يكن له مال.
- ١٨٤ ١٩- أكله مع أهل الكتاب.
- ١٨٤ ٢٠- عمر والشعراء.
- ١٨٦ ٢١- تأثيره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربرى.
- ١٩٠ ٢٢- بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز.
- ١٩١ - من معالم عمر بن عبد العزيز فى التغيير الاجتماعى:
- ١٩١ ١- القدوة.

- ٢- التدرج والمرحلية..... ١٩١
- ٣- فهم النفوس البشرية..... ١٩١
- ٤- ترتيب الأولويات..... ١٩١
- ٥- وضوح الرؤية فى خطواته الإصلاحية..... ١٩٢
- ٦- التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية..... ١٩٢
- ثانيًا: عمر بن عبد العزيز والعلماء..... ١٩٢
- ١- قريهم من الخليفة وشد أزره للسير فى منهجه الإصلاحى..... ١٩٣
- ٢- تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسئولية..... ١٩٥
- ٣- مشاركتهم فى تولى مناصب الدولة وأعمالها..... ١٩٦
- ثالثًا: المدارس العلمية فى عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية..... ١٩٧
- ١- مدرسة الشام..... ١٩٨
- ٢- المدرسة المدنية..... ٢٠٠
- ٣- المدرسة المكية..... ٢٠١
- ٤- المدرسة البصرية..... ٢٠٣
- ٥- المدرسة الكوفية..... ٢٠٥
- ٦- المدرسة اليمنية..... ٢٠٦
- ٧- المدرسة المصرية..... ٢٠٨
- ٨- مدرسة شمال إفريقيا..... ٢٠٩
- رابعًا: منهج التابعين فى تفسير القرآن الكريم..... ٢٠٩
- ١- تفسير القرآن بالقرآن..... ٢١٠
- ٢- تفسير القرآن بالسنة..... ٢١٣
- ٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة..... ٢١٥
- ٤- اللغة العربية..... ٢١٧
- ٥- الاجتهاد..... ٢١٧
- خامسًا: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين فى خدمة السنة..... ٢١٨
- سادسًا: منهج التزكية والسلوك عند التابعين .. مدرسة الحسن البصرى مثلاً..... ٢٢٧

- ٢٢٧ ١- أسباب تأثيره فى قلوب الناس
- ٢٣٠ ٢- ملامح التصوف السنى عند الحسن البصرى
- ٢٣٠ أ- قسوة القلب ومواته وإحيائه
- ٢٣١ - كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان
- ٢٣٢ - كثرة ذكر الموت
- ٢٣٣ - زيارة القبور بالتفكر فى حال أهلها
- ٢٣٤ ب- حثه على الإخلاص وطاعة الله وإصلاح ذات البين والتفكر
- ٢٣٤ - الإخلاص
- ٢٣٥ - الحث على طاعة الله
- ٢٣٧ - الاعتبار والتفكر
- ٢٣٨ - العلم والعلماء
- ٢٣٨ ج- النهى عن طول الأمل وذم الكبر
- ٢٣٨ ٣- من تلاميذ الحسن البصرى الذين اشتهروا بعلم السلوك
- ٢٣٩ أ- أيوب السخيتانى
- ٢٤١ ب- مالك بن دينار
- ٢٤٢ ج- محمد بن واسع
- ٢٤٢ ٤- براءة الحسن البصرى من الاعتزال
- ٢٤٥ ٥- الإمام العادل فى نظر الحسن البصرى
- ٢٤٨ ٦- الحسن البصرى يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز
- ٢٤٩ ٧- موقفه من الثورات التى حدثت فى عهده
- ٢٥١ ٨- كيف يضل قوم هذا فيهم
- ٢٥٢ ٩- وفاة الحسن البصرى
- ٢٥٣ سابعاً: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية
- ٢٥٦ ثامناً: الاهتمام بالدعوة الشاملة
- ٢٥٦ ١- وضع قانون التفرغ للدعاة
- ٢٥٧ ٢- حض العلماء على نشر العلم وإعلانه

- ٣- توجيه الأمة إلى أهمية العلم ٢٥٨
- ٤- إرسال العلماء الربانيين في شمال إفريقيا ٢٥٨
- ٥- رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها ٢٦٣
- ٦- تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام ٢٦٤
- ٧- تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة ٢٦٤

الفصل السادس

الإصلاحات المالية في عهد عمر بن عبد العزيز

- أولاً: أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر ٢٦٧
- ١- إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل ٢٦٧
- ٢- تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية الاجتماعية ٢٦٩
- ثانياً: وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته ٢٦٩
- ١- توفير المناخ المناسب للتنمية ٢٦٩
- ٢- اتباع سياسة زراعية جديدة ٢٧٠
- أ- منع بيع الأرض الخراجية ٢٧١
- ب- العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم ٢٧١
- ج- الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات ٢٧٣
- د- عمر والحمى ٢٧٤
- هـ- توفير مشاريع البنية التحتية ٢٧٤
- ثالثاً: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية في الإيرادات ٢٧٥
- ١- الزكاة ٢٧٥
- ٢- الجزية ٢٧٧
- ٣- الخراج ٢٧٨
- ٤- العشور ٢٧٩
- ٥- خمس الغنائم والفيء ٢٨١
- رابعاً: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز ٢٨٣
- ١- إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية ٢٨٣

- ٢٨٧ ٢- ترشيد الإنفاق فى مصالح الدولة
- ٢٨٧ أ- قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمرء الأمويين
- ٢٨٧ ب- ترشيد الإنفاق الإدارى
- ٢٨٨ ج- ترشيد الإنفاق الحربى

الفصل السابع

المؤسسة القضائية فى عهد عمر بن عبد العزيز

وبعض اجتهاداته الفقهية

- ٢٨٩ أولاً: فى الأفضية والشهادات
- ٢٨٩ ١- فى صفات القاضى
- ٢٨٩ ٢- فى حكم القاضى فيما استبان له ويرفع ما التبس عليه
- ٢٩٠ ٣- فى الفرق بالحمقى والنهى عن العقوبة فى الغضب
- ٢٩١ ٤- خطأ الوالى فى العفو خير من تعديه فى العقوبة
- ٢٩١ ٥- فى ترك العمل بالظن
- ٢٩٢ ٦- فى الهدية لولاية الأمر
- ٢٩٢ ٧- فى نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية
- ٢٩٣ ٨- فىمن ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط
- ٢٩٣ ٩- فى أثر البيئة الغائبة فى تأخير القضاء
- ٢٩٣ ١٠- نفقة البعير الضال
- ٢٩٣ ١١- فى حرية اللقيط
- ٢٩٣ ١٢- شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه
- ٢٩٣ ثانياً: فى الدماء والقصاص
- ٢٩٤ ثالثاً: فى الديات
- ٢٩٧ رابعاً: فى الحدود
- ٣٠١ خامساً: فى التعزيرات
- ٣٠٣ سادساً: فى أحكام السجناء
- ٣٠٥ سابعاً: فى أحكام الجهاد

ثامناً: فى النكاح والطلاق ٣٠٧

الفصل الثامن

الفقه الإدارى عند عمر بن عبد العزيز

وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

- أولاً: أشهر ولاية عمر بن عبد العزيز ٣١١
- ثانياً: حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح ٣١٤
- ثالثاً: الإشراف المباشر على إدارة شئون الدولة ٣١٥
- رابعاً: التخطيط فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣١٧
- خامساً: التنظيم فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣١٩
- سادساً: الوقاية من الفساد الإدارى فى عهد عمر بن عبد العزيز ٣٢١
- ١- التوسعة على العمال فى الأرزاق ٣٢١
- ٢- حرصه على الوقاية من الكذب ٣٢٢
- ٣- الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات ٣٢٢
- ٤- النهى عن الإسراف والتبذير ٣٢٣
- ٥- منع الولاية والعمال من ممارسة التجارة ٣٢٤
- ٦- فتح قنوات الاتصال بين الوالى والرعية ٣٢٤
- ٧- محاسبته لولاية من قبله عن أموال بيت المال ٣٢٥
- سابعاً: المركزية واللامركزية فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣٢٥
- ثامناً: مبدأ المرونة فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣٢٧
- تاسعاً: أهمية الوقت فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣٣١
- عاشرًا: مبدأ تقسيم العمل فى إدارة عمر بن عبد العزيز ٣٣٤
- من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحى ٣٣٥
- من خصائص السنن الإلهية ٣٣٧
- ١- أنها قدر سابق ٣٣٧
- ٢- أنها لا تتحول ولا تتبدل ٣٣٧
- ٣- أنها ماضية لا تتوقف ٣٣٧

٣٣٧	٤- أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها
٣٣٨	٥- لا ينتفع بها المعاندون ولكن يتعظ بها المتقون
٣٣٨	٦- أنها تسرى على البر والفاجر
	- الآثار الدنيوية التي ظهرت فى دولة عمر بن عبد العزيز بسبب الحكم بما
٣٣٨	أنزل الله
٣٣٨	١- الاستخلاف والتمكين
٣٣٨	٢- الأمن والاستقرار
٣٣٨	٣- النصر والفتح
٣٣٩	٤- العز والشرف
٣٣٩	٥- بركة العيش ورغد الحياة فى عهده
٣٤٠	٦- انتشار الفضائل وانزواء الرذائل
٣٤١	٧- الهداية والتثبيت
٣٤٣	- الأيام الأخيرة فى حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله
٣٤٣	١- آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز
٣٤٤	٢- سقيه السم
٣٤٥	٣- شراء عمر موضع قبره
٣٤٦	٤- وصيته لولى عهده يزيد بن عبد الملك
٣٤٦	٥- وصيته لأولاده عند الموت
٣٤٨	٦- وصيته إلى من يغسله ويكفنه
٣٤٨	٧- كراهته تهوين الموت عليه
٣٤٨	٨- حاله لما احتضر
٣٤٩	٩- تاريخ وفاته
٣٤٩	١٠- الأموال التى تركها عمر بن عبد العزيز
٣٥٠	١١- ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته
٣٥٢	١٢- ما نسب إليه من كرامات عند موته
٣٥٢	١٣- ما قيل فيه من رثاء
٣٥٥	الفهرس